كتاب الدوحة

روحي الخالدي

تاريخ عِلْم الأدب

عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو

تقديم: فيصل درّاج





تاريخ علم الأدب

عند الإفرنج والعرب وفكتور هوكو

روحي الخالدي



يوزع مجاناً مع العدد 68 من مجلة الدوحة مايو 2013

تاريخ علم الأدب

عند الإفرنج والعرب وفكتور هوكو

تأليف: روحي الخالدي

الناشر :
وزارة الثقافة والفنون والتراث - دولة قطر
رقم الإيداع بدار الكتب القطرية :
الترقيم الدولي (ردمك) :

إخراج وتنفيذ : القسم الفني - مجلة الدوحة
لوحة الغلاف : علي حسن - قطر

تاريخ علم الأدب
عند الإفرنج والعرب وفكتور هوكو

روحي الخالدي

تقديم: فيصل درَّاج

فهرس الكتاب

مثقف حداثي في مجتمع تقليدي

د. فيصل درّاج

شكّلت النخبة الفلسطينية المتعلّمة من نهاية القرن التاسع عشر إلى وعد بلفور عام 1917، امتداداً للنخبة العربية المستنيرة في المشرق العربي، وفي مصر بخاصة، فعالجت قضايا الحرية والاستبداد، واحتفت بالتعليم وتنشئة العقول المفكرة، وتأملت الفرق الكاسح بين قوة الغرب وتخلّف العرب والمسلمين. وكان على المتعلّمين الفلسطينيين، لأسباب فُرضت عليهم، أن يلتفتوا إلى التهديد الذي جسّده المشروع الصهيوني في شعاره الزائف: «أرض بلا شعب لشعب بلا أرض» معتبراً فلسطين «الحضن الشرعي» للشعب اليهودي، الذي لا أرض له. ولعل الشعور بالتهديد، كما بتفوق «الآخر»، هو الذي أيقظ لدى المتعلّمين الفلسطينيين وعياً مبكراً بضرورة «التعرّف على الآخر» وكسر الانغلاق العثماني الموروث.

أعطى روحي ياسين الخالدي (1864 ـ 1913)، الذي رحل قبل قرن من الزمن، صورة عن المثقف الفلسطيني الحديث، الذي نقد السلب المسيطر في مجتمعه، وقارن بين مجتمع فلسطيني تقليدي ومشروع صهيوني «وافد»، تسلّح بالحداثة الغربية. وعلى الرغم من نباهة فردية وانتماء إلى عائلة وطنية عريقة، فإن منظور الخالدي النقدي ارتبط بتحصيله العلمي ومساره العملي، كموظف مرموق في السلطنة العثمانية.

ملامح المثقف الحديث:

حصل الخالدي على قسط من تعليمه الأولي في مدينته القدس، وتلقَّى العلم، لاحقاً، في المدرسة السلطانية في بيروت، ثم أمضى ست سنوات في «المكتب الملكي في

إسطنبول»، تلتها ثلاث سنوات في «مدرسة العلوم السياسية» في باريس، تردّد خلالها على جامعة السوربون، حيث استمع إلى محاضرات في مواضيع متنوعة. غير أنه ما لبث أن بَلْوَر ثقافته النظرية بخبرة سياسية عملية، حين عُيِّن عام 1898 «قنصلاً جنرالاً» للدولة العثمانية في مدينة بوردو الفرنسية، فأمضى فيها تسع سنوات، انتخُب بعدها عضواً في مجلس «المبعوثان» في إسطنبول، نائباً عن القدس في انتخابات 1908 ـ 1912، حيث طرح بمثابرة قضيته الفلسطينية والأخطار الصهيونية المحدقة بها.

تتكشّف شخصية الخالدي، في تكاملها الفكري، في كتابيه الشهيرين: «تاريخ علم الأدب عند الإفرنج والعرب وفيكتور هوكو» الذي نشرته دار الهلال في مصر عام 1904، وأعيد طبعه عام 1912، و«السيونيزم أو المسألة الصهيونية» الفريد في منهجه، الذي انشغل به قبل موته عام 1913. عالج في الأول قضايا أدبية، معتمداً نظراً تاريخياً لامس العلاقة بين الأدب والحرية، ورصد في الثاني مأساة الصراع بين طرف صهيوني يأخذ بمعارف حديثة، وطرف فلسطيني مقيد إلى إرث عثماني سلبي ثقيل.

يوحي كتاب «تاريخ علم الأدب» بدراسة مختصة تقارن بين الموروث الأدبي العربي، الذي عرف ركوداً طويلاً، والأدب الفرنسي الذي أعطته الثورة الفرنسية ـ 1789 ـ حياة جديدة. غير أن الخالدي اتخذ من كتابه، الذي يبدو محايداً، مناسبة للاحتفاء بالحرية والتنديد بالاستبداد. ولعل وعيه بملامسة محرمات تتطيّر منها السلطة العثمانية، أقنعه بحجب اسمه عن الطبعة الأولى لكتابه، والاكتفاء بتوقيع: المقدسي، نسبة إلى القدس التي ولد فيها. لم يحمل الكتاب اسم مؤلفه الصريح إلا في طبعته الثانية، بعد رحيل السلطان عبد الحميد وابتعاد أجهزته القمعية الرهيبة. آثر الخالدي، في البداية، نشر كتابه في سلسلة مقالات في مجلة الهلال، ابتداء من الجزء الرابع من السنة الحادية عشرة، أي ما يوافق 15/11/1902.

عاش الخالدي في مجتمع تقليدي عثماني تحكمه إرادة وحيدة، وأمدّه تحصيله العلمي بين القدس وبيروت بمعرفة ممتازة للأدب العربي القديم، المتمحور حول الشعر والشعراء. وبعد تجربته الفرنسية، إن صح القول، تعرّف على مجتمع جديد، قارنه بالمجتمع الذي جاء منه، ولم يخرج راضياً، مستذكراً تجربة المصري رفاعة الطهطاوي، التي سبقته بسبعة عقود وأكثر واستقرّت في كتاب: «تخليص الإبريز في تلخيص باريز». فبعد أن قرأ الأدب العربي القديم، في أشكاله المتوارثة المستقرة، قرأ أدباً فرنسياً متجدداً، عنوانه الأكبر فيكتور هوكو، الأديب المتمرّد والمبدع في أكثر

من مجال. وبسبب نظر نقدي اطمأن إلى المقارنة المشخصة وابتعد عن التجريد، أدرك الخالدي دلالة الثورة الفرنسية، التي أنتجت مجتمعاً حراً، لا مكان فيه لإرادة «الحر الوحيد»، أي السلطان الأعلى، فهو يقول: «كانت فرنسا في افتتاح القرن التاسع عشر في هرج ومرج من هول الانقلاب الكبير الذي حدث فيها، وغيّر معالمها، وشلّ منها عرش الاستبداد، وحرّر العقول، وبدّل الظلام بالنور، ووضع العدل في موضع الظلم..». ولم يكن الانقلاب الكبير، إلا الثورة الفرنسية، التي لم تستطع لغة المؤلف «المتوارثة» أن تعطيها ترجمة موافقة، فاكتفى بكلمة «الانقلاب» ونعته بـ «الكبير»، محاولاً أن يقرّب المعنى تقريباً. والواضح أن الفلسطيني المحاصر بأجهزة مستبدة، مبهور بالانقلاب الذي جاء بالعدل والنور وقوّض الاستبداد، وبكل ما لم يكن متاحاً في المجتمع العثماني. وكي لا يبدو مغترباً في حديثه ولا متطاولاً على السلطة التي يعمل عندها، يعود إلى التعاليم الإسلامية فيقول: «لو قرأنا القرآن وفهمناه، كما ينبغي، لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية. ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً، ولكن الأمم الآسيوية والإفريقية أبت الخروج من تحت نير العبودية». والمهم في كلامه، المدافع عن الحرية والإسلام، ماثل في تعبير: «كما ينبغي»، الذي يوحي بأن معنى الإسلام من فهم المسلمين لتعاليمه، وأن هناك «فهماً» يلبي حاجات سلطوية، يبتعد عن الفهم الصحيح للقرآن الكريم الذي ينكر الاستبداد ويحتفي بالعدل والحرية.

ربط الخالدي بين تطور الأدب وتطور المجتمع، واتخذ من الحرية مرجعاً للطرفين، مدركاً دور الاستبداد في تعطيل القرائح البشرية: «ولو طال على الأندلسيين الأمر في الحضارة وتعاقبت الأدوار على اللغة وتوالت عليهم الانقلابات لأدّوا بأحسن مما جاء به فيكتور هوكو وإميل زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري. لكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فأمحلت عقولهم وسُدّت قرائحهم.».

توسَّلَ الخالدي لغة جديدة، تتحدث عن الحضارة والعقل، ولا تتسع لكلمة «الثورة»، وتساوي بين الاستبداد و»الانقراض»، وتداعي العقول. ومن اللافت إلى حدود الدهشة إشارته إلى دور الحرية في تطوّر اللغة، مبتعداً عن التصوّر الساذج الذي يرى اللغة معطىً ثابتاً، منعزلاً عن فكر الذين يتعاملون معها، بل معطىً كاملاً لا يحتاج إلى تطوير وإصلاح. ولهذا يقول: «إن هناك نسبة تامة بين الحرية

وبين ارتقاء لسان العرب، فكلما اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق الأدب في العربية... وكلما زاد الاستبداد تقيّدت عقول الأدباء بالسلاسل..».

يذهب المؤلف إلى هدفه واضحاً؛ إذ الحديث عن الحرية حديث عن الدولة، وإذ الحرية ارتقاء ونقيضها سقوط وتسفّل، بلغة عبد الرحمن الكواكبي، وإذ حياة اللغة من حياة الأفراد، فهي تعرف الذبول، وقد تعرف النماء والازدهار، ذلك أن اللغة علاقة اجتماعية، تؤثر في العلاقات الاجتماعية الأخرى وتتأثر بها. حال الإبداع الأدبي الذي يحتاج إلى الحرية قبل أن «ينهل من معين اللغة»، أعبقرية كانت أو عادية لا عبقرية فيها.

تتراءى غايات الخالدي في مفهوم تنويري بامتياز: «الارتقاء»، الذي هو مرادف لكلمة أخرى أكثر حدة هي: التطور، الذي يزجر الثبات ويرجم الداعين إليه، والذي هو «سنّة من سنن الوجود»، كما أشار المصري محمد المويلحي في كتابه «حديث عيسى بن هشام»، الذي ظهر، تقريباً، في العام الذي ظهر فيه كتاب الخالدي. وواقع الأمر أن كتاب «علم الأدب» ينتمي إلى المناخ الفكري النقدي الذي ظهر فيه كتاب المويلحي، الذي نقد تداعي أجهزة الدولة المصرية، وكتاب السوري قسطاكي الحمصي «منهل الورّاد في علم الانتقاد»، الذي نشر في القاهرة عام 1907، ونقد بدوره جمود الأدب العربي، واحتفى بالإبداع الأدبي الأوروبي احتفاء لا ينقصه التزيّد.

ينطوي منظور الخالدي الحداثي على أربعة أبعاد محددة: إشارته الواضحة إلى «الحرية والإبداع» مدافعاً عن دولة متحررة واجبة الوجود واعتباره الدولة، في كيانها المتمايز والمهيمن، مرجعاً لحريات الأفراد وتفتح إمكانياتهم ولتأمين شروط الارتقاء اللغوي والأدبي. انتبه «المقدسي» إلى دور الدولة الفرنسية في سياستيها اللغوية والأدبية، اللتين دعتا إلى إصلاح لغوي يلبي الحاجات الوطنية المستجدة، وإلى إنتاج أدبي يربط بين حاضر المجتمع وآفاقه المنشودة. لم يكن في ربطه بين الدولة والأدب بعيداً عما قاله طه حسين، بعد أربعة عقود تقريباً، في كتابه الشهير: «مستقبل الثقافة في مصر». أما البعد الثاني في حداثة الخالدي فيقوم في تأكيد وحدة العلاقات المجتمعية، حيث مستوى اللغة من مستوى ما يفكر به أفراد المجتمع ويعرفونه، مثلما أن الإبداع الأدبي يستلزم مجتمعاً حوارياً ولا ينبثق عن «القواميس» وإتقان قواعد النحو والصرف. فهو يقول: «فالتكلّف في زماننا للإنشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلقات السبع أو سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريري والهمذاني، ليس فيه كبير فائدة، ما دام

الأصل في الكلام للمعاني، والمقصود من المعاني إظهار أسرار الكون». يتضمن القول نقداً للنزعة الاتباعية، التي تعيد إنتاج القديم وترى فيه فضيلة، ونقضاً للشكلانية الكتابية، التي تستظهر الكلام الموزون والمقفى، ولا تنتبه إلى الكون وأسراره، كما لو كانت المعرفة اللغوية بديلاً عن المعارف جميعها. يبدو الخالدي، وهو يربط بين الإبداع وسؤال الحرية والدولة، أكثر نباهة من أصوات «إبداعية» لاحقة أطنبت في مدح «اللغة المتفجّرة»، وأسرفت في الثناء على «الحساسية الجديدة»، ولم تقتصد في تقريظ «الفردية الحرة» و«إمبراطورية الجسد.»،....

يتلامح البعد الثالث في مفهوم السببية الاجتماعية ـ التاريخية، فما ينهض بالأدب يقترن بعقل تحرر من المحاكاة الصمّاء، علّم ذاته، كما علّمه غيره، الاعتراف بقيمة المتخيّل، الذي يجمع بين القائم والمحتمل ويرتبط بإنسان يعيش في مجتمع يرى في الحوار فضيلة، ولا يطمئن إلى الإطلاقيات والأحكام المطلقة. فكما أن لإبداع «فيكتور هوكو» الكبير أسبابه، فإن للعقول العربية التي ما زالت مفتونة بالمقامات أسبابها أيضاً. ليس في الخالدي ما يؤمن بـ «الانبثاق»، الذي يعتقد القائلون به أن الإبداع من صنع نخبة موهوبة تقف فوق المجتمع. فقد عايش موليير، وهو ما أدركه مؤلف الكتاب، دلالة النقد الاجتماعي، الذي يوحّد بين الحرية وحقوق المواطنة، ولم يستولد مسرحه من قواميس اللغة الفرنسية القديمة والجديدة.

أفرد الخالدي صفحات طويلة للشاعر فيكتور هوكو، وعرض لأعماله شعراً ونثراً، وقوّمه، وأثنى على كفاحه، ووجّه إليه تحية واسعة، مدفوعاً بأسباب متعددة. أراد أن يشارك الشعب الفرنسي احتفاله بالذكرى المئوية لشاعره الكبير، وأن يضيء دوره «الانقلابي» الذي بشّر بالثورة، ودفع ثمنه بلا حسبان، وأن يثني أيضاً على جهده في التعريف بالأدب العربي، وأن يحرّض الجيل الجديد من الأدباء العرب على التعلّم منه، داخل الإبداع الأدبي وخارجه. فلولا هالة كاتب رواية «البؤساء» اللصيقة بالثورة الفرنسية، لما كان له تلك الشهرة العالمية. يقول الخالدي في هذا المجال: «وكان لقومه الحظ الأوفر من التقلّبات السياسية والتبدّلات الاجتماعية، واستوقفوا نحوهم أنظار العالم المتمدن بأسره»، تستوقف «التقلّبات السياسية»، أي «الثورات»، نظر العالم المتمدن، كما لو كان الإقدام على الثورات، كما النفور منها، معياراً للثقافة والتمدن والارتقاء.

يتراءى البعد الأخير، الذي هو من ثوابت الفكر التنويري العربي، في الاعتراف

بكونية الإبداع الإنساني، الذي يسوّغ استفادة الشاعر العربي من غير العرب مثلما أتاح، في القرن الحادي عشر، انتقال قواعد الشعر العربي إلى الغرب. عالج المؤلف هذا البعد في فصل عنوانه: «ما اقتبسه الإفرنج من قواعد الشعر العربي»، الذي يدلّل على ثقافة واسعة في المجالين معاً، ويدعو إلى التعلّم من «الآخر» بمنظور نقدي لا انغلاق فيه. ولعل اقتناعه بضرورة انفتاح الأدب العربي على الأجناس الأدبية الحديثة، لأن ارتقاء الأدب من تنوع أجناسه، هو الذي وضع على قلمه، وهو يتعرّض لتعامل العرب مع الأدب اليوناني، نقداً مضمراً، ذلك أن العرب تعاملوا معه بمعايير ضيّقة: «فيتضح مما تقدّم أن العرب لم يأخذوا من الأمم الذين ترجموا كتبهم إلا العلم والحكمة فقط، ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم، ولا ترجموا شيئاً من ذلك. مع أنهم رأوا في كتاب المنطق لأرسطو ثناء طيباً على أوميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلّدوه ولا اتبعوا ولا نهجوا منهجه...» يستمر هذا الموقف، الذي يقبل بالعلم والتقنية ويرفض أساسهما الفلسفي بأقساط مختلفة، إلى يومنا هذا.

اقترن إقبال الدارسين العرب على الأدب الغربي، في حقوله المختلفة، بمعارفهم اللغوية، فقد كان الخالدي يعرف التركية والفارسية والفرنسية، وإن قسطاكي الحمصي ذهب إلى فرنسا ودرس فيها الفلسفة فترة، وأقام في إيطاليا وتعلّم لغتها، وإن سليمان البستاني، الذي نشر في مصر عام 1904 ترجمته المجيدة لـ «إيلياذة هوميروس»، التي عمل فيها من 1887 إلى 1902، كان يعرف أربع لغات أوروبية، إضافة إلى اليونانية والتركية والفارسية،....

مارس الخالدي النقد الأدبي من وجهة نظر حداثية، فجانب الاختصاص الضيّق، الذي يبدأ بالنصوص وينتهي بها، وقرأ الأدب كعلاقة اجتماعية تباطنها علاقات اجتماعية أخرى، تنطوي على السياسة والثقافة وتنظيم المجتمع مقترباً، في حدود زمنه، من النقد الدنيوي الذي قال به إدوارد سعيد، بعد عقود.

المقارنة: من المجتمع إلى الأدب:

يثير مسعى الخالدي إلى دراسة الأدب الفضول والتساؤل، ذلك أنه جاء من عائلة عريقة تتميّز بسلطة اجتماعية وانتمى، بعد إنهاء تحصيله المدرسي، إلى نخبة اجتماعية مرموقة وشغل، لاحقاً، موقعاً عالمياً في «السلك الدبلوماسي». كان في مساره

ما يأخذه إلى العمل في دوائر السلطة، الذي كان طموحاً مسيطراً في زمانه، إذ قيمة الإنسان الظاهرية من عائلته، وإذ قيمته الفعلية من الموقع الذي يشغله في جهاز السلطة.

وإذا كان إلمام الخالدي بالأدب واللغة والتاريخ أمراً مألوفاً لدى «العائلات العريقة»، فإن خروجه عن المألوف تجلّى في إنجازه دراسة مختصة، وربطها بمنهج مقارن دقيق، يستبعد الاستظهار السهل، ويؤثر عليه التحليل والتفسير والاستنتاج. ولعل وعيه بأنه يدخل عالم الأدب من باب غير مألوف هو الذي أملى عليه عنوان كتابه «تاريخ علم الأدب»، مؤكداً أن قراءة الظاهرة الأدبية علم لا يختلف عن العلوم الأخرى، وأن له منهجه وقواعده. وسواء كان النقد الأدبي علماً، أم أنه مجرد حقل خاضع للتذوّق، فإن في استعمال كلمة: «علم» احتجاجاً على الارتجال والأحكام الجاهزة، وابتعاداً عن منظور جاهز يقصر «الإبداع الشعري» على العرب.

اختار الخالدي، وهو ينقد معطيات ساذجة ترى «الأدب العربي» ولا ترى غيره، أن يذهب إلى أدب «آخر»، آخذاً بالمأثور القائل: «والضد يكشف حسنه الضد». ففي مقابل العمومية الأدبية، التي تختصر الأدب إلى قواعد النحو والصرف ولغة القواميس، قرأ «المقدسي» أدباً فرنسياً متنوعاً في مناهجه وفي أجناسه الأدبية، منتقلاً من العام إلى الخاص، قائلاً بأن «قوة الأدب» من تنوع أجناسه، وأن الأجناس الأدبية المتنوعة يأتي بها «الواقع الانقلابي»، ولا تورَّث توريثاً، كما لو كان لكل فترة تاريخية أنواع أدبية خاصة بها، تضيف إليها الفترات اللاحقة أنواعاً غير مسبوقة.

يقول الخالدي: «وكان عصر لويس الرابع في الأدب عصراً مدرسياً (كلاسيك) أشبه بعصر أوغسطوس عند الرومان وبعصر برقليس عند اليونان. ونبغ من شعراء الفرنساويين في فن الفاجعات (تراجيدي) الأديب بيير قورنيل والشاعر المغلّق راسين. ونبغ في فن المضحكات (كوميدي) الأديب بوليير. ونبغ في فن الهجويات (ساتير) الأديب المدقق بوالو. فهؤلاء من نوابغ العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى «الفصاحة والبلاغة». يرمي هذا القول، الذي يحايثه وعي تاريخي لا يقرّ الثبات ولا يعترف به، إلى تبيان قصور الأدب العربي «الحديث» عن آداب الأمم المتحضّرة، وإلى تخلّفه عن «الزمن العالمي» الذي يعيش فيه.

مرّ القول السابق على «الزمن التاريخي» مرّتين: مرة أولى وهو يشير إلى «كلاسيك»، أي العصر الذي عاش قضاياه المتوارثة، وهيّأ الشروط لعصر جديد، ومرة

ثانية، وهو يلامس حياة اللغة حيث «اللسان» يزدهر ويبلغ منتهى البلاغة أحياناً، ويهمد ويذبل ويتكلّس في فترات أخرى. وتعبيراً عن حيوية الأزمنة التي تفرض حاجات أدبية متطورة، تحدث الخالدي عن «التراجيدي، الكوميدي، والساتير»، التي تعني «المأساة والملهاة والأدب الهجائي». شاء المؤلف أن يعالج موضوعه من داخله، أي أن يجد نظيراً عربياً للمفردات النظرية الفرنسية، مجتهداً قدر ما يستطيع قائلاً بـ: الفاجعات، المضحكات، وفن الهجويات،... عبّر في اجتهاده عن صعوبات الانتقال من ثقافة إلى أخرى، لأن ما لا يمكن ترجمته لا يمكن فهمه، وهو ما أشار النقد الأدبي العربي إليه لاحقاً بمصطلح: التبييء، الذي يعني ربط المفاهيم بثقافة المجتمع ولغته.

عمل الخالدي على تقديم مادة أدبية جديدة، وترجمة المفاهيم الخاصة بها، كاشفاً عن ريادته في مجال المقارنة الأدبية وعن غربة اللغة العربية عن الثقافة المعاصرة. فقد ترجم ما يدعى اليوم بالمدرسة الرومانسية بـ «الطريقة الرومانية» والواقعية بـ «الطريقة الحقيقية»، والمسرحية بـ «الفاجعة أو المبكية»، واكتفى بنقل بعض المصطلحات كما جاءت في لغتها الأهلية، حال «ليريك:»، التي تعني الشعر الغنائي، و»دوكيمان»، التي تعني الوثائقي أو التسجيلي... طرح في هذا كله السؤال الشائك التالي: كيف يمكن نقل ثقافة ذات تطور تاريخي معيّن إلى لغة ثقافة أخرى قصّرت تاريخياً عن هذا التطوّر؟ لا يرتبط بالكلمات، ولا حتى بالرصيد اللغوي فهو متصل وشديد الاتصال بالمعيش الثقافي، في شكله الأدبي وغير الأدبي، وبالبيئة الاجتماعية، في حاجاتها الأدبية والفنية. ولهذا جاء العرب المشتغلون بالمسرح بلفظ: المسرحية، حين كتبوا المسرحية وعثروا على جمهور مسرحي، وغدت الواقعية كلمة معروفة وسائدة، حين كتب الأدباء العرب الرواية وعثروا على نقد أدبي يروّج للقيم الواقعية في الأدب. ومع أن السياق التاريخي جعل الخالدي مغترباً في مجاله، وأثقل عليه بغربة لغوية، فقد سعى، معتمداً على وعيه الحاد، أن يتحرر من هذا الاغتراب، فترجم وعرّب في آن، ترجم وفقاً لإمكانيات اللغة العربية في زمنه، و»عرّب» حين كان في اللغة العربية ما لا يحتاج إلى ترجمة، فهو يقول: «فالأول والبلاد والأليجي... إلخ، يقابلها في العربية المدح والغزل والرثاء... إلخ، غير أن هذه الأقسام في العربية من الأقسام المعنوية، وأما عند الفرنساويين فهي من الأقسام اللفظية التي لكل منها عروض مخصوص وشكل معروف...»، ثم يقول: «وأما الكوميديا فهي مصورة لأخلاق

الهيئة الاجتماعية ومساوئهم ومعايبهم وبصورة مضحكة كروايات موليير ومنها رواية تارتوف وهي مترجمة للتركية..».

اضطرب الخالدي أمام الوقائع الأدبية الغربية عن ثقافته العربية، فترجم التسجيلي، «دوكيمان»، وحاور ما يعرفه مثل شعر المدح والغزل والرثاء، وقارن بين المتشابه القريب من الأدب الشعبي، فهو يعقد مقارنة بين الملحمة الفرنسية الشهيرة «ملحمة رولان» وبين سيرة أبي زيد الهلالي، اللتين تحيلان على الشجاعة والجرأة والقوة. بل إن انشداده إلى المقارنة دفعه، وبشكل لا تنقصه الطرافة، إلى مقارنة قتال الشاعر الإنجليزي اللورد بايرون إلى جانب اليونانيين ضد الأتراك، ومواجهة المتنبي للخصوم الذين اعترضوا طريقه. وإذا كانت المقارنة الأولى «ملحمة رولان» قريبة من المعقولية، إذ لكل متخيل شعبي بطل يؤسطره، فإن المقارنة الثانية ناتجة عن قياس شكلاني تنقصه المعرفة، ذلك أن اللورد بايرون لم يكن مهجوساً بالفخار الذاتي، بل بشغف بالموت أقرب إلى العدمية.

قرأ الخالدي، معتمداً على منهجه المقارن، أثر الشعر العربي على الفرنجة، الذي أخذوا من العرب «علم القوافي»، واستعملوه في القرن الثالث عشر وشيئاً من «أدب الظرفاء» الذي يسخر من «علية القوم». كما قدم ملاحظات نبيهة وهو يقرأ الأثر العربي في شعر «التروبادور» في فرنسا، أو «الشعراء الجوالين»، الذين حاكوا العرب، والأدب الأندلسي بخاصة، في القوافي ورقة الغزل واللحن الموسيقي.. لم ينسَ أن يتوقف أمام البيئة الاجتماعية، التي تحفز على التخلي عن بعض الأعراف الأدبية، واستبدالها بما هو أكثر مواءمة.

ربما يكون مفهوماً سبب المقارنة المتكررة، التي عقدها الخالدي بين «فيكتور هوكو» وأبي العلاء المعري، فكلاهما واسع المواضيع ومرجع في ثروته اللغوية، وكلاهما إنساني النزعة يميل إلى التأمل والسير مع حكمة الحياة. غير أن ما لا يقنع هو تلك المقارنة بين مسرحية موليير «تارتوف»، التي لها شكلها الفني الخاص بها وأغراضها الأخلاقية ومجتمعها الواضح في فئاته وقيمه، وبعض أبيات من شعر المعري، التي تميل إلى السخرية. وواقع الأمر أن الخالدي قاد المقارنة إلى مواقعها الصحيحة، تارة، حال حديثه عن شعراء «ال...بادور»، والعلاقة بين ملحمة رولان وسيرة أبي زيد الهلالي، وقاده شغف المقارنة إلى مواقع أقرب إلى الاصطناع، كأن يرى «تارتوف» في شعر المعري. والأقرب إلى الواقع أن «المقدسي» وضع بعداً تربوياً تنويرياً في كتابه، ناقداً

الانغلاق الثقافي، وناقداً العقول التي ترفض «الآخر» دون أن تعرفه، وهو ما وسّع عنده مجال المقارنة، إلى حدود الخلل أحياناً. فقد تضمَّن كتابه، أساساً، دعوة إلى «الانفتاح عن الآخر» ومعرفته، مقرراً أن معرفة الذات من معرفة الآخر، وأن هذه المعرفة إيجابية النتائج. لذا يقول بعد حديثه عن انتقال علم القوافي إلى الافرنج: «تحسن الشعر الإفرنجي بإدخال القوافي العربية فيه وباقتباس أدب الأندلسيين»، كما لو كا ن يقول: إن في معرفة فيكتور هوكو، أساساً، ما يحسن الشعر العربي، وأن في التعرّف على أدب الفرنسيين ما يفتح للأدب العربي أفقاً جديداً.

لم يكن ما أنجزه الخالدي ممكناً من دون معرفة واسعة بأدبه العربي وبأدب «الآخر»، إضافة إلى وعي تحرّر من الأوهام، لا يقيّد الإبداع الإنساني بدين أو بأمة، ويحتفي بقيم كونية قابلة للتفاعل والتبادل. ولم يكن في منظوره هذا، وهو الفضولي في مجال المعرفة والتنقيب، بعيداً عن طموح الألماني غوته، الذي حلم بأدب إنساني تتمتع به البشرية جميعها، والذي ذكر الخالدي عمله «فاوست» وعلّق عليه.

انطوى بحثه على بعدين، يمكن أن يدعى أحدهما: فتنة الآخر، الذي هو طرف أكثر تفوقاً وابتكاراً، تجلى في التفات الخالدي إلى شعر «هوكو» ومسرح موليير وإبداع كورنيي، وفي انجذابه إلى أفكار الثورة الفرنسية، التي جعلت من الاحتفاء بالإبداع معتقداً جديداَ. أظهر البعد الثاني فاعلية «الوعي المأزوم»، الذي أدرك نقص مجتمعه واجتهد في تدارك النقص وتجاوزه. ولعل ما يثير الانتباه ركون «المقدسي» إلى مصطلح «علم الأدب» تأكيداً لقيمته وتمييزاً له من قراءات بسيطة، تستظهر القديم ولا تضيف له شيئاً. ولهذا تمكن قراءة كتاب الخالدي على ضوء كتاب طه حسين الشهير «في الأدب الجاهلي»، الذي اعتبر «تاريخ الأدب» علماً، له من القيمة ما يضعه إلى جانب العلوم الطبيعية، مثل علم الفيزياء وعلم الأحياء. تقاسم الطرفان الاحتفاء بالحرية، فواجه الأول الاستبداد العثماني بـ«حريات الثورة الفرنسية»، وجابه حسين «أنصار القديم» بحرية الفكر والمفكر، اللذين هما مصدر الأسئلة الصحيحة.

تعيّن علاقة العلم بالحرية عمل الخالدي كتاباً راهناً، بعد مرور قرن من الزمن على رحيل مؤلفه، ذلك أن ما نقده لا يزال واسع الحضور، في العالم العربي، حتى اليوم.

ـ في فضيلة المقارنة:

تُنسب إلى الخالدي ريادة الأدب المقارن في البحث الأدبي، فقد جاء بمنهج يفتح

الأدب العربي على غيره من الآداب، ولا يرى فيه أدباً مغلقاً على ذاته، تنسب إليه صفات متعددة، لا تخلو من «النشوة المكتنزة» في كثير من الأحيان. بيد أن الخالدي، السياسي المحترف في الفضاء العثماني، لم يعالج «الأدب المقارن « إلا لأنه كان واعياً لمعنى المقارنة وأثرها على وعي الإنسان بعامة، أكان ذلك في مجال الأدب أو في مجالات أخرى. فمثلما أنه لا وجود لهوية إلا مقارنة بهوية أخرى، تتفوق عليها أو تقصّر عنها، فأنه لا وجود لنص أدبي إلا مقارنة بغيره، يتقاطع معه ويختلف عنه ويفيده ويستفيد منه في آن.

تتمثل المقارنة بقراءة موضوع، له خصوصيته، بمعرفة مستقاة من موضوع آخر، له خصوصية مغايرة. تفرض هذه القراءة، التي تنتج دينامية جديدة، «معرفة الأنا» التي لها موضوعها، و»معرفة الآخر» الذي له موضوع يخصه. وفضيلة القراءة ماثلة في التعرّف على الاختلاف، وفي ملامسة المشترك أيضاً. وبسبب هذه الفضيلة تقرأ «الأنا» إمكانياتها، في وجوهها السلبية والإيجابية، وتتأمل «الآخر» الذي يحرّضها أحياناً على النقد والنقد الذاتي. ولذلك تتجلّى المقارنة مصدراً من مصادر المعرفة، إذ الوقوف على شعر «فيكتور هوكو» يلزم بمعرفة الأسباب التي دعت إليه وتأمُّل بنيته الداخلية، ويقود إلى الوقوف على حال الشعر العربي الحديث، الذي حاول أن يقوم بثورة خاصة به. اتكأ الخالدي، وهو يقارن بين الأدب العربي والفرنسي، على مادة أدبية متنوعة، ولم يعتبر «الكم المعرفي» المكتفي بذاته معياراً معرفياً. فكما أن الثقافة لا يمكن تحويلها بأدوات ثقافية فقط، كما لو كان في داخلها ما يعدّلها، فإن النقد الأدبي، كما رأه الخالدي ومارسه، بحاجة إلى مواد غير أدبية تلتمس في علم التاريخ الذي يشرح ازدهار البلاغة وهبوطها، وفي علم الاجتماع الذي يربط اللسان بالبيئة الاجتماعية، حيث فقر الحاجات يفقر اللغة، بقدر ما يؤدي تطور الحاجات وتنوعها إلى لغة متجددة. ويلتمس أيضاً في أشكال الحكومات، التي قد يؤدي استبدادها إلى اندثار الآداب والأمم معاً.

أقنع تكامل العلوم الباحث المقدسي، الذي عاش في مجتمع فرنسي صيّر العلم إلى عقيدة جديدة، بالحديث عن «علم الأدب» الذي له، ضمنياً، قوانينه، إذ لا علم بلا قوانين، الأمر الذي جعله يرى» «نسبة تامة بين الحرية وارتقاء الأدب»، التي تقابلها «نسبة تامة بين الاستبداد وانحطاط الأدب»، مذكراً بالقانون الفيزيائي. ولأن لكل علم، جدير باسمه، تاريخ له سيرورة من العلو والانخفاض، رجع الخالدي إلى الأدب العربي،

في حالاته المزهرة، مدافعاً عن الإسلام وشارحاً «فقر العقول» باستبداد الحكام. اطمأن في الحالين إلى مفهوم «السببية التاريخية» الذي يعطف كل ظاهرة اجتماعية على الأسباب التي أنجبتها، متأثراً بالفسلفة الوضعية الفرنسية، المسيطرة في زمنه، التي تحيل على اسمين شهيرين هما أوغسنت كونت، وإميل دوركايم.

طَبَّق الخالدي. قدر ما استطاع، منهجاً علمياً على الأدب، وأنتج نصاً لم ينتجه غيره من الفلسطينيين طيلة الفترة التي سبقت النكبة عام 1948. وعاد وطَبَّق منهجه في نص وطني ـ سياسي يقترب من الفرادة، كتبه قبل موته بقليل، عنوانه: «السيونيزم أو المسألة الصهيونية». وعلى الرغم من الحدود الفاصلة بين الموضوعين التي لم يكسرها إلا غسان كنفاني في دراسته الرائدة عن «الأدب الصهيوني» فإن القاسم المشترك بين نصي الخالدي ماثل في المنهج العلمي الذي يستقصي الظاهرة في وجوهها المختلفة.

يضيء تعامله مع الصهيونية الطريقة التي عامل بها تاريخ الأدب. كتب الخالدي: «السيونيزم في اللغات الأجنبية مشتقة من كلمة «سيون»، أي صهيون بزيادة أداة «إيزم» الدالة على الرأس السياسي أو الفكر الديني والفلسفي. وصهيون اسم الجبل الذي عليه اليوم قلعة القدس وقبر داود عليهما السلام. ويطلق تعميماً على مدينة القدس الشريف وما حولها». أما غاية الصهيونية فيه «تأسيس دولة يهودية في فلسطين يهاجر إليها اليهود المتألمون من الاضطهاد والمسمى بإصطلاح الفرنجة «أنتي سيمتيزم»، «معاداة السامية».

يتراءى الأساسي المختلف في كتاب «المسألة الصهيونية» في دور المؤرخ، الذي أخذ به الخالدي، ودعاه إلى سرد تاريخ اليهود في روسيا وبولندا وأسبانيا والبرتغال، ويتوقف أمام «قضية دريفوس» في فرنسا، التي واكبها الزعيم الصهيوني هرتسل، حين كان صحافياً، وحرّضته على نشر كتابه «الدولة اليهودية» في عام 1896. ويظهر حسّه التاريخي في المقارنة المأساوية بين أحوال المجتمع الفلسطيني، في مطلع القرن العشرين، وأحوال «المجتمع اليهودي الوافد»، الذي حمل معه أطباءه ومهندسيه والتقنيات الأوروبية والزراعة الحديثة،... ربط الخالدي بين «المجتمع الوافد» والغرب المنتصر، وبين « المسألة الفلسطينية» والمجتمع العثماني المهزوم، أو الذي تنتظره الهزيمة.

لم يكن الخالدي في «تاريخ علم الأدب» مهجوساً بما دُعِي لاحقاً بحوار الثقافات، إنما كان يتطلع إلى مجتمع عربي يستطيع أن يحاوره غيره، لأن الحوار اللامتكافئ يأتي

بالنوايا الطيبة لا أكثر. لذا يقرأ الكتاب كوثيقة تاريخية لها شكل أدبي، تقارن بين التقدّم والتأخر، بالمعنى التاريخي، ولا تكتفي بالإبداع الأدبي المكتفي بذاته.

بعد رحيل الخالدي بعقود، اقترب الأدب العربي من كونية الإبداع الإنساني، واتضحت معالم المقارنة الأدبية. فقارن بعض النقاد بين نجيب محفوظ وبلزاك، وتطلع جبرا إبراهيم جبرا إلى رواية فوكنر «الصخب والعنف» وهو يكتب روايته «السفينة»، واستفاد إميل حبيبي من «كانديد» فولتير في روايته «الوقائع الغريبة في اختفاء سعيد أبي النحس المتشائل»، ورأى بعض النقّاد شبهاً بين «المحاكمة» لفرانتس كافكا و«لجنة» صنع الله إبراهيم،...غير أن جميع هذه الملاحظات لم تترجم في كتاب عربي جديد جامع عن «تاريخ علم الأدب». جمع الخالدي بين النظر والعمل، ولم يكن أستاذاً جامعياً مولعاً بالاختصاص.

وأخيراً، فإن الكتاب، في طبعته الجديدة، احتفظ بطريقة الخالدي في كتابة «الأسماء»، فهي تشكّل جزءاً من وضع الكتاب وشخصيته، كما حذفت بعض الفصول التي لا يضير حذفها موضوع الكتاب ومضمونه.

قبل مائة عام، وفي السادس من آب (أغسطس) رحل الفلسطيني روحي الخالدي الذي دعى نفسه ذات مرة بـ: المقدسي».

إشارات

روحي الخالدي: تاريخ علم الأدب، دمشق، 1984 مع مقدمة ضافية ونافذة للدكتور حسام الخطيب.

قسطاكي الحمصي: منهل الورّاد في علم الانتقاد، مصر في 11 ك2 (يناير) سنة 1907، من دون ذكر دار النشر.

عبد الرحمن الكواكبي، طبائع الاستبداد، بيروت، دار العلم للملايين 1983.

فيصل دراج: ذاكرة المغلوبين، الهزيمة والصهيونية في الخطاب الثقافي الفلسطيني، المركز الثقافي العربي، بيروت، 2002.

نشر كتاب الخالدي عن الصهيونية، على حلقات في جريدة الحياة اللندنية، ابتداء من 30 آب حتى 5 أيلول عام 1997، مع مقدمة منيرة للأستاذ وليد الخالدي.

د. هاشم ياغي: حركة النقد الأدبي الحديث في فلسطين، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، 1973.

يوسف لمدان: العرب والصهيونية (انظر المقدمة الخاصة بدور المثقفين الفلسطينيين)، دمشق، 2009.

مقدمة الطبعة الثانية

صدرت الطبعة الأولى من هذا الكتاب سنة 1904 والمؤلف يومئذ قنصل جنرال الدولة العثمانية فـي بوردو، وقد نال الاستبداد من نفوس العثمانيين وقيّد أقلام أحرارهم فلم نعد نسمع غير أصوات المتزلّفين أو المتملّقين. وإذا تكلّم الحرُّ تكلّم همساً، وإذا كتب أخفى اسمه ولا سيما إذا كان من موظفي الحكومة ولو كان موضوعه فـي الأدب أو الطب، لأن الجواسيس يحولون كل معنى إلى المكائد والدسائس. وأبت نفس صديقنا الخالدي مؤلف هذا الكتاب إلا أن ينشر ثمار درسه وبحثه فعهد بذلك إلى «الهلال» على أن تنشر بلا توقيع. فنشرنا هذا الكتاب مقالات متوالية، والقرّاء يسألوننا عن اسم كاتبها ويتشوّقون لمعرفته. فلما طبعناها فـي كتاب على حدة تقدّمنا إليه أن يأذن بنشر اسمه فـي صدر الكتاب، فاكتفى بالإشارة إلى موطنه فوضعنا بدل اسمه لفظ «المقدسي» نسبة إلى القدس الشريف مسقط رأسه.

فأحرز هذا الكتاب إعجاب القرّاء الأدباء فـي العالم العربي وغيره، فحملنا ذلك على إعادة طبعه رغبة فـي نشر علم الأدب بين قرّاء العربية ونحن فـي أشد الاحتياج إليه. ولا سيما على الأسلوب الذي توخاه المؤلف من المقابلة بين الآداب العربية والإفرنجية وذكر ما اقتبسه الإفرنج من آدابنا وأساليبنا مما لم يتصد للبحث فـيه أحد قبله ــ ولم نرَ أحداً تصدى له بعده. فضلاً عما يتخلل ذلك من الفوائد التاريخية والقواعد

الاجتماعية عن الأدب العربي وتاريخه، وما تقلّب عليه من الأطوار تبعاً للسياسة والاجتماع. وتاريخ الأدب الفرنساوي من أول عهده إلى زمن فيكتور هوكو وما أدخله فيه هذا النابغة من التعديل نقلاً عن الأسلوب العربي فـي الشعر والأدب وصل إليه عن طريق إسبانيا. وناهيك بسهولة عبارة الكاتب وتناسقها مما يرتاح إليه القارئ، ويجد فيه لذة وشوقاً للمطالعة، غير ما عني بتلخيصه ووصفه من مؤلفات هوكو وبسط ما حوته من الفوائد الفلسفية والأدبية ومقابلة ذلك بما عند أدباء العرب.

وبالجملة فإن هذا الكتاب من الذخائر النفيسة التي لا يستغني عنها أديب. فلما نفدت نسخ الطبعة الأولى استأذناه فـي إعادة الطبع فأذن لنا خدمة للأدب العربي، وقد أُعلن الدستور وصار المؤلف من أعظم أركانه فلم يبقَ ثمة باعث على التكتّم فطبعناه، وصدَّرناه باسمه، وزيناه برسمه ليتم التعارف بينه وبين القرّاء والمعجبين بأدبه وفضله.

القاهرة فـي 15 يناير سنة 1912.

فكتور هوكو

وعلم الأدب عند الإفرنج والعرب

1

أدب كل لسان ما حصل فيه الإجادة من الكلام المنظوم والمنثور، ويشتمل على فنون الشعر والأغاني والروايات والقصص وضروب الأمثال والحكم والنوادر والحكايات والمقامات والتاريخ والسياسة والرحلة وغير ذلك. وقد جمع نخبة من كلام العرب المتقدّمين كتاب «مجاني الأدب» المطبوع في بيروت. والأصل في الكلام للمعاني لا للألفاظ. لأن اللفظ قالب أو ظرف للمعنى يتخذه المتكلّم أو الكاتب لسبك ما يصوّره في نفسه ويشكّله في قلبه من المعاني، فينقل بذلك مقصوده للسامع أو القارئ حتى يعلمه كأنه يشاهده. قال الشاعر:

إنّ الكلام لفي الفؤاد وإنما　　　جُعل اللسان على الفؤاد دليلا

فالاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس يسمى «الفصاحة» و«البيان» لأن المتكلم يفصح عما في ضميره ويبيّنه بكلمات عذبة سلسلة وبعبارات جلية خفيفة على القلب واللسان. فالمتكلّم على هذا النسق «فصيح» وكلامه ملفوظاً كان أو مكتوباً «كلام فصيح». وحيث كان المعنى سابقاً للّفظ وجب أن تكون الألفاظ تابعة للمعاني وخادمة لها. وليس المعنى تابعاً للفظ كما حُكي عن بعض الأمراء أنه ولّى أحدهم قضاء «قم» وهي من مدن العراق العجمي بين طهران وكاشان، ثم كتب إليه بلا سبب موجب «أيها القاضي بقم قد عزلناك فقم» يعني بلفظ «قم». فقال القاضي والله ما عزلني إلاّ محبة الأمير في التزام السجع.

ولا يكمل علم الأدب للمتبحّر فيه إلا بعد أن ينظر في أدب الأمم المتمدّنة ولو

نظرة عامة يطلع بها على مجمل تاريخ أدبهم وعلى بعض ما ترجم من مؤلفات المشاهير من كتبهم فيقف على ما عندهم من سعة الفكر وسمو الإدراك وبلاغة المعاني ويعرف أساليبهم في النظم والنثر وتصرفهم في الكلام ويميّز بين المتقدّمين والمتأخرين منهم.

فإذا أحاط علمه بذلك فهم الغرض الذي يتطلبه أئمة البلاغة من أي لسان وملة، ورأى الهدف الذي يروم كل منهم إصابته فيصوّب نحوه القلم عسى أن يكون له مع الخواطئ سهم صائب؛ لأن البلاغة لا تختص باللسان العربي وحده. وكلما ارتقت الأمة في سلّم الحضارة كان لسانها أبلغ وأدبها أوسع وأكمل لتهافت أدبائها على تنميق الكلام وتهذيب مناحيه وفنونه فيدركون بالتدريج حقائق المعاني التي ربما استعملها آباؤهم وأجدادهم في غير مواضعها بسبب الجهل الناشئ من ضيق العمران وقلة العلوم. ويفرغون ما أوجدوه وما أصلحوه من المعاني في قوالب تناسبها من الألفاظ والتراكيب. «فالبلاغة» هي مطابقة اللفظ للمعنى من جميع وجوهه بخواص تقع للتراكيب في إفادة المعنى المقصود الذي يقتضيه الحال والمقام. وفي المثل: (لكل مقام مقال). سواء كان المقال أي اللفظ عربيّاً فصيحاً بإعراب، أو حضريّاً بلا إعراب، أو عجميّاً بأن كان عثمانياً[1] أو إنجليزيّاً أو فرنسياً أو فارسياً. أو غير ذلك. فالمتكلّم بلسان العرب والبليغ فيه يتحرّى التركيب المفيد لمقصوده على أساليب العرب وأنحاء مخاطباتهم. وينظم الكلام على ذلك الوجه قدر ما يتيسّر له. فإذا لازم قراءة الطبقة العالية من كلام العرب الأقدمين حصلت له ملكة فيه، وسهل عليه التركيب على أسلوبهم حتى لا يكاد ينحو فيه غير منحى البلاغة التي للعرب. وإن سمع تركيباً غير جارٍ على ذلك المنحى نبا عنه سمعه. وإذا كثر اشتغاله بالترجمة والكتب المترجمة كانت أساليبه أعجمية مع بقاء الألفاظ في كلامه عربية. كما يتضح لمن أمعن النظر في رسائل ابن رشد المطبوعة في أوروبا ومنها ما طبع في مصر، وفي رسائل غيره من فلاسفة الإسلام وأهل المنطق. فإنه يرى فيها الأساليب الأعجمية واللهجة التي لم يلهجها أدباء الجاهلية.

وامتاز لسان العرب وخصوصاً لغة مضر بخاصتين: الأولى تشمل حركات الإعراب في أواخر الكلم وكيفية تركيب الألفاظ. فالحركات هي التي تدل في لغة مضر على

1- اللسان العثماني هو المسمى باصطلاح الناس «اللسان التركي» ويتألف من ثلاث لغات إحداها لسان جغتاي. وهو أصل اللسان التركي، وثانيها اللسان العربي وثالثها الفارسي. وأول من وضع قواعد اللسان العثماني في عصر الإصلاح هو جودت باشا المؤرخ الشهير.

تعيين الفاعل أو المفعول. وأما في غيرها من لغة الحضر وبقية اللغات فيدل على ذلك التقديم والتأخير أو القرائن المبيّنة لخصوصيات المقاصد، وكيفية التركيب هي التي تدل على لغة مضر على ما تقتضيه الأحوال من التأكيد والتعريف والتنكير مثل تقديم لفظ أو تأخيره لوصف المعنى وتكيفه، ومثل زيادة حرف أو تنقيصه لزيادة شيء في المعنى الأصلي؛ لأن زيادة المبنى تدل على زيادة المعنى كقولنا: زيد قائم، وإنّ زيداً قائم وإنّ زيداً لقائم. وفي القرآن الكريم حكاية عن الرسل قولهم في المرة الأولى {إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} وفي المرة الثانية {رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ} فالألفاظ بأعيانها تدل على المعاني بأعيانها في كل لسان. وخواص التركيب في لغة مضر من تقديم وتأخير وزيادة حرف تدل على الأحوال المكتنفة بذلك المعنى. وأما في لغة الحضر وفي الألسن الأعجمية فأكثر ما يُدلّ على هذه الأحوال بألفاظ وكلمات مخصوصة، ولذا كان الكلام العربي أوجز وأقل ألفاظاً وعبارة من غيره. ولهذا أشار نبينا محمد عليه السلام بقوله «أوتيت جوامع الكلم واختصر لي الكلام اختصاراً». على أن بقية الألسن لم تخل بالكلية من هذه الخاصة الأولى للسان مضر وحركات الإعراب موجود منها في اللسان العثماني. تقول «زيد كلدي» بسكون آخر زيد ومعناه جاء زيد. و«زيدي جلب ايتدم» بكسر آخر زيد ومعناه جلبت زيداً. وإن لم يكسر آخر زيد لا يستقيم المعنى. وأما في لغات أوروبا فالإعراب من خصائص اللغتين اليونانية واللاتينية واللغة الألمانية. غير أن الخاصة ربما كانت في لسان مضر أكثر وأعرف وأثبت. وإذا لم يراع الإنسان هذه الخاصية في اللسان الذي يتكلمه وقع لها ما وقع للوليد من الأعرابي. وذلك أن الوليد بن عبد الملك بن مروان كان لحّاناً. وكان أبوه عبد الملك فصيحاً فعرف بلحن ابنه وقال له إنك يا بني لا تصلح للولاية على العرب وأنت تلحن. وجعله في بيت وجعل معه من يعلمه الإعراب، فمكث كذلك مدة، ثم خرج وهو أجهل مما دخل. فلما بويع الوليد وجلس على كرسي الخلافة دخل عليه أعرابي يشكو صهراً له. فقال الوليد: ما شأنَك؟ (بفتح النون).

فقال الأعرابي: أعوذ بالله من الشَّين.

فقال له: سليمان بن عبد الملك: ـ أمير المؤمنين يقول لك: ما شأنُك؟ (بضم النون).

فقال الأعرابي: ختني ظلمني.

فقال الوليد: من ختنَك؟ (بفتح النون).

فقال الأعرابي: ـ إنما ختنني الحجام. ولست أريد هذا.

فقال سليمان بن عبد الملك: أمير المؤمنين يقول: من ختنُك؟ (بالضم).

فقال الأعرابي: هذا. وأشار إلى خصمه.

والخاصة الثانية هي ما في لسان مضر من الاستعارات والتشبيهات والمجازات وأنواع البديع من الكلام، وورد أحسنه في القرآن الكريم مثل «اشتعل الرأس شيباً»، ومنه في الشعر كقول ابن المعتز «والشمس كالمرآة في كف الأشل» فجمع ذلك أتم وأكمل في لسان العرب. ويعدون من الكلام البديع لفكتور هوكو تشبيهه موج البحر بقطيع الغنم وقوله غنم البحر. وقول كمال بك إمام الأدب في اللسان العثماني «برق الحقيقة يلمع من تصادم الأفكار». فهذه البلاغة والبيان ديدن العرب. وفي كلامهم كثير من البديع أتوا به بغير تكلّف ولا تعمّل. وبعضهم تصنّع له وتكلّف ظنّاً بأنه أساس البلاغة والمقصود منها بالذات، فملأوا بالبديع والاستعارات النظم والنثر، وصرفوا الذهن، وأجهدوا العقل حتى قالوا:

موَّدته تدوم لكـــــل هـــــول وهـــــل كـل مودّتـه تدوم

وتغافلوا عن إيضاح معنى المودة وهو من المعاني الكلية الجليلة التي أوضحها أدباء اليونان والرومان والإفرنج فيما ألّفوه من الروايات المضحكة أو الفاجعة، وعرضوه في المراسح على أنظار الجمهور فقدّره الخواص حق قدره واستفاد منه العوام.

على أن تلك الحسنات البديعة والخصائص اللسانية، وإن كان لها تأثير عظيم على النفس، فهي لم تزل في نظر العقلاء كالحلي والمصوغ للعروس. فالعقل يجتهد بأن تكون عروسه من ربات الجمال والدلال والأدب والكمال، فإن وجد معها شيء من الحلي فنعم. وإلا فالمقصود منها هو نفسها وذاتها. فهي الضالة التي ننشدها ونأتي بها ولو من جبال القوقاس فنعلمها لساننا، ونلبسها ما عندنا من اللباس، ونتمتع بها. فهذا أولى من إلباس الجارية السوداء الحلي والحلل وصرف النقد والوقت في تزيينها. وللناس فيما يعشقون مذاهب.

فالتكلّف في زماننا لتقليد الإنشاء العالي ونظم قصيدة ثامنة للمعلّقات السبع أو سجع مقامات ثالثة لمقامات الحريري والهمذاني ليس فيه كبير فائدة ما دام الأصل في الكلام للمعاني والمقصود من المعاني إظهار أسرار هذا الكون الذي نصبح فيه ونمسي ونحن غافلون عن كثير من حقائقه. ولا ندري بأي عبارة نترجم عنها، ولا كيف نوضح

شعورنا وإحساسنا بهذا الوسط الذي نحياه وهو سجن لنا. والدنيا سجن المؤمن. فهذه المعاني البليغة العالية ينبغي لأدباء العصر سبكها في السهل الممتنع عن الكلام الفصيح بغير تهافت منهم على الكلمات اللغوية والمحسّنات اللفظية من جناس وطباق وقراءة الكلام طرداً وعكساً. وأمثال ذلك مما يعدّه العقلاء من الملاعب البيانية إذ ليس هذا غاية الأدب والغرض منه. وخير اللفظ ما جاء بالطبع والبداهة بلا تكلّف ولا تحرّ في القواميس والمنشئات. فخطبة ناظر المعارف الفرنساوية التي تلاها بمناسبة يوبيل الكيماوي برتلو هي نموذج من بلاغة المعاني لمطابقتها لمقتضى الحال وإيجاب المصلحة. وهي من أحسن ما يقال في مثل تلك الجلسة وفي مناسبة ذلك الاجتماع. غير أن ذوقنا ربما يمجّها لركاكة الترجمة. فإن الألفاظ وإن كانت عربية، فتركيب هذه الألفاظ بعضها مع بعض لم يجر على أسلوب قسّ بن ساعدة أو سحبان وائل، ولا على طريقة الجاحظ إمام الأدب، ولا يشبه رسائل عبد الحميد أو ابن العميد اللذين قال فيهما الثعالبي: «فتحت الرسائل بعبد الحميد وختمت بابن العميد»، بل جرى تركيب ألفاظ تلك الخطبة على الأسلوب الفرنساوي المترجمة عنه. فأكثر الألفاظ في موضوعاتها التي وضعها فيه العرب الأولون. والركاكة بالنظر إلى التراكيب. وربما كانت بالنظر إلى بعض المفردات أيضاً لأن مفردات ألفاظها لم تنتخب من القاموس المحيط ببلاغة اللسان كالذي ألّفه الزمخشري وسمّاه «أساس البلاغة» وطبع بمصر.

ثم هناك أسباب أخرى أيضاً تحول بيننا وبين إدراك بلاغة تلك الخطبة وهي عدم وقوفنا على دقائق تاريخ القوم ومزايا لغتهم وتعبيراتهم وفقداننا الملكة في هذا الأسلوب من الخطابة. ولذا ينبو سمعنا عما لم يأت على أساليب بلغاء العرب وعما لم يحرر على وفق مذهبهم في فنون الأدب. حيث لكل قوم منهج معروف ومسلك مألوف، بل كل إمام في الأدب من أي أمة كان يذهب فيه مذهباً جديداً ويستخلص لنفسه طريقة مخصوصة يخالف فيها طرق المتقدمين ومذاهبهم. ولذا فأهل الذوق في الكلام إذا عرض عليهم شيء منه قالوا هو على طريقة فلان وأسلوب فلان، وهو من إنشاء فلان دون فلان كما لو عرضت خمر من خمور بوردو على أهل الذوق المشهورين باسم «ديكوستاتور» لقبض الواحد منهم بكفه على الزجاجة حتى إذا سخنت بحرارة اليد وفاح منها الشذا المعروف عندهم باسم (بوكه) هزَّها ونظر فيها فإذا الخمر في الزجاجة ياقوتة سيالة، ثم جرع منها جرعة ذاقها بطرف لسانه وقال لك: هي من كرم «شاتولافيت» أو «شاتولاتور» أو «شاتومارغو». وفي هذه الثلاثة

انحصرت الطبقة العليا من طبقات الخمر المعصور بأرض «ميدوق»، واتفق أهل الذوق والطب على أنها من أطيب البقاع وأبركها لإنبات هذا الشراب الذي فيه منافع للناس وإثمه أكبر من نفعه. لأنه من جهة ترياق نافع، ومن جهة أخرى سمّ ضار.

2

والشعر كالنثر لا يختص بلسان العرب فقط بل يوجد في كل لسان من ألسن الأمم المتمدنة والهمجية، فإن لأهالي إفريقيا أشعاراً يمدحون بها على آلات طربهم، ويرقصون على أنغامها. وكان في الأمم السالفة شعراء مجيدون مثل فياسه صاحب ديوان ماهابهاراته، ومثل فالميكي صاحب ديوان رامایاته، وهما من شعراء الهند وكهنتها نظما الديوانين المذكورين باللسان السانسكريتي قبل الميلاد بقرون كثيرة، وترجمها العلماء في زماننا إلى أكثر اللغات الأورودبية فوجدوا أشعارهما حماسية دينية. وفي الديوان الأول نحو مئتي ألف بيت أو قطعة. وهما عند الهنود بمثابة ما عند اليونان من الإلياذة والأوديسة نظم هوميروس الشاعر الشهير. ولعل البستاني يتحفنا بنشر ما جناه من أدبه[1] فإن هوميروس شيخ الشعراء بأجمعهم. ومثل شعراء الروم الذين كانوا في القسطنطينية وما حولها من أرض الروم قبل أن يفتحها الفاتح. وشعراء الرومان اللاتينيين، وشعراء الفرس وإمامهم الحسن بن إسحاق الفردوسي ناظم الشهنامة في القرن الرابع للهجرة. وهو عند العجم كهوميروس عند اليونان وفرجيل عند الرومان ودانتي عند الطليان وميلتون عند الإنجليز. وتشتمل الشهنامة على تاريخ أكاسرة الفرس وأخبارهم، وقد طبعت مراراً في الفارسية، وترجمت للإنجليزية

1- إن الإلياذة نظم سليمان أفندي البستاني صدرت مطبوعة في مطبعة الهلال سنة 1904.

والفرنساوية. وترجمها نثراً للعربية الفتح بن علي البنداري الأصبهاني، وقدمها لخزانة أحد الملوك الأيوبية.

ذكر الجاحظ في كتاب «البيان والتبيين» «أن الفارسي سئل فقيل له: ما البلاغة؟ فقال: معرفة الوصل من الفصل [1] وسئل اليوناني عنها فقال: تصحيح الأقسام واختيار الكلام وسئل الرومي عنها فقال: حسن الاقتضاب عند البداهة والغزارة يوم الإطالة. وسئل الهندي عنها فقال: وضوح الدلالة وانتهاز الفرصة وحسن الإشارة، وقال مرة: التماس حسن الموقع والمعرفة بساحات القول.».

وفي الأمم الأوروبية والأميركية اليوم شعراء أعلى طبقة وأبلغ كلاماً ممن تقدّمهم من شعراء الأمم السالفة. وموازين الشعر في جميع اللغات على نسبة واحدة في إعداد المتحرّكات والسواكن. والشعر الفرنساوي تبنى أعاريضه على عدد الهجاء فالبحر الإسكندري (الكساندرين) على اثني عشر هجاء في الأصل. والروي أي القافية ـ وهو الحرف الأخير من كل بيت ـ موجود في لسان العرب وفي ألسن غيرهم. ولكن الفرنساويين قبل اختلاطهم بعرب الأندلس لم يكن لأشعارهم روي ولا قوافٍ فأخذوا عن جيرانهم الأندلسيين علم القوافي كما سيجيء تفصيله. فقبل الشروع في بيان الطريقة التي سلكها فيكتور هوكو في علم الأدب وشرح أساليبه في النظم والنثر وفي تصوير القصص والروايات نذكر شيئاً من أخبار العرب ليتبيّن لنا التأثير الذي أثَّره أدبهم على أشعار الإفرنج وقوافيهم بوجه العموم وعلى فيكتور هوكو بوجه الخصوص. لأن هذا الشاعر الحكيم نفح بنفحة من النفس الأندلسي، واغتذى بلبان من ارتضع قديماً ثدي الأدب العربي. وبيان ذلك أن مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو دخلت في حوزة الإسلام حينما قطع أهله جبال البيرينه، وأغاروا على مملكة أكيتانيا وليون وفتحوا ما في شمالها من المدن مثل ماقون وديجون. ثم دخلت بيزانسون في طاعة شارلكان صاحب الوقائع الشهيرة مع فرانسوا الأول ملك الفرنساويين ومع تعاهده وحاميه السلطان سليمان القانوني، وذلك في القرن السادس عشر للميلاد. فنقل الإمبراطور شارلكان عائلات كثيرة من الإسبان، وأنزلهم بيزانسون فاستمروا زمناً طويلاً وامتزجوا بأهلها. ولم يزل لأهل بيزانسون شبه بالإسبان في ملامح الوجوه وفي اللهجة وفي كثير من الكلمات والتعبيرات مع أن مدينتهم لا تبعد عن باريس أكثر

1- الوصل عطف بعض الجمل على بعض والفصل تركه.

من أربعمئة كيلومتر. وقد أشار فيكتور هوكو إلى ذلك في القصيدة الأولى من ديوان «أوراق الخريف»، ووصف بيزانسون بالمدينة القديمة الإسبانية فذهبت مثلاً. وصار الكتّاب لا يفترون عن وصفها بهذا الوصف. وعلاقة الإسبان بالعرب وباللسان العربي معلومة لا تحتاج إلى إيضاح.

3

أما العرب فلو نظرنا إلى تاريخ أدبهم لوجدنا في مقدمته أشعار الحماسة، كما نجد ذلك عند بقية الأمم كالفرنساويين مثلاً، فإن النظم في لسان أدبهم دُوّن قبل النثر. لأن النظم يحصل التأنق في تأليفه والعناية في جمعه فيضم أطراف الكلام وحواشيه ويكون في بادئ الأمر أبلغ مما عاصره من النثر فيحفظ في الصدور ويتداول على الألسنة. ثم تزيد العناية به فيُدَوَّن بالنقش أو الكتابة وُيعلّق على الجدران. وهذا معنى قولهم النظم في تاريخ الأدب سابق للنثر. وإلاّ فأول ما يبدأ من الكلام بالنثر لقرب تناوله وسهولة استعماله. ذكر الباقلاني في إعجاز القرآن المطبوع في مصر أن العرب بدأوا بالنثر وتوصلوا منه إلى الشعر وكان عثورهم عليه في الأصل بالاتفاق غير مقصود إليه. فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الأسماع تألفه والنفوس تقبله تتبعوه وتعلموا وتكلفوا له. فنبغ فيهم الشعراء وأقبل الناس رجالاً ونساء على حفظ أشعارهم ورواية أخبارهم والتفاخر بإنشاد القصائد الكثيرة في المواضيع المختلفة والاستشهاد بكل بيت من أبياتها عند الحاجة. فجعلوا الشعر من بين الكلام ديوان علومهم وأخبارهم وحكمهم وشاهد صوابهم وخطئهم، وأنزلوا الشاعر البليغ منزلة الإمام العالم الذي يُهتدى بنبراس قريحته، ويُفزَع لرأيه في مشاكل الأقضية ومعضلات الأمور. فكانت كلمة الشاعر هي الكلمة العليا وقوله أمضى من السيف وأحدُّ من

السنان، وحكمه نافذ كحكم الشرع في القضاء. وربما رفع الشاعر بالبيت الواحد عزّ القبيلة أو هدمه. كما وقع لشاعر قبيلة أنف الناقة بعد أن كان اسمها مجلبة للعار بين القبائل. وكان السجع من الكلام يجري على ألسنة الكهان والحكماء والعرّافين وأهل الزجر[1] والفال وأنواع الحكم والطب مثل شق، وسطيح، وحنظلة بن صفوان كاهن حمير، وخالد بن سنان العبسي الذي قالت ابنته حينما سمعت قراءة «قل هو الله أحد»: كان أبي يقرأ مثل هذا. وأمية بن أبي الصلت الثقفي وكان افتتاح كلامه «باسمك اللهم»، وقس بن ساعدة، ورباح بن عجلة عرّاف اليمامة، والأبلق الأسدي عرّاف نجد وغيرهم.

غير أن تاريخ أدب العرب قبل الإسلام لم يزل في حيّز الخفاء لعدم تمكّن العلماء من درس اللغات أو اللهجات العربية السابقة على لغة مضر كلغة حمير مثلاً، فإنه لم يشتهر عندنا من قواعدها أكثر من حديث «أمن أمبر أمصيام في امسفر» حيث استعمل فيه (أم) عوضاً عن (ال) التعريف. ولا يكشف الغطاء عن هذا القسم من تاريخ الأدب إلا بعد استخراج ما في أرض اليمن من الألواح التي تدعى بالمسند الحميري وما في خرائب مدائن صالح وأرض الحيرة وسائر جزيرة العرب من الآثار القديمة العادية التي كان لأصحابها نصيب من الحضارة، وكان لأدبهم تأثير على أدب مضر. وقد تفرّغ نخبة من مستشرقي الإفرنج للبحث عن تلك المستندات والآثار القديمة العربية. ولعل التشبّث بإتمام السكة الحديدية الحجازية يسهِّل لهم هذا البحث. فمن عرفت من أولئك المستشرقين إدوارد غلازر من الألمانيين. وكان أطلعني، ونحن في الأستانة على ما اكتشفه من المسند الحميري وجاء من أرض اليمن. والمسند لوح من الحجر عليه كتابة بأحرف مقطّعة قائمة الزوايا، وبعضها مدوّر كالدائرة. وحدّثني هذا المستشرق الفاضل عن رحلته في جزيرة العرب وهو يتكلّم العربية بلهجة يمانية بدوية. وفي سنة 1895 نشر في مونيخ كتاباً بالألمانية عن مأرب وحمير والحبشة، ثم نشر كتاباً آخر في برلين وقدّمه لمؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة 1897. ولما أتيت هذه المدينة حضرت الأستاذ هارتويغ ديرنبورغ في الصوربون وهو يلقي دروسه في اللغة الحميرية، ويفسّر المسندات ويترجمها للفرنساوية، وله رسالة ترجم فيها ما في متحف اللوفر من آثار حمير وسبأ. ومن

1 - وهم صنف من المتكلّمين بالغيب يزجرون أنفسهم في مسموع أو مرئي كسنوح طائر أو حيوان ويفكرون فيه بعد مغيبه.

المشتغلين باللسان الحميري هالبفي الفرنساوي مدرّس اللغة الحبشية في الصوربون. وله مقالات في المجلة السامية بحث فيها عن اتفاق الحبشة مع أهل سبأ على أهل حمير النازلين في شرقي حضرموت.

وللعلماء اشتغال بهذه اللغة في إنجلترا وإيطاليا أيضاً لاهتمام الأولى بجمع ما يتعلق بالعالم الإسلامي والعربي ولمناسبة بين الثانية وبين الحبشة واختلاط تاريخ الحبشة بتاريخ حمير. إلا أن هذا العلم لم يزل في النشأة الأولى محتاجاً للتدقيق والتمحيص حتى يتيسّر للعلماء أن يوضحوا لنا كيف كان اللسان الحميري مع اللسان المضري. فإن ابن خلدون يقول في مقدمته «ولقد كان اللسان المضري مع اللسان الحميري بمثابة ما هو اليوم اللسان المضري مع لغة العرب لهذا العهد ـ وهي التي بدون إعراب فُقد منها دلالة الحركات على تعيين الفاعل من المفعول، وعوّض عنها بالتقديم والتأخير وبقرائن تدل على خصوصيات المقاصد ـ وتغيّرت عند مضر كثير من موضوعات اللسان الحميري وتصاريف كلماته. تشهد بذلك الأنقال الموجودة لدينا خلافاً لمن يحمله القصور على أنها لغة واحدة، ويلتمس إجراء اللغة الحميرية على مقاييس اللغة المضرية وقوانينها كما يزعم بعضهم في اشتقاق القليل في اللسان الحميري أنه من القول وكثير من أشباه هذا. وليس ذلك بصحيح. ولغة حمير لغة أخرى مغايرة للغة مضر في الكثير من أوضاعها وتصاريفها وحركات إعرابها كما هي لغة العرب لعهدنا مع لغة مضر. إلا أن العناية بلسان مضر من أجل الشريعة أي القرآن والسنة حمل ذلك على الاستنباط والاستقراء. ولعلنا لو اعتنينا بهذا اللسان العربي لهذا العهد واستقرينا أحكامه نعتاض عن الحركات الإعرابية في دلالتها بأمور أخرى موجودة فيه، فتكون لها قوانين تخصها، ولعلها تكون في أواخره على غير المنهاج الأول في لغة مضر».

فأخذ ذلك المستشرقون من الإفرنج، واعتنى بعضهم بتدوين اللسان العامي واستقراء أحكامه كما فعل موسيو هوداس الفرنساوي في لغة الجزائر العربية، ونشر فيها كتاباً، ولم يزل يدرسها في مدرسة الألسن الشرقية في باريس كما تُدرَّس أيضاً في مدرسة المستعمرات وفي المدارس العسكرية بباريس وغيرها. ولهم في ذلك مآرب سياسية لا نخوض فيها. إلا أن تدوين اللغات العامة ـ بالنظر إلى انتشار العلم وتوسع الحضارة ـ له محاذير كثيرة وموجب للتفرقة ونصب الحواجز بين أمم هذا العالم العظيم الممتد من المحيط الغربي إلى بلاد العجم والهند. والعلماء في عصرنا

يجتهدون في إزالة الموانع التي استلزمها تباين اللغات بين الأمم، ويسعون في إيجاد لغة عامة لعموم بني البشر وفي جميع أفراد الإنسان على لسان واحد. فكيف يجوز حينئذٍ تفريق لسان أمة كبيرة على ألسنة همجية عامية ووضع لسان مخصوص لكل من الجزائر وتونس ومصر وسوريا وبغداد والموصل والزنجبار والهنزوان ثم لمراكش وغيرها من المتكلّمين بلسان جزيرة العرب وتدوين كل واحد من هذه الألسن التي يراد وضعها كما تدون الألسن الجديدة الهمجية مثل لسان حوصه وغيره من لغات إفريقية؟.

وإنا نجد اللغة الفرنساوية على ما فيها من التباين بين ما يتكلّمه سكان المدن وما يتكلّمه أهل القرى وعدم فهم الباريزي ألسن الباتوا التي يتكلمها القاطنون في جبال البرينه وأفيرنيه وفي الإيالات الغربية والجنوبية من أراضي فرنسا لم يجيزوا فيها تدوين لغة الإيالة بروفانس أو بريطانيا مثلاً، ولا سمحوا بإنشاء جريدة فيها.

وانتهى بهم التعصّب إلى محو كتب بلسان الباسك وهم سكان جبال البيرينه من جهة المحيط، مع أن المتكلّمين بها يفتخرون بقدمهم على سائر الأمم الأوروبية. فكيف يصوغ إذاً تدوين لغة الجزائر؟ وأهلها لا يتعذّر عليهم فهم (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل) لاستعمالهم مواد هذه الكلمات الأصلية من وقوف وبكاء وذكر وحب ونزول، وإذا لم يفهموا ما بعد ذلك فالقصور ناشئ من الجهل بالجغرافية لا بأصل اللغة التي لم يزل لهم بأصولها وموادها ملكة راسخة. فإن سقط اللوى، والدخول، وحومل، وتوضح، والمقراة المذكورة في قول امرئ القيس:

قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
فتوضح فالمقراة لم يعفُ رسمها لما نسجتها من جنوب وشمأل

هي أماكن معروفة عن أهل الحجاز، كما أن مقرة ومقطع الحديد من الأماكن المعروفة عند أهل الجزائر لشهرتها باستخراج معدن الحديد. فبدلاً من تدوين لغة الجزائر العامية كما دوّنت لغة حوصه ومن نشر المؤلفات والمطبوعات فيها والإجبار على تعليمها في المدارس للأطفال ـ لو سعى أهل العلم وأرباب القلم في التقرّب من لغة مضر المدونة وأزالوا منها (العامية) كما أزيلت (الباتوا) من اللغة الفرنسية وهذّبوها من الجناسات والتشابيه الغامضة واختاروا فيها السهل من الألفاظ والتراكيب وأصلحوا إملاءها وكتابة أسماء الأعلام فيها لكان فعلهم على ما نظن أسهل

وأنجح من تدوين لسان عامي بل ألسن همجية وإقامة الحواجز بين المتكلّمين بها. مع أن ازدياد وسائط النقل والمخابرة يستدعي كثرة اختلاطهم بعضهم ببعض. وعمّا قريب سيتم مد الخطوط الحديدية، ويصبح السفر من مراكش إلى بغداد والهند أو إلى الحجاز أسهل مما كان قديماً بين مصر القاهرة والإسكندرية. فلا يحتاج المسافر إلى استصحاب كتاب «جامع اللغات» ليعلم منه ألسن الجزائر وتونس وطرابلس ومصر وفلسطين وسوريا وبغداد والحجاز. أما انتشار المطبوعات العربية فهو آخذ بالترقي، ونجد لمطبوعات مصر رواجاً في تونس والجزائر ولا بد أن تمتد يوماً على عموم سكان القارة الإفريقية.

أما لغة مضر فبدون أن نقف على حقيقة الأدوار التي دارت عليها ولا على الأطوار التي تقلبت فيها نجدها في العصر السابق للإسلام على جانب من الفصاحة والبلاغة مشتملة على أنواع التشبيه والاستعارة والبديع وأكثر حماسة، وفيها من التصورات البديعة والتخيلات الشعرية واللطف والرقة والأدب ما يدلنا على أن اللغة لم تكن إذ ذاك في عهد الطفولة فإن الفرق بين أشعار المعلقات وبين أشعار «التروبادور» الفرنساوية عظيم. لما في الأخيرة من الخشونة وعدم الرقة. وإذا غازل شاعر الجاهلية فتاة الحي حسبته أديباً من أدباء باريس...

ونجد للعرب قبل الإسلام أنواعاً كثيرة من فنون الأدب والشعر منها القصيد، والرجز، والأغاني ومنها ما ينشد في الحرب على الدفوف. ومنها ما يحدى به للعيس، أو يغنى به للرقص وتسكيت الأطفال. ومنها السجع والترسّل والخطب، والرسائل، وضروب الأمثال، والحكم. والحاصل كانت فنون أدبهم أتقن من معيشتهم البدوية. وكان لهم مؤتمر وأكاديمية للتفاخر باللسن والفصاحة. وكانوا يقيمون لذلك المواسم والأعياد فيجتمعون أولاً في سوق عكاظ. وهو واد بين مكة والطائف فيه ماء وظل وخضرة، فيقيمون فيه شهراً ويذهبون منه إلى سوق مجنة ثم إلى سوق ذي المجاز وهما بناحية مكة. ثم يذهبون في ذي الحجة إلى البيت الحرام، موضع حجّهم. فكان أدباؤهم وهم ذوو الرئاسة والمكانة فيهم يتنافسون بالآداب والحكم، ويقفون بهذه الأسواق لإنشاد الشعر وإلقاء الخطب. فإذا اجتمعوا بسوق عكاظ ضربت قبة لأكبر الشعراء في عصره كالنابغة الذبياني الذي سُمِّي أشعر العرب، فجلس في القبة وجاءته الشعراء كما جاءه حسّان مثلاً وعرضوا عليه أنفس أشعارهم. وقام الحارث بن حلّزة يتبختر بين الجموع الجاهلية ويقول:

آذَنْتَنا بِبَيْنِها أسْماءُ رُبَّ ثاوٍ يُمَلُّ مِنْهُ الثَّواءُ
بَعْدَ عَهْدٍ لَنَا بِبُرْقَةِ شَمَّا ءَ فَأَدْنَى دِيارِها الخَلْصاءُ

حتى يأتي على آخر مرثيته، فيحكم في مقاله أولو الذوق الصحيح والطبع السليم، ويميزون فيه بين الغث والسمين، ويقابلونه بغيره من كلام المعلقات. ثم وقف قس بن ساعدة على بعير له أحمر وقال «أيها الناس اجتمعوا، وقد اجتمعتم فاسمعوا، وإذا سمعتم فعوا، وإذا وعيتم فقولوا، وإذا قلتم فاصدقوا. ممن عاش مات ومن مات فات وكل ما هو آت آت. فإذا الناس قد اجتمعوا حوله فيبدأ لهم في الخطبة بقوله «أما بعد... إلخ» كأنه خطيب فرنساوي بل إنجليزي يخطب في هايدبارك.

وكان لكل شاعر مبلغ يبلغ عنه الجمهور وراوية يروي له الأشعار. فكانت الرواة في أيامهم كالجرائد في يومنا، ولذا كانت الأشعار تنتشر وتشتهر في مدة قليلة بين جميع القبائل في جزيرة العرب. وانتهوا في العصر السابق للهجرة إلى المناغاة في كتابة قصائدهم بالذهب وتعليقها بأركان الكعبة كما فعل أصحاب المعلقات السبع وهم:

امرؤ القيس. واسمه جندح بن حجر الكندي وكان أبوه يملك في جهة الحيرة على بني أسد، ويضرب المثل في شهرة معلقته فيقال «أشهر من قفا نبك». وله غيرها ديوان مشروح ومطبوع ومترجم إلى اللغات الأوروبية. ويقال إن أحسن ما في شعره وصفه الفرس[1] ولذا ضُرِب المثل بامرئ القيس إذا ركب. والنابغة إذا رهب. وزهير إذا رغب. وقيل إن امرأ القيس توفّي سنة 540م. وكان مغرماً باللهو والزهو والخمر والنساء وكلامه في المعلقة منادمة ومداعبة. ومدح في شعره تَغْلِب على بكر.

2. طرفة بن العبد. وديوانه ترجم للفرنساوية في الصوربون، وطبعه الموسيو سيلغصون (Seligsohn) . ومعلقته تبحث في النساء والخمر واللهو وطيب العيش.

3. عمرو بن كلثوم.

4. الحارث بن حلّزة اليشكري. من قبيلة بكر بن وائل وله ديوان وفي معلقته الهمزية وفي معلقة عمرو المذكور خبر حرب البسوس التي وقعت بين بكر وتغلب.

1- بقوله:
وقد أغتدي والطير في وكناتها بمنجرد قيد الأوابد هيكل
مكر مفر مقبل مدبر معاً كجلمود صخر حطه السيل من عل
له أيطلا ظبي وساقا نعامة وارخاء سرحان وتقريب تتفل

5. زهير بن أبي سلمى.

6. عنترة بن شداد. وفي معلقتيهما ذكر حرب داحس التي وقعت بين عبس وذبيان. وقصة عنترة الشهيرة المطبوعة في بيروت ومصر ترجمها سابقاً للألمانية المستشرق النمساوي همر (Hammer) صاحب تاريخ الدولة العثمانية وتاريخ الأدب العثماني وتاريخ الأدب العربي. ترجم شيئاً من قصة عنتر للفرنساوية مارسيل ديفيك (Devic) معلم العربية في كلية مون بيليه وهي من أقدم مدارس الإفرنج. وكان أطباء العرب واليهود المستعربون يدرسون فيها الطب.

7. لبيد بن ربيعة العامري القائل «ألا كل شيء ما خلا الله باطل» وفي كلامه كثير من الحكم ووصف في أشعاره أخلاق عرب البادية وأطوارهم وعاداتهم. وله غير المعلقة ديوان أشعار طُبِع منه الجزء الأول في فينا عاصمة النمسا الشيخ يوسف ضياء الدين باشا الخالدي المقدسي سنة 1880، وجعل له مقدمة وشرحاً.

وظهر من فطاحل الشعراء غيرِ من ذُكِر النابغة الذبياني. وطبع ديوانه الأستاذ هارتويغ دير بنورغ (H. Derenbourg) سنة 1869 وفَسَّره وحشاه. ومنهم حاتم طي الشهير بالسخاء وقد جمع أشعاره غضبان أفندي وطبعها في لوندره، وسماها «ديوان حاتم طي». ومنهم دريد بن الصمة، والشنفرى الأزدي، والأعشى الأكبر، وتأبط شراً، وكثير غيرهم.

يحكى عن حماد الرواية أنه أنشد بحضرة الوليد من كلام الجاهلية مئة قصيدة لكل قافية من قوافي الحروف العربية لا تنقص القصيدة عن عشرين بيتاً. وفيها ما يربو على المئة بيت. فمهما بالغ الحاكي لا تنكر كثرة ما قرض من الشعر على عهد الجاهلية. ولهم غير الشعر والرجز خطب ورسائل وكثير من ضروب الأمثال التي نقلت عنهم ودونت في المجاميع.

وسُمِّي كلام هذه الطبقة من الأدباء «كلام الجاهلية» لجهلهم بما جاء في الإسلام وإلا فهم أئمة في الأدب يقتدى بهم. ولذا اتخذ من جاء بعدهم كلامهم منوالاً نسجوا عليه مثله وقالباً فرغوا فيه شبهه من الألفاظ والتراكيب. ولم يزل الأدباء على ذلك إلى يومنا هذا كما فعل أصحاب «عكاظ الأدب» المطبوع في الأستانة عقب الحرب اليونانية الأخيرة. وإذا تأملنا كلام الجاهلية نجدهم وصفوا الطبيعة أحسن وصف وصوروها أكمل تصوير بالنسبة لحالتهم البدوية ولصحاريهم الرملية، فميزوا بين أنواع الرمل وسمّوا كل نوع باسم مخصوص منه (الخفف) وهو الرمل المنفرج،

و(العقنقل) الرمل المعقد الداخل بعضه في بعض، و(البطن) من الأرض و(المجتث) من الأرض كل ذلك من أشكال الأرض المختلفة كما قال امرؤ القيس في معلقته:

خَرَجْتُ بِهَا تَمْشِي تَجُرُّ وَرَاءَنَا عَلَى أَثَرَيْنَا ذَيْلَ مِرْطٍ مُرَحَّلِ
فَلَمَّا أَجَزْنَا سَاحَةَ الحَيِّ وانْتَحَى بِنَا بَطْنُ خَبْتٍ ذِي حِقَافٍ عَقَنْقَلِ

والمرط نوع من أثوابهم يقال إنه يشبه الترجيل حسب (مردة) ذاك الزمان. وقد وصفوا في هذا النمط جميع ما شاهدوه في الطبيعة، ونطقوا بما شعروا به في قلوبهم، ووجدوا في أنفسهم من التأثر الحسي. وإن ذكروا بعيراً أو فرساً لم يتركوا شكلاً إلا شرحوه شرحاً مفصلاً. فحيث كانت الفصاحة هي الاقتدار على الإبانة عن المعاني الكامنة في النفوس التي كانت غاية الأديب منهم إثبات اقتداره على إيراد صور مختلفة للشيء الواحد وإظهار تعمقه في معرفة اللغة وحسن تصرفه في استعمال الكلمات المترادفة المتقاربة. وكان لهم نظر جيد في العوالم والكائنات كقول قسّ في بعض الروايات: «ليل داج، وسماء ذات أبراج، ونجوم تزهر، وبحار تزخر، وجبال مرساة، وأرض مدحاة، وأنهار مجراة.. إلخ» ولهم أساليب بديعة في ذكر البرق والسحاب والمطر وسائر التغيرات الجوية وكذا في ذكر الرسوم والطلل والمنازل والروض والأشجار ومنابت العشب إلى غير ذلك مما هو مذكور في كتبهم ومعروف.

ولغزارتهم وتمكنهم من اللغة لم يكونوا يتصنعون لتأليف المحاسن البديعة في الكلام إنما كانت نوابغ الكلم تتفق لهم اتفاقاً، وتطَّرد في كلامهم اطراداً بخلاف من أتى بعدهم فإنهم صنفوا المحاسن البديعة تصنيفاً وتحرروا عليها. ومع ذلك فالبليغ من الكلام لم يصدر من أفواه الجاهلية إلا بعد التروي والتصنيع والتنقيح والتهذيب، وقد تعبوا وكدّوا أنفسهم وجاهدوا خواطرهم. وكان زهير يسمي كبير شعره الحوليات المنقحة.

وقال عدي بن الرقاع:

وقصيدة قد بتّ أجمع بيتها حتى أقوِّم ميلها وسنادها
نظر المنقفِ في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه منآدها

وقال سويد كراع:

أبيت بأبواب القوافي كأنما أصادي بها سرباً من الوحش نُزَّعا

وسموا زهير والحطيئة وأشباههما عبيد الشعر لأنهم نقحوه، ولم يذهبوا فيه مذهب المطبوعين. قال الباقلاني «وكانت العرب تعلّم أولادها قول الشعر بوضع غير معقول يوضع على بعض أوزان الشعر كأنه على وزن (قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل)، ويسمون ذلك الوضع الميتر. واشتقاقه من المتر وهو الجذب أو القطع. يقال مترت الحبل بمعنى قطعته أو جذبته». والفرنساويون يسمون العروض ميتر وميتريك، ويقولون إنه مشتق من معنى القياس باليونانية. وله دروس مخصوصة وأساتذة في الصوربون. وألَّف في العروض العربي المستشرق استانسلاي كوبار معلّم العربية في كلية فرنسا عدة رسائل، واستنبط فيه قواعد جديدة نال عليها الجائزة وثناء العموم. وعبر العرب عن قول الشعر بنظمه بالقرض وعن الشعر بالقريض. ومعنى القرض القطع لأن الشعر مفصل قطعاً قطعاً متساوية في الوزن متَّحدة في الحرف الأخير من كل قطعة. وكانت عنايتهم في الجاهلية مصروفة للكلام على المنظوم من شعر وسجع لأن تأثيره في النفوس أشد لما يحدثه من النغمة التي تطرب لها الأذن وتلهو بها عن تمحيص الحق من الباطل في الكلام. وذلك أن الطرق التي يتقيّد بها الكلام البديع المنظوم أي المسبوك تنقسم إلى أعاريض الشعر على اختلاف أنواعه، ثم إلى أنواع الكلام الموزون غير المقفى، ثم إلى أصناف الكلام المعدّل المُسَجَّع، ثم إلى معدل موزون غير مُسجّع، ثم إلى ما يُرسَل إرسالاً وتُطلب فيه الإصابة والإفادة وإفهام المعاني على وجه بديع وترتيب لطيف. وهذا القسم الأخير شبيه بالكلام الذي لا يتعمَّل ولا يُتَصنَّع له. بخلاف القصيد من الشعر فإنه يلتزم فيه قافية واحدة إلى آخر الكلام، ويشترط أن يكون كل بيت كلاماً وحده مستقلاً عما قبله وما بعده، وإذا أفرد كان تاماً في بابه في مدح أو غزل أو رثاء أو هجاء أو حماسة. والرجز ضرب من الشعر ولو لم يلتزم فيه أن يكون على قافية واحدة. والسجع يلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة، ويذمون كل سجع خرج عن اعتدال الأجزاء. والمقفى قد انتصر له في زماننا عبد الحق حامد بك مستشار السفارة العثمانية في لوندره، وألف فيه رواية «اللسان التركي» على الطرز الجديد. وأما المرسل فهو الذي يرسل فيه الكلام إرسالاً بدون تقييد بقافية أو سجع أو وزن أو شيء ما، بل يطلق إطلاقاً. ويتأتى في هذا القسم من الفصاحة والبلاغة ما لا يتأتى في السجع ولا في الشعر لأن السجع من الكلام يتبع المعنى فيه اللفظ الذي يؤدي السجع أو القافية. وكذلك الشعر يضيق نطاق الكلام ويمنع القول من انتهائه ويصده عن تصرفه على قواعده. ومن يلتزم في كلامه السجع أو الوزن أو القافية فهو

يلفق بهما ما ينقصه من تطبيق الكلام على المقصود ومقتضى الحال، ويجبره بذلك القدر من التزيين بالإسجاع ورن الصوت بالوزن والنغمة كما يزينه ببقية الصنائع البديعة، ويغفل عما سوى ذلك من بلاغة المعاني. فلما سلك الشعراء في الجاهلية على حفظ الألفاظ وتصنيعها دون ضبط المعاني وترتيبها عرض بهم القرآن الكريم فقال {وَالشُّعَرَاء يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ}. {أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ}. {وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ}. قال الباقلاني: «فاخبر أنهم يتبعون القول حيث توجَّهَ بهم، واللفظ كيف أطاعهم، والمعاني كيف تتبع ألفاظهم. وذلك خلاف ما وضع عليه الإبانة عن المقاصد بالخطاب». ولما شرعت دية الجنين جاء بعض العرب إلى النبي عليه السلام وكلموه في هذا الشأن ولفقوا كلامهم بالسجع ليجعلوا فيه قوة الحجة الدامغة والبرهان القاطع فقالوا:

ـ كيف ندِيُّ من لا أكل ولا شرب ولا صاح فاستهل؟ أليس دمه قد بطل؟.

ـ فقال: ـ أسجاعة كسجاعة الجاهلية؟ أسجعاً كسجع الكهان؟

نعم إن الشعر إذا تهذّب ووفي له بجميع الأسباب لم يقارنه من كلام الآدميين كلام، ولم يعارضه من خطابهم خطاب. ولكن قلما يفلح الشاعر المجيد إلا في بعض الأبيات لا سيما في الشعر العربي حيث ضيّق فيه النطاق على الشعراء، وألزموا بإتباع القواعد التي تخطاها شعراء الإفرنج. على أن أكثر فحول الأدب في البلاد المتمدّنة صارفون عنايتهم في يومنا إلى النثر المرسل دون النظم كما فعل فيكتور هوكو في آخر عمره، وكما يفعل اليوم إميل زولا وغيره مثل تولستوي أديب الروس.

4

ثم ظهر الإسلام وجاء القرآن بأفصح لفظ وأبلغ معنى على أسلوب جديد يخالف أساليب العرب في النظم والنثر فلا هو مرسل ولا مسجَّع، بل تفصيل آيات ينتهي إلى مقاطيع يشهد الذوق بانتهاء الكلام عندها. ثم يعاد الكلام في الآية الأخرى من غير التزام حرف يكون سجعاً أو قافية. وسميت آخر الآيات فواصل لأنها ليست إسجاعاً ولا التزم فيها ما يلتزم في السجع ولا هي أيضاً قوافٍ. ووقع اللفظ من القرآن تابعاً للمعنى ولذا فاق كلام الكهان وأهل الرجز والسجع والقصيد وغير ذلك من أنواع بلاغتهم. لأن الواحد منهم إن برع في فن من فنون النظم أو النثر قَصَّر فيما دونه. والقرآن أبدع في جميع ضروب الكلام وطرق الإفادة واشتمل على قصص وأخبار وشرائع وأحكام ووعد ووعيد وترهيب وترغيب وتنزيه وتحميد وحجج على التوحيد وأمثال سائرة ومواعظ زاجرة وأصول إدارية وسياسية وغير ذلك مما لم يُحِط بنصفه بل بربعه أديب من الأدباء ولا شاعر من الشعراء، وناضل عن الحرية، وخفف أذى العبودية، وندّد بالظَلَمة وتوعّدهم بما تقشعر منه جلود الذين يخشون ربهم. فقال في الوعيد: {وَسَيَعْلَمُ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَيَّ مُنقَلَبٍ يَنقَلِبُونَ}، وبَيَّنَ استبداد المستبدين من الملوك والسلاطين وكيفية إيقاعهم التفرقة بين رعاياهم، ثم إيصال الجور والأذى إليهم فرقة بعد أخرى كما كانت سياسة فراعنة مصر ونماردة بابل وقياصرة الرومان والروم وأكاسرة الفرس فقال في تصوير هذا الاستبداد:

{إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ. وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ}. {وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِي فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ}.

قال الباقلاني[1]: «ذكر العلو في الأرض باستضعاف الخلق بذبح الولدان وسبي النساء وإذا تحكم في هذين الأمرين فما ظنك بما دونهما لأن النفوس لا تطمئن على هذا الظلم والقلوب لا تقر على هذا الجور؟ ثم ذكر الفاصلة التي أوغلت في التأكيد وكفّت في التظلّم، وردت آخر الكلام على أوله، وعطفت عجزه على صدره. ثم ذكر وعده تخليصهم وجعلهم مستقلين بأمرهم وارثين لأرضهم». ومما ورد في القرآن الكريم في السياسة والمناسبة الدولية التي كانت بين مملكة فلسطين وعاصمتها إذ ذاك أورشليم وبين مملكة سبأ وعاصمتها مأرب، وما كتب به سليمان بن داود عليهما السلام إلى بلقيس، وما اشتغلت به من التدبير والمشورة واستطلاع عواقب الأمور وإرسال الهدية لفك عراقيل السياسة بالوسائل الديبلوماتية إلى غير ذلك ما نصه: [2]

{قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ}

{اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ}

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ}

{إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ}

{أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}

{قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}

{قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ}

{قَالَتْ إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}

---

1 - إعجاز القرآن.

2 - سورة النمل. والذي قال هو سليمان عليه السلام. وقالت هي بلقيس. وقالوا هم رجال دولتها وأعيان بلادها.

{وَإِنِّي مُرْسِلَةٌ إِلَيْهِم بِهَدِيَّةٍ فَنَاظِرَةٌ بِمَ يَرْجِعُ الْمُرْسَلُونَ}

{فَلَمَّا جَاءَ سُلَيْمَانَ قَالَ أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ}

{ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُمْ بِجُنُودٍ لَّا قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ}ـ إلى آخر القصة ـ وترى فيها مجيء أهل سبأ مسلمين إلى أورشليم والاحتفال باستقبالهم، وإراءتهم عز الملك وارتقاء الصنائع وما أتى به الذي عنده علم من الكتاب عن عرش لملكتهم حتى قيل أهكذا عرشك قالت كأنه هو. واصطناعهم لها صرحاً يذكرنا قصر الزجاج الذي أنشئ في معرض باريس الأخير. {قِيلَ لَهَا ادْخُلِي الصَّرْحَ فَلَمَّا رَأَتْهُ حَسِبَتْهُ لُجَّةً وَكَشَفَتْ عَن سَاقَيْهَا قَالَ إِنَّهُ صَرْحٌ مُّمَرَّدٌ مِّن قَوَارِيرَ ...}[1] قال الباقلاني ـ وهو القاضي أبو محمد بن الطيب الأشعري المعروف بابن الباقلاني، وكان ملك الإسلام في بغداد عضد الدولة من آل بويه أرسله سنة 371 هـ سفيراً إلى قيصر الروم في القسطنطينية وهو قسطنطين التاسع من سلالة مكدونيا وكانت السفارة في جواب رسالة وردت عليه منه ـ قال: «متى تهيأ للآدمي أن يقول في وصف كتاب سليمان عليه السلام بعد ذكر العنوان والتسمية هذه الكلمة الشريفة العالية {أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ}[2]. والخلوص من ذلك إلى ما صارت إليه بلقيس من التدبير واشتغلت به من المشورة ومن تعظيمها أمر المستشار ومن تعظيمهم أمرها وطاعتها بتلك الألفاظ البديعة والكلمات العجيبة البليغة. ثم كلامها بعد ذلك لتعلم تمكن قولها {يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّى تَشْهَدُونِ}[3] وذكر قولهم {قَالُوا نَحْنُ أُولُوا قُوَّةٍ وَأُولُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالْأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ}[4] لا تجد في صفتهم أنفسهم أبدع مما وصفهم به وقوله «الأمر إليك» تعلم براعته بنفسه وعجيب معناه وموضع اتفاقه في هذا الكلام وتمكن الفاصلة وملاءمته لما قبله وذلك قوله {فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ} ثم إلى هذا الاقتصار وإلى البيان مع الإيجاز فإن الكلام قد يفسده الاختصار ويعميه التخفيف منه والإيجاز، وهذا ما يزيده الاختصار بسطاً

1- سورة النمل آية (٤٤)

2- سورة النمل آية (٣١)

3- سورة النمل آية (٣٢)

4- سورة النمل آية (٣٣)

لتمكنه ووقوعه موقعه ويتضمن الإيجاز، منه تصرفاً يتجاوز محله وموضوعه. وكم جئت إلى كلام مبسوط يضيق عن الإفهام، ووقعت على حديث طويل يقصر عما يراد به من التمام ثم لو وقع على الإفهام. فما يجب فيه من شروط الأحكام كله أو بمعاني القصة وما تقتضي من الإعظام.. ثم لو ظفرت بذلك كله رأيته ناقصاً في وجه الحكمة. أو مدخلاً في باب السياسة، أو مصفوفاً في طريق السيادة، أو مشترك العبارات إن كان مستجود المعنى، أو جيد البلاغة مستجلب المعنى، أو مستجلب البلاغة جيد المعنى، أو مستنكر اللفظ وحشي العبارة، أو مستبهم الجانب مستكره الوضع. وأنت لا تجد في جميع ما تلونا عليك إلا ما إذا بسط أفاد، وإذا اختصر كمل في بابه وجاد، وإذا سَرَّح الحكيم في جوانبه طرف خاطره وبعث العليم في أطرافه عيون مباحثه لم يقع إلا على محاسن تتوالى وبدائع تترى. ثم فكر بعد ذلك في آية آية أو كلمة كلمة في قوله {إِنَّ الْمُلُوكَ إِذَا دَخَلُوا قَرْيَةً أَفْسَدُوهَا وَجَعَلُوا أَعِزَّةَ أَهْلِهَا أَذِلَّةً وَكَذَلِكَ يَفْعَلُونَ}[1] هذه الكلمات الثلاث كل واحدة منها كالنجم في علوه ونوره وكالياقوت يتلألأ بين شذوره. ثم تأمل تمكن الفاصلة وهي الكلمة الثالثة وحسن موقعها وعجيب حكمها وبارع معناها. وإن شرحت لك ما في كل آية طال عليك الأمر، ولكن بينت بما فسرت وقررت بما فصلت الوجه الذي سلكت فيه والنحو الذي قصدت والغرض الذي إليه رميت والسمت الذي إليه دعوت. ثم فكر بعد ذلك في شيء أدلك عليه وهو تعادل هذا النظم في الإعجاز في مواقع الآيات القصيرة والطويلة والمتوسطة فأجِّل الرأي في سورة سورة وآية آية وفاصلة فاصلة وتدبّر الخواتم والفواتح والبوادي والمقاطع ومواضع الفصل والوصل ومواضع التنقل والتحوّل، ثم اقضِ ما أنت قاض. وإن طال عليك تأمَّل الجميع فاقتصر على سورة واحدة أو على بعض سور. ما رأيك في قوله {إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلا فِي الأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ}[2] هذه تشتمل على ست كلمات سناؤها وضياؤها على ما ترى. وسلاستها وماؤها على ما تشاهد. ورونقها على ما تعاين. وفصاحتها على ما تعرف. وهي تشتمل على جملة وتفصيل وتفسير ذكر العلو في الأرض... إلخ}.

1- سورة النمل آية (34)

2- سورة القصص آية (4)

ومن ذلك يعلم اقتدار هذا السفير الكبير في «الانتقاد الأدبي»(1) الذي له المقام الأسمى بين علوم الأدب. وللإفرنج فيه عناية زائدة وجرائدهم تنشر فيه المقالات الضافية. ولجريدة الطان محرر ماهر في «الانتقاد الأدبي» وهو «غاستون ديشان» وإذا أمعنا النظر في القرآن الكريم نجده مملوءاً بالمحاسن والبلاغة، ولكننا نتلوه في الغالب تلاوة تعبُّد بدون نظر في حقائق معانيه وتاريخه. وإلا تأمل قوله {لهم ما لنا وعليهم ما علينا} تجد في هاتين الكلمتين من البلاغة والفصاحة ما لم يأت بمثله غابرييل هانوتو على ما هو عليه من الاقتدار في الأدب والعلم والسياسة والحرية الفرنساوية. وما أدراك ما الحرية الفرنساوية؟ هي الحرية التي أنقذت أمماً كثيرة من الظلم والاستبداد. وجلّ ما أتى به في الخطبة التي خطبها أخيراً في الجزائر عن سياسة الاستعمار في أفريقية وعمّا يجب على الدولة المتمدنة في جانب أهاليها المسلمين. «يجب لهم علينا الأمن، يجب لهم علينا العدل، يجب لهم علينا كذلك التساهل» أي بالدين. وقد نشر ملخص هذه الخطبة في جريدة طرابلس الشام. فقابل بين تينك الكلمتين وبين هذه الكلمات الثلاث، وحكِّم ضميرك الحر إن كنت من الأحرار، واحكم بعد ذلك بما شئت. لو قرأنا القرآن وفهمناه كما ينبغي لوجدنا فيه مقاومة شديدة للظلم والاستبداد وميلاً زائداً للعدل والحرية. ولقد رفع الاستبداد بسببه يوماً ولكن الأمم الآسيوية والإفريقية أبت الخروج من تحت نير العبودية. أو كما عبّر أحد الأفاضل بقوله «لما ساد عليهم الجهل ولم يستطيعوا أن يصعدوا إلى القرآن بعقولهم أنزلوه من مكانه الرفيع ووضعوه مع جهلهم في مستو واحد».

1- Critique litteraire

5

وبظهور الإسلام ظهرت طبقة جديدة من الأدباء قيل لهم أهل الطبقة الإسلامية وهم الذين كانوا في صدر الإسلام وأيام الدولة الأموية التي امتدت إلى سنة 132هـ وفي أوائل الدولة العباسية. وسُمِّي المتأخرون منهم شعراء الدولتين الأموية والعباسية. ولخّص حسان بن ثابت شاعر النبي - صلى الله عليه وسلّم - الطريقة المثلى في الشعر بقوله:

وإنما الشعر عقل المرء يعرضه ... على البرية إن كيِّساً وإن حمقا

وإن أحسن بيت أنــت قائلــه ... بيت يقال إذا أنشدتــه صدقـا

وفي مقدمة هذه الطبقة عمر بن أبي ربيعة كبير قريش. وكان له في الشعر مقامات عالية وطبقة مرتفعة وكان كثيراً ما يعرض شعره على ابن عباس فيقف لاستماعه معجباً به. ومنهم الحطيئة العبسي المشهور في الهجاء. وحكم عليه بقطع اللسان في خلافة عمر (رضي الله عنه)، ثم عفا عنه. وكان جرير والفرزدق والأخطل من أعظم شعراء الدولة الأموية وحصل بينهم محاورات ومهاجاة. وكان لكل منهم فرقة من الناس تفضل شعره وتطرب لقوله وتنتصر لرأيه. وكثيراً ما كان يفضي بينهم الجدال على تفضيل الشعر إلى القتال. والمشهور بين الأدباء أن جرير مرجح على

الفرزدق في أكثر أنواع الشعر وعلى الأخطل في جميع أنواعه. وكان الفرزدق والأخطل متفقين على هجاء جرير ومعاداته. واستخرج المستشرق بوشه من مكتبة جامع أيا صوفيا بالأستانة ديوان الفرزدق وطبعه وحشاه وترجمه للفرنساوية، وحرّر شيئاً عن عروة بن الورد أيضاً. وممن عاصر الفرزدق غيلان ذي الرمة الثقفي صاحب مي بنت مقاتل. ومن هذه الطبقة نصيب وبشار المتوفى سنة 167 هـ. وهو القائل «والأذن تعشق قبل العين أحياناً»، وكثير غيرهم. ويجمع كلامهم كتاب الأغاني الذي ألّفه أبو الفرج الأصفهاني المتوفى سنة 356 هـ. وكان من نسل مروان الحمَّار آخر ملوك بني أمية، وكتابه هذا مطبوع في بولاق. ومختصره أي رواياته مطبوع في بيروت. وممن اشتهر بالنثر وكتابة الرسائل عبد الحميد الكاتب. وكان كاتباً لمروان الحمّار فمات منكوباً حينما انقرضت الدولة الأموية. وجمعت رسائله في كتاب.

فأهل هذه الطبقة - وإن نسجوا على منوال شعر الجاهلية - فكلامهم أعلى طبقة في البلاغة وأذواقها من كلام الجاهلية في منظومهم ومنثورهم وخطبهم وترسُّلِهم ومحاوراتهم للملوك. والسبب في ذلك حصول الانقلاب في الأمة وتأسُّس الملك والدولة وتوسع حدود المملكة بالفتوحات واختلاط الأقوام بعضها ببعض، فاتسعت بذلك دائرة العقول، ونهضت طباع أهل الطبقة الإسلامية، وارتقت ملكاتهم في البلاغة على ملكات مَنْ قبلهم. فكان كلامهم في نظمهم ونثرهم أحسن ديباجة وأرصف مبنى وأعدل تثقيفاً بما استفادوه من انفتاق الذهن وتوسّع دائرة الفكر، وبما سمعوه من الكلام العالي الطبقة في القرآن والحديث.

6

ثم حصل انقلاب كبير في الأمة، وقامت الدولة العباسية مقام الدولة الأموية، وترجمت كتب العلم والحكمة عن خمس لغات أعجمية وهي:

الفارسية أو البهلوية

الهندية أو السنسكرية

السريانية

العبرانية. وسُمِّي المترجم عنها بالإسرائيليات

اليونانية

وعكف أهل العلم والفضل على النظر في هذه الكتب، ونقلوا للعربية شيئاً قليلاً من أدب اللغات الأعجمية. وكان في مقدمة الناقلين ابن المقفّع (109 ـ 145 هـ). واسمه عبد الله بن داذبه وأصله من مجوس الفرس أسلم ودخل في خدمة عيسى بن علي عم السفاح أول الخلفاء العباسيين. واشتهر ابن المقفع بالفصاحة والبلاغة حتى قيل بأنه ألّف كتاباً يعارض فيه القرآن كما فعل المتنبي. قال الباقلاني: «فليس له كتاب يدعي مدَّعٍ أنه عارض فيه القرآن، بل يزعمون أنه اشتغل بذلك مدة ثم مزّق ما جمع واستحيى لنفسه من إظهاره.. إلخ». ثم ذكر له «الدرة اليتيمة» وقال إنهما كتابان أحدهما يتضمن حكماً منقولة عن كتاب بزرجمهر في الحكمة والآخر في شيء من الديانات، وقد تهوّس فيه بما لا يخفى.

على أن الكتاب المشهور لابن المقفع هو كتاب «كليلة ودمنة» المطبوع في بيروت وهو قصة أدبية فلسفية سياسية أول من وضعها أحد أدباء الهند وفلاسفتها ويدعى بيدبا أو بيدبائي، وحرّرها باللغة الهندية فترجمت عنها إلى اللغة البهلوية على عهد أنوشروان، ثم جاء ابن المقفع وترجمها للعربية نثراً. ثم ظهر على عهد هارون الرشيد إبان بن عبد الحميد من شعراء العرب، وانتسب للبرامكة، وغمر بإنعامهم، ونظم لهم كتاب «كليلة ودمنة» فقال بعد المقدمة:

هذا كتاب أدب ومحنـــه وهو الذي يدعى كليلة دمنهْ
فيه احتيالات وفيه رشد وهو كتاب وضعته الهنــــد

وكان لإبان نظر جيد في العلم والحكمة، ونظم قصيدة فلسفية في مبدأ العالم نسبت لأبي العتاهية. وكان أبو نواس يأنف من معاشرته لأن كلامه كلام فلاسفة وحكماء لا كلام شاعر أديب متخصص بعلم الأدب. واسترحم إبان بن عبد الحميد يوماً من يحيى بن خالد البرمكي بإدخاله على الرشيد، وعرض أشعاره عليه فأشار عليه يحيى بنظم قصيدته السياسية التي قال فيها:

نشدت بحق الله من كان مسلما أعم بما قد قلتـــه العجم والعرب
أعم رسول الله أقرب زلفـــــة لديه أم ابن العم في رتبة النســب؟
وأيهما أولـــى بـه وبعهـــده؟ ومن ذا له حق التراث بما وجــب؟
فإن كان عباس أحــق بتلكـم وكـان علي بعد ذاك على سبب
فأبناء عبـاس هـم يرثونــــــه كما العم لابن العم في الإرث قد حجب

فلما سمعها الرشيد تهلل وجهه بالبِشر، وأنعم على الشاعر بعشرين ألف درهم، ثم ظهر سهل بن هارون الكاتب وصنّف للمأمون كتاب «قلة وعفرة» يعارض به كتاب «كليلة ودمنة» في أبوابه وأمثاله، ويزيد عليه في حسن نظمه. ثم جاء ابن الهبارية واسمه الشريف أبو يعلي محمد بن محمد. ونسبه يتصل بعبيد الله بن عباس رضي الله عنه. وكان ابن الهبارية من شعراء نظام الملك وزير ألب أرسلان، ثم انتسب لابنه ملكشاه ومدحهما بقصائد، ونظم «كليلة ودمنة» وسماه «نتائج الفطنة في نظم كليلة ودمنة» وله كتاب آخر على هذا الأسلوب سماه «الصادح والباغم»، ونظم فيه ألفي بيت. وأشعاره سلسلة سهلة ومنها:

يقول أبو سعيـــد إذا رآنـــي عفيفاً منذ عام ما شربــت
على يد أي شيخ تبت قل لي فقلت على يد الإفلاس تبت

وترجم غير كتاب «كليلة ودمنة» من لغات الأعاجم أمثال لقمان الحكيم ولطائف الوزراء ولطائف الملوك وكثير من النصائح والمشورات السياسية والإدارية وشيء من كتاب زرادشت وكتاب ماني. قال المسعودي في «مروج الذهب»: «وانتشر بأيدي الناس في ذاك الوقت كتاب أصله من بلاد العجم واسمه «ألف ليلة وليلة» غير أن حكاياته لا تشبه حكايات الكتاب المعروف بهذا الاسم المتداول بيننا». واشتهر في الكتابة والإنشاء أيضاً الجاحظ (165 ـ 255 هـ) وهو ابن عثمان الكناني الليثي البصري. له طريقة في الإنشاء يقال لها طريقة الجاحظ، كما أن له مذهباً في الفلسفة وقيل لأتباعه «الجاحظية». وله مؤلفات كثيرة في الأدب منها كتاب «البيان والتبيين» وكتاب «الأمصار» وكتاب «الحيوان». وقد اختصر المؤلف هذا الكتاب الأخير. ويوجد نسخة من المختصر في مكتبة اسكوريال بإسبانيا وهي التي طبع فهرست كتبها المستشرق الأستاذ هارتويغ ديرنبورغ. ويوجد نسخة أصلية من كتاب «الحيوان» في مكتبة هامبورغ. وقد سلك مسلك الجاحظ وأخذ طريقته، ولم يقصر عنه أبو الفضل محمد بن العميد (توفي 360 هـ). وكان مؤدباً لعضد الدولة ومن أعظم وزراء آل بويه، وله رسائل كبيرة وأشعار وكتاب «الخلق والخلق» لم ينقحه وأثنى عليه الباقلاني فقال: «إنه يأخذ في الرسالة الطويلة فيستوفيها على حدود مذهب الجاحظ ويكملها على شروط صنعته، ولا يقتصر على أن يأتي بالأسطر من نحو كلامه كما ترى الجاحظ يفعله في كتبه متى ذكر من كلامه سطراً أتبعه من كلام الناس أوراقاً، وإذا ذكر منه صفحة بنى عليه من قول غيره كتاباً». وكان ابن عباد وزير فخر الدولة يصحب أبا الفضل ابن العميد ولذا قيل له الصاحب بن عباد.

ومن اشتهر من الشعراء أبو تمام حبيب بن أوس الطائي (190 ـ 231 هـ) وهو ميّال للتصنُّع والتكلّف والتعويض في المعاني. وأحسن ما ألفه كتاب «الحماسة» وهو مختار من كلام الشعراء المتقدّمين. ومطبوع وله أيضاً كتاب «فحول الشعراء» وكتاب «الاختيارات». ومنهم أبو نواس (توفي 195 هـ) وله سبك جيد وحلاوة ورقة. ومنهم ابن الرومي، وابن المعتز وأشعرهم البحتري (204 ـ 284 هـ). وفضّله الباقلاني على جميع أهل عصره لبهجة كلامه وبديع رونقه وديباجة شعره وكثرة مائه. وقال المعري: «أبو

تمام والمتنبي من الحكماء. وأما الشاعر فهو البحتري». قالوا: «والبحتري يغير على أبي تمام إغارة، ويأخذ منه صريحاً وإشارة، ويستأنس بالأخذ منه بخلاف ما يستأنس بالأخذ من غيره، وقد طبعت الموازنة بينهما في مطبعة الجوائب».

وكان الخلفاء والرؤساء يشوقون شعراء الطبقة الإسلامية، ويجيزونهم بأعظم الجوائز كما يفعل في يومنا الإفرنج ولو كان فعلهم مقيداً بالقواعد والنظامات فإن الأكاديميات تحكم في كل سنة بتوزيع الجوائز النقدية التي تقرر صرفها نظارة المعارف، أو يتبرع بها أصحاب الخير ومحبو العلم من ذوي الثروة. فهذا الأمر شائع بينهم وله دائماً ذكر في جرائدهم. وكان للخلفاء معرفة بفنون الأدب وتبصُّر بجيد الكلام ورديئه، ويحفظون أشعاراً كثيرة، ويعانون النظم والنثر لتقوى ملكتهم في اللغة حتى إذا رقوا منابر الخطابة، أو تكلموا في صدور المحافل تمكّنوا من استمالة الناس إليهم، وألّفوا بين قلوبهم كما يفعل ملوك الإفرنج في زماننا ولا سيما خطيبهم الشهير إمبراطور ألمانيا فإنه من أبلغ الخطباء في الملوك. وهكذا كان الخلفاء يستجلبون القلوب ببليغ الكلام لا بحَدّ الحسام. وظهر في ذوي الرياسة فحول من الأدباء مثل ابن الخليفة العباسي المعتز بالله بن المتوكل. واشتهر بابن المعتز (247 ـ 296 هـ). وتولى الخلافة يوماً واحداً وقتل وهو أفضل شعراء بني هاشم. ومثل أبي فراس الحمداني ابن عم ناصر الدولة وسيف الدولة من آل حمدان المنتسبين لبني تغلب من قبائل العرب. وامتدت حكومة آل حمدان في حلب والموصل نحو 60 سنة.

ومن شعر أبي فراس الحمداني قوله:

نطقت بفضلي وامتدحت عشيرتي ... وما أنا مدّاح وما أنا شاعر

وطبع ديوانه في بيروت. وكان المتنبي يفضله على نفسه.

وممن اشتهر في الأدب أبو بكر الخوارزمي، وبديع الزمان الهمذاني وكلاهما من أدباء القرن الرابع للهجرة ونشرت الجوائب رسائلهما. ونسج الحريري على منوال الهمذاني في تأليف مقاماته المشهورة ولم تزل تدرس في الصوربون وقد شرحها شيخ المستشرقين في فرنسا سيلفيستر دوساسي. وينتقد عليها أدباء الإفرنج من جهة قصر المقامات وعدم اعتناء المؤلف في تصوير الحكايات وتشخيصها على نسق ما ألفه الإفرنج أو اليونان قديماً وإنما صرف الحريري عنايته إلى سبك الألفاظ. وتصنيعها وكانت ولادته في البصرة، ثم نُفِي إلى مشان بقرب البصرة (446 ـ 515 هـ).

ومن المعلوم أن إيراد خلاصة تاريخ أدب اللسان العربي وذكر المشاهير من الأدباء

وتعيين طبقاتهم ليس بالأمر السهل. ولذا نكتفي بالإشارة إلى بعض من دوّن أخبار الشعراء. فمنهم ابن قتيبة المروزي (213 ـ 276 هـ) صاحب «أدب الكاتب» وله «ديوان الكتاب» و«طبقات الشعراء» وغير ذلك. ومنهم المبرد الأزدي (210 ـ 286 هـ). وله كتاب «الكامل» و«المقتضب» و«الروضة». ومنهم ابن المنجم (241 ـ 300 هـ). وكان أبوه من كتّاب المأمون ومن نسل يزدجرد آخر ملوك فارس، فألّف هو في تاريخ الأدب كتاب «الباهر» أو «البارع في أخبار الشعراء». ثم جاء أبو منصور الثعالبي (350 ـ 429 هـ). وهو عربي النسب نيسابوري المولد. وكان يحترف بعمل فراء الثعالب فوضع للكتاب المذكور ذيلاً في 4 مجلدات سماه «يتيمة الدهر في محاسن أهل العصر» جمع فيه أخبار شعراء زمانه ونوادرهم وأشعارهم. ثم جاء أبو الحسن على الباخرزي نسبة لباخرز ناحية بالقرب من نيسابور بخراسان. وكان من ذوي المراتب العالية وأهل الديوان وتوفي مقتولاً سنة 467 هـ فحرّر ذيلاً ليتيمة الثعالبي سماه «دمية القصر وعصرة أهل العصر» ومنه نسخة في الأستانة. وزاد عليه أبو الحسن بن زيد البيهقي ـ وبيهق ناحية بالقرب من نيسابور أيضاً ـ ذيلاً سماه «وشاح الدمية» ثم جاء عماد الدين الكاتب الأصفهاني (519 ـ 597 هـ) وزير السلطان صلاح الدين الأيوبي وألّف كتاب «خريدة القصر وجريدة العصر». ومنه نسخة في الأستانة وأخرى في باريس. وفيه تراجم الشعراء وأشعارهم من سنة 500 إلى سنة 572 هـ. وألف أيضاً كتاب «السيل على الذيل» وجعله ذيلاً لخريدة القصر. ثم جاء الورّاق وهو أبو المعالي سعد بن علي الأنصاري المتوفى سنة 568 هـ وذيَّلَ ما تقدّم بكتابه «زينة الدهر وعصرة أهل العصر».

فهذه المدوّنات من أهم الأجزاء في تاريخ الأدب العربي ويمكن إتمامها باختيار ما يروق من مؤلفات أبي شامة (596 ـ 665 هـ) وأبوه المقدسي. نشأ هو في مصر. وكتابه «كتاب الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» يدرّس في الصوربون وطبع في مصر. ومن مؤلفات الكاتب الدمشقي (700 ـ 759 هـ). كتابه «مسالك الأبصار في الممالك والأبصار» لا يقتصر على التاريخ والجغرافيا بل فيه كثير من التراجم أيضاً. ومجلداته نحو ثلاثين وقيل أربعين. وهو مرقم في كتبخانة أيا صوفيا في الأستانة من عدد 3415 إلى 3439. ومنه نسخة في مكتبة باريس الأهلية والهمم جارية في طبعه. ولما كنت في الصيف الماضي بالأستانة شاهدت في كتبخانة الكوبريلي أحد المستشرقين من الإنجليز يستنسخ بآلة التصوير الشمسي كتاباً كبير الحجم حسن الخط ليس فيه من التراجم إلا حرف العين فسألت فإذا هو «إرشاد الألباء إلى معرفة الأدباء» تأليف ياقوت

الحموي الرومي (574 ـ 626 هـ) صاحب «معجم البلدان» الذي طبعه المستشرق ووستنفلد في ليبزيك سنة 1869 في أربعة مجلدات وطبع حاشية له في مجلد خامس. وللحموي من المؤلفات النافعة «معجم الأدباء» [1]، و«معجم الشعراء»، وكتاب «أخبار المتنبي»، و«عنوان كتاب الأغاني» و«مجموع كلام أبي علي الفارسي».... فإذا كان حرف العين من ذاك السفر الجليل لم يكمل في مجلد ضخم فما بالك في بقية أجزاء هذا الكتاب؟. ومما يمكن مراجعته من الكتب في هذا الموضوع «نزهة الألباء في طبقات الأدباء» لمحمد بن شاكر الأنباري ونسخته في الأستانة. وقد طبع على الحجر. وكتاب «ريحانة الألباء» المطبوع في بولاق. و«نفحة الريحانة في طبقات الشعراء» للمحبي و«وفيات الأعيان» لابن خلّكان و«فوات الوفيات» للكتبي و«الوافي بالوفيات» لصلاح الدين بان أيبك الصفدي، و«أعيان العصر وأعوان النصر» له أيضاً. ثم تاريخ المحبي، في أعيان القرن الحادي عشر، والمرادي في أعيان القرن الثاني عشر. وهكذا ينتهي الباحث إلى العصر الذي نحن فيه فيجد شيئاً من آثار المعاصرين في الجزء الأول من عكاظ الأدب المطبوع في الأستانة عقب الحرب مع اليونان. وقد استعار صاحب عكاظ وهو أبو النصر السلاوي باشا لكل واحد من شعراء العصر لقباً من ألقاب المتقدمين وسمّى به أصحاب معلقات هذا القرن الرابع عشر للهجرة. فامرؤ القيس الثاني لنقيب الأشراف السيد توفيق أفندي البكري. وأبو العلاء الثاني للأستاذ عبد الجليل أفندي براده المدني. ونابغة العراق لجميل أفندي الزهاوي. ونابغة مصر لأحمد بك شوقي وزهير البلاغة لمحمد ولي الدين بك يكن. وصاحب المعجز لأحمد محرم أفندي. وحسان الموصل لشاعر العراق عبد الباقي أفندي العمري. وشيخ الأدباء لأحمد عزت باشا الفاروقي الموصلي. ولبيد العصر للفيلسوف يوسف ضياء الدين باشا الخالدي. ودريد الحكم لحسن حسني باشا الطويراني. وأبو الثناء للشيخ محمود قبادو التونسي.

وأما اللغويون والنحاة فأحسن جامع لأخبارهم ما ألَّفَه جلال الدين السيوطي المتوفى سنة 911 هـ وسماه «بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة». ورأيت نسخة منه في مكتبة يكي جامع. وهي عند الجسر في الأستانة العلية. وطبع في مصر وسوريا وأوروبا كثير من مؤلفات الأصمعي وأبي زيد الأنصاري البصري وأبي عبيدة النحوي وابن السكيت وغيرهم من اللغويين الأفاضل.

---

1 - هو «إرشاد اللبيب إلى معرفة الأديب» وقد عني بطبعه الأستاذ مرجليوث وصدر منه بضعة أجزاء.

7

لما حدث الانقلاب الكبير في انتقال الخلافة الإسلامية من الأمويين إلى العباسيين وترجمت كتب العلم والحكمة إلى لسان العرب قرأ أدباء المسلمين كتاب «المنطق» لأرسطو، ورأوا فيه ذكر أوميروس الشاعر والثناء عليه فلم يحفلوا بشعره ولا بشعر أحد من الأعاجم، ولا التفتوا إلى أساطير اليونان ولا لما وضعوه من الروايات التشخيصية، ولا قدَّروا حرية فكرهم ولا ذوقهم في الكلام حق قدره لاشتغالهم عن ذلك بما لديهم من فنون الشعر وأنواع الخطب والرسائل والدواوين والمعلّقات ولا سيما ما أدهشهم من كلام الحديث والقرآن. فترجموا كتب المنطق والنجوم والطبيعيات والطب والهندسة. ولكنهم لم يترجموا لأديب من أدباء اليونان ولا أدباء الرومان لا قصيدة ولا خطبة ولا رواية ولا حكاية من حكايات أساطيرهم. ولعلهم خافوا على الناس من الرجوع إلى عبادة الأوثان إن بحثوا لهم في آلهة اليونان. ومع ذلك فترجمة كتب العلم والحكمة إلى لسان العرب ظهر لها تأثير في توسيع أفكار الشعراء الإسلاميين. وظهر فيهم طبقة جديدة هي طبقة المتنبي والمعري في الشرق وابن هانئ في إشبيلية. وهو المسمى بمتنبي الغرب. فحيث كان لأهل هذه الطبقة نظر في كتب العلم والحكمة فكلامهم أبلغ معنى وأكثر فوائد لاشتماله على آراء فلسفية وسياسية ومباحث عقلية وعلمية. غير أنهم خرجوا عن أساليب الشعر القديم ووضعوا من عندهم أساليب مخصوصة. فقام عليهم

المتعصبون لأساليب العرب الأقدمين وسلقوهم بألسنة حداد، وشدّدوا عليهم النكير كما فعل أصحاب طريقة كلاسيك مع فيكتور هوكو حينما شهر طريقة (رومانتيك).

فالمتمسِّكون بالأساليب القديمة من أدباء العرب يقولون إن نظم المتنبي والمعري ليس من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب المخصوصة، إذ ليس كل كلام منظوم عند العرب يسمى شعراً. بل الشعر هو «الكلام البليغ» المبني على الاستعارة والأوصاف، المفصّل بأجزاء في الوزن والروي، مستقل كل جزء منها في غرضه ومقصده عما قبله وبعده، الجاري على أساليب العرب المخصوصة»، فلا بدّ أن تجتمع هذه القيود في الكلام المنظوم حتى يسمّى شعراً. فما خلا من الاستعارة والأوصاف مثل منظومات المتون العلمية المدرسية والأرجوزات الأخلاقية وقول العامي «أغلق الباب وائتني بالطعام» أو ما خلا عن تساوي الأوزان واتحاد الروي كقولهم «رب أخ كنت به مغتبطاً أشد كفي بغرى صحبته تمسكاً مني بالود، ولا أحسبه يغير العهد، ولا يحول عنه أبداً فخاب فيه أملي....» لأن الوزن لم تتساوَ أجزاؤه في الطول والقصر والسواكن والحركات. أو لم يجر على أساليب العرب المعروفة، فهو حينئذ لا يكون شعراً وإنما هو كلام منظوم[1]. أما الأسلوب في عرفهم فهو القالب الذي يفرغ فيه الشعر أو المنوال الذي ينسج عليه. وذلك أنهم يقولون إذا أراد الطالب قرض الشعر ينبغي له أن يكثر من مطالعة أشعار العرب الأقدمين وأن يحفظها ويرتاض فيها حتى تصير له ملكة في كلامه. فحينئذ يحصل في ذهنه قالب كلي من التراكيب. التي رآها في كل شعر من أشعارهم. وهذا القالب الكلي ينطبق على تلك التراكيب فسؤال الطلول قالب كلي يكون بخطاب الطلول كقوله: «يا دار مية بالعلياء فالسند»، ويكون باستدعاء الصحب للوقوف والسؤال كقوله: «قفا نسأل الدار التي خف أهلها»، أو باستبكاء الصحب على الطلول كقوله: «قفا نبك من ذكرى حبيب ومنزل» أو بالاستفهام عن الجواب لمخاطب غير معين كقوله: «ألم تسأل فتخبرك الرسوم». وكذا تحية الطلول قالب كلي يكون بالأمر لمخاطب غير معين بتحيتها كقوله: «حي الديار بجانب الغزل» أو بالدعاء لها بالسقيا كقوله:

أسقى طلولهم أجس هذيــــم   وغدت عليهم نضرة ونعيــــم

1 - انظر مقدمة ابن خلدون.

أو بسؤاله السقيا لها من البرق كقوله:

يا برق طالع منــزلاً بالأبـــرق واحدُ السحاب لها حداء الأنيق

وكذا التفجّع في الجزع قالب كلي يكون باستدعاء البكاء كقوله:

كذا فليجلّ الخطب وليقذع الأمر فليس لعينٍ لم يفض ماؤها عذر

أو باستعظام الحادث كقوله «أرأيت من حملوا على الأعواد».

أو بالتسجيع على الأكوان بالمصيبة لفقده كقوله:

منابت العشب لا حامٍ ولا راع مضى الردى بطويل الرمح والباع

أو بالإنكار على من لم يتفجّع له من الجمادات كقول الخارجية:

أيا شجر الخابور مالك مورقاً؟ كأنك لم تجزع على ابن طريف

أو بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله:

ألقى الرماح ربيعة بن نزار أودى الردى بفريقك المغوار

وأمثال ذلك.. فمن أراد قرض الشعر كان هو كالبناء أو النساج والصورة الذهنية المنطبقة في ذهنه كالقالب الذي يبني فيه أو المنوال الذي ينسج عليه. فإن خرج عن القالب في بنائه أو عن المنوال في نسجه كان فاسداً. ولذا رأى أهل الذوق في قول الشاعر:

لم أدر حين وقفت بالأطلال ما الفرق بين قديمها والبالي

كلام فقيه لقوله «ما الفرق بين قديمها» لأن هذا من تعبيرات الفقهاء واصطلاحاتهم لا من تعبيرات الأدباء مع ما فيه من الوقوف بالأطلال. فلم يستحسن أهل الذوق هذا البيت ولا وجدوا فيه رقة ولا بهجة ولا ماءً، ولذا لم يستحسنوا في الأدب كلام الفقهاء ولا الفلاسفة مع ما في كلامهم من المنطق والحكمة لخلوّه من هذا النور الذي يتلألأ في كلام الأدباء ويخرج من نفس الأديب ومن قلبه وروحه. وأما كلام الفقيه أو الفيلسوف فيخرج من عقله ومحاكمته ومقايسته. فهو وإن كان برهانه قاطعاً إلا أن

تأثيره على النفوس أقل من تأثير كلام الأديب. ومن كثرة حفظهم لأشعار المتقدّمين رسخت لهم ملكة في كلامهم حتى كاد ذوقهم يمجّ الأسماء التي لم ترد في أشعار الجاهلية. رُوِي أن جريراً أنشد بعض خلفاء بني أمي قصيدته:

بان الخليط برامتين فودعوا　　أَ وَ كلما جدوا لبين تجــزع؟
كيف العزاء ولم أجد مذ بنتم　　قلباً يقرُّ ولا شراباً ينفـــــع؟

قال وكان الخليفة يزحف من حسن هذا الشعر حتى بلغ قوله:

وتقول بَوْزَع: قد دببت على العصا　　هلا هزيتِ بغيرنا يا بَوْزَعَ

فقال الخليفة أفسدت شعرك بهذا الاسم. لأن سمع الأديب لم يألف اسم بوزع كما ألف هند، ومي، أو فاطم التي مشى بها امرؤ القيس حتى أجاز ساحة الحي وهي تجر أذيال المرط الموشى بالذهب ولا مشية فيكتور هوكو بمعشوقته جوليت في مراقص باريس ومراسحها. ولم يزل الأدباء يبنون كلامهم في ذاك القالب وينسجونه على ذاك المنوال حتى يومنا هذا. كما فعل أصحاب المعلقات السبع التي نشرها صاحب عكاظ. وكلماتهم السبع التي خصت بكرامة التعليق هي:

كلمة نقيب الأشراف السيد توفيق أفندي البكري ومطلعها:

أما ويمين الله حلفة مقســـــم　　لقد قمت بالإسلام عن كل مسلم

وكلمة عبد الجليل أفندي برادة المدني:

كذا فليكن ما يحرز المجد والفخر　　كذا فليكن ما يجمع الفتح والنصر

وكلمة جميل أفندي الزهاوي البغدادي:

هو الفتح ألقى في قلوب العدا هولا　　وأثبت أن الحق يعلو ولا يعلى

وكلمة أحمد شوقي بك المصري:

بسيفك يعلو الحق والحق أغلب　　وينصر دين الله إيان تضرب

وكلمة محمد ولي الدين بك يكن المصري:

أبت ضيمها في الناس كيف أضيمها　　حياة تساوي بؤسها ونعيمها

وكلمة أحمد محرم أفندي المصري:

منازل سلمى لاعدتك الغمائم ولا درست بالجزع منك المعالم

وكلمة أبي النصر السلاوي باشا المصري:

على مثلها فلتحمد الهمم الغرّ فما هي إلا الحرب أعقبها النصر

فالمتنبي والمعري خرجا عن هذا القالب وذاك المنوال الذي وضعه شعراء الجاهلية، وجعل كل منها له مذهباً مخصوصاً في الأدب وأساليب معروفة في الشعر، ولذا قال ابن خلدون «وكان الكثير ممن لقيناه من شيوخنا في هذه الصناعة الأدبية يرون أن نظم المتنبي والمعرّي ليس هو من الشعر في شيء لأنهما لم يجريا على أساليب العرب.».

وبعد إن كان حسّان يقول:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقا

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه يقول: «كان زهير لا يمدح الرجل إلا بما فيه». صار أهل هذه الطبقة من الشعراء المستنيرين بنور ما ترجم من كتب العلم يمدحون بأشعارهم أمراء العجم الذين لا يفقهون دقائق البلاغة العربية طالبين معروفهم فقط لا سوى ذلك من الأغراض كما فعله حبيب والبحتري والمتنبي وابن هاني ومن بعدهم. فإن حبيباً الملقب بأبي تمام ولد في قرية بجوار دمشق ونشأ في مصر وطاف الشام والعراق وخراسان ومدح الخلفاء والملوك والأمراء بقصائد كثيرة. والبحتري ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لبغداد ومدح الخلفاء والملوك والأمراء بقصائد كثيرة. والبحتري ولد في قرية بجوار حلب ثم ذهب لبغداد ومدح الخليفة المتوكل ثم طاف بلاد الشام ومدح الأمراء، واجتمع في حمص على أبي تمام. والمتنبي ولد في الكوفه وأبوه سقّاء من قبيلة جعف، فجاء دمشق ومدح سيف الدولة من آل حمدان، ثم ذهب لمصر ومدح كافور الإخشيدي الخصي الأسود ثم ذهب لبغداد وخراسان ومدح عضد الدولة من آل بويه وغيرهم، وهو ممن حاول أن يأتي بمثل القرآن كابن المقفع. ولكنهما عجزا وأبطلا ما كتباه. ولذا هجا بعضهم المتنبي فقال:

أي فضل لشاعر يطلب الفضـــ ل من الناس بكرة وعشيّا
عاش حيناً يبيع في الكوفة الما ء وحيناً يبيع ماء المحيّـا

وكذا ابن هاني متنبي الغرب ولد في إشبيلية وطاف بلاد إفريقية ومدح أمراء البربر وهو القائل في المعز لدين الله:

ما شئت لا ما شاءت الأقدار فاحكم فأنت الواحد القهّار

فصار عرض الشعر في الغالب إنما هو الكذب والاستجداء لذهاب المنافع التي كانت فيه للأولين وتملّقهم للأمراء دفعاً للشر واستجلاباً للإحسان والخير. واستبدّ الرؤساء بالأمر، وقويت فيهم الشوكة والسلطة فلم يبق بهم حاجة لاستعمال فن الخطابة وطلاقة اللسان لاجتذاب قلوب الأمة إليهم، بل رأوا في المصلحة الذاتية قهرهم بالقوة وإرهابهم بحد السيف فاستخفوا بالأمة وبالرأي العام وتمثّلوا بقول أبي تمام:

السيف أصدق أنباءً من الكتب.

ويقول عمارة اليمني السياسي:

وشفرة السيف تستغني عن القلم [1]

وفعلوا بالأمة ما قاله لها الحجاج سابقاً «لأعصبنكم عصب السلمة، وألحونكم لحو العصا، ولأضربنكم ضرب غرائب الإبل. يا أهل العراق. يا أهل الشقاق والنفاق ومساوئ الأخلاق. إني والله سمعت لك تكبيراً ليس بالتكبير الذي يراد به الله في الترغيب. ولكنه التكبير الذي يراد به الترهيب. يا عبيد العصا وأشباه الإماء إنما مثلي ومثلكم ما قاله بن براقة الهمذاني:

وكنت إذا قوم غزوني غزوتهـــم فهل أنا في ذا يا أهل همذان ظالم
متى تجمع القلب الذكي وصارما وأنفاً حميّاً تجتنبـك المظالـــم

وقال المعتضد عند وفاته في سنة 289 هـ. وهو سادس عشر الخلفاء العباسيين ولعله ندم على هذا الاستبداد:

1 - والشطرة الأولى «العلم مذ كان محتاج إلى العلم» أو «العلم أول محتاج إلى العلم» وهو مطلع قصيدة حرّض فيها شمس الدولة على تملّك اليمن ومن أبياتها الملتهبة الجمر قوله:

إن المعاني عروس غير وامقة إن لم تخلق ردائيها برشح دم

ومنها:

وكان أول هذا الدين من رجل سعى إلى دعوة سيد الأمم

وقد طبع ديوانه الأستاذ هارتويغ ديرنبورغ سنة 1897 مع «كتابه النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية».

ولا تأمنن الدهر أنـــي أمنتـــه فلم يَبق لي خلاً ولم يرع لي حقاً
قتلت صناديد الرجــال ولــم أدع عدواً ولم أمهل على طغيــه خلقــا
وأخليت دار الملك من كـــل نازع فشردتهم غرباً ومزقتهــم شرقــا
فلما بلغت النجم عـــزاً ورفعــةً وصارت رقاب الخلق أجمع لي رقا
رماني الردى سهماً فأخمد جمرتي فها أنا ذا في حفرتي عاجلاً ألقــى

ولكن الرؤساء من الأعاجم فعلوا فعلاً بلا قول لعجمة لسانهم - وأصبح تعاطي الشعر هجنة في الرئاسة ومذمة لأهل المناصب الكبيرة، وقدموا الجهلاء على الشعراء، ودعوهم بالظرفاء وأهملت فنون الأدب، وبلغ التفريط في جانب الفصاحة اللسانية إلى درجة كاد فيها الرؤساء لا يفوهون بكلمة في المجالس، ويعتبرون السكوت عين الأدب. وإذا اجتمعوا في حفلة اكتفوا بسماع الدعاء المأثور. وكثيراً ما يتلوه أجهل المجتمعين. ويكون قد حفظ الدعاء من الصغر بالسماع.

شاهدت أحد الولاة انخدع بمن يتلو الدعاء المأثور، وظنه من العلماء لطول لحيته وكبر عمَّته فأراد تعيينه في منصب، فقيل له: أُمِّيّ. فلم يصدق ودعاه ليلة وطلب منه أن يقرأ عليه ما كتبته جريدة الجوائب إذ ذاك، فلما أمسك الجريدة بالعكس فهم الوالي وتلاها عنه ولم يعينه. ولقد دقّق في هذا المبحث عبد الرحيم أفندي أحمد مبعوث مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر المنعقد في باريس سنة 1897 ووجد نسبة تامة بين الحرية وبين ارتقاء لسان العرب. فكلما اتسع نطاق الحرية في الدولة اتسع معه نطاق الأدب في العربية وزادت فصاحة هذا اللسان وبلاغته وكلما زاد الاستبداد تقيدت عقول الأدباء بالسلاسل وصاروا ينطقون بما يوافق الزمان والمشرب لا بما يشعرون به ويعلمونه ويرونه.

قال مبعوث مصر المشار إليه: «ولقد لاحظت في المتكلّمين بلسان العرب أن الحرية إذا فقدت منهم كثر في كلامهم تكرار (اللازمة) مثل نعم وفاهم. هكذا أحلم يا سيدي. الخلاصة. النتيجة وأمثال ذلك من الكلمات التي يرددها المتكلّم. هذا في المخاطبات بين اثنين وأما في الاجتماعات العمومية كالأفراح والعزاء واستقبال الولاة والقضاة فإما أن ينقضي الاجتماع بالسكوت والهمس أو بتلاوة الدعاء المأثور. وإن جُعل للأدب حرمة فيتلى في ذاك الاجتماع قصيدة مدح أو تبريك أو عزاء، وينفض الجمع بغير أن يفوه الرئيس بما يقتضيه الحال والمقام، ويصور بكلامه حالة تلك الهيئة المجتمعة.

8

أما أهل الأندلس فلما وجدوا في جزيرتهم سماءً صافية وأرضاً طيبة وهواء نقياً وأشجاراً مزهرة وأنهاراً جارية وجبالاً راسية وسهولاً واسعة اتسعت أفكارهم، واستبحر عمرانهم، وراقت أشعارهم، ورقّت معانيهم، وتهذّبت فنون الشعر ومناحيه في قطرهم، وبلغ التنميق فيه الغاية وكثر فيهم الأدباء والشعراء. فوسّعوا دائرة الأدب، ونظموا الشعر في جميع الأعاريض المعروفة عند العرب. وأتوا بالمطولات في جميع مذاهب الشعر وأغراضه من نسيب ومدح ورثاء وهجاء. ثم لم يكتفوا بكل هذا، بل وجدوا الزمان والمكان يقتضي لهما فنوناً جديدة من الشعر ينسج على منوال غير المنوال الذي وضعه عرب الجاهلية، ويقرض في عروض غير عروضهم فغيروا أسلوب العشر وعروضه كما فعل فيكتور هوكو وأهل طبقته في تغيير عروض الشعر الفرنساوي. واستحدث المتأخرون من الأندلسيين الموشح والزجل والمربع والمخمس والمعصب على أربعة أجزاء والمزدوج والكاري والملعبة والغزل وعروض البلد والأصمعيات والحوراني والمواليا والدوبيت وهما لأهل الشرق، وغير ذلك من التفنن الذي لا يدخل تحت حصر. فأول من وضع الموشح مقدم بن معافر الضريري من شعراء الأمير عبد الله بن محمد المرواني وأخذ ذلك عنه أبو عبد الله أحمد بن عبد ربه (246 ـ 348 هـ) صاحب كتاب «العقد الفريد». وقد انتشر هذا الكتاب انتشاراً عجيباً. ولم أدخل

مكتبة من مكتبات الأستانة [1] إلا وأجد فيها نسخة أو أكثر من هذا المؤلف. ثم شاع استعمال الموشح في الأندلس واستظرفه الناس، ونظم كثير من الأدباء، ونسج على منوالهم أدباء الشرق. وطبع كثير من الموشحات واشتهر. فمنها ما نظمه الوزير أبو عبد الله بن الخطيب شاعر الأندلس والمغرب. وكان معاصراً لابن خلدون وكأنه ندب حضارة الأندلس بمطلع هذا الموشح حيث قال:

جادك الغيث إذا الغيث هما   يا زمان الوصل بالأندلـــس
لم يكن وصلك إلا حلمـــا   في الكرى أو خلسة المختلس

ومن أبدع ما أتوا به من الموشحات قول بعضهم:

كحل الدجى يجــري مــن   مقلة الفجر علـــى الصبـــاح
ومعصم النهـر فـي حلـل   خضـــر مـــن البطـــاح

ثـم نسـج أهـل الأمصـار عـلى منـوال الموشـح، ونظمـوا مثلـه بلغتهـم الحضريـة مـن غـير التـزام إعـراب وسـموا هـذا النـوع مـن الموشـح بالزجـل. وأول مـن أبدعـه أبـو بكـر ابـن قرمـان. ومـع أنـه قرطبـي الـدار كان يـتردد كثـيراً إلى إشـبيلية مركـز الأدبـاء ومجمـع الظرفـاء وهـي عـلى نهـر الـوادي الكبـير تشـبه حمـص القريبـة من نهـر العـاصي. ولـذا أطلقـوا عليهـا اسـم حمـص فكان أبـو بكر ابـن قرمـان يركب مع أصحابـه في النهـر للنزهـة والصيـد، وتـدور بينهـم المحـاضرات الشـعرية والمحاورات الأدبيـة وهـم في الـزورق. وقـد اسـتخرج صاحب جريـدة الأرز من مكتبة رومة شـيئاً مـن زجـل الأندلسـيين ونـشره في مجلـد.

وأمـا الأصمعيـات فهـي الشـعر البـدوي وسـميت «أصمعيـات» نسـبة للأصمعي راويـة العـرب (122 ـ 216 هـ). وهـي قصيـدة طويلـة بـلا إعـراب بـل هـي بلغتهم الدارجـة. ويبتـدأ فيها غالباً باسـم الشـاعر. وفيها كثير من البلاغـة والفوائد التاريخية والمعصـب يجئيـون فيـه على أربعـة أجزاء يخالـف آخرها الثلاثة في راويـة، ويلتزمون القافيـة الرابعـة في كل بيـت إلى آخـر القصيـدة. والحـوراني بـأرض الشـام. ولا نطيـل

1 - في الأستانة ما يقرب من الخمسين مكتبة تختلف في الجسامة والأهمية. ومجموع ما فيها من الكتب أقل من ثمانين ألفاً بقليل. وكتب فهرستها مطبوعة ولكن فيها خطأ كبيراً وربما قيد في الفهرست المجموع المشتمل على عدة رسائل باسم الرسالة الأولى. وفيها من نفائس الكتب ما لا يقدر.

الـكلام ببيـان هـذه الفنـون وأقسـامها وفيهـا مـن البلاغـة والفوائـد التاريخيـة مـا لا ينكـر. بخـلاف مـا أحدثوه مـن الصنائـع اللفظية.

وبيـان ذلـك أن أدبـاء العـرب في الجاهليـة والإسـلام صرفـوا عنايتهـم في النظـم والنـثر إلى الألفـاظ لا إلى المعـاني. فالهـدف الذي كان الأديب منهم يـروم إصابته هو التفنـن في طـرق الإفـادة وبيـان المعنـى الواحد بأسـاليب مختلفة من الكلام. وشـبّهوا المعنـى بالمـاء والألفـاظ والتراكيـب بالإنـاء: فمنـه آنيـة الذهـب، والفضـة، والصدف، والزجاج، والخزف. فغرض الشـاعر منهم اسـقاء سـامعه الماء الواحد الذي لا يختلف ولا يتغّـير بأجمـل إنـاء يصوغـه لـه حسـب قدرتـه. ولم يكـن غرضـه إسـقاء سـامعه أنـواع الميـاه الخفيفـة المهضمـة من منابع مختلفـة معدنية ولا إسـقاءه أنواع الخمور أو المرطبـات والبـزورات بـأي إنـاءٍ كان. ولـذا أظهـر الأدبـاء كل مهارتهـم في الألفـاظ، وبينـوا اقتدارهـم في معرفـة اللغة وحفظ الأسـماء الكثيرة والمترادفـات وإفادة المعنى الواحـد بطـرق مختلفـة؛ فكانـت الألفاظ طـوع قريحتهـم يتصرّفون بها كـما يتصرّف الصائـغ في سـبك الفضـة. فألفوا في الألفاظ المهمل والمنقوط والمشـجر ومـا يقرأ طرداً وعكسـاً، ولزمـوا في القـوافي مـا لا يلـزم، ونظمـوا الخاليَّـة وأمثالهـا ـ يروى عـن أديب أنـه أجـاب مـن شـتمه بقولـه: الكلـب مـن لا يعـرف للكلـب مائـة اسـم. وحفظـوا أسـماء كثـيرة للبعـير والناقة والسـيف ولكل ما اشـتهر بالخسـة والـشرف وقالوا: كثرة الأسـماء تـدل عـلى شرف المسـمى أو خسـته. ونجد امـرأ القيس إذا وصـف الفرس لم يـدع عضـواً مـن أعضائـه إلا شرَّحَه تشريحاً، وألّفـوا كتباً كبيرة من الأحـرف المهملة أو المعجمـة مثـل «التفسـير» الـذي ألفـه مفتي الشـام السـابق المرحوم محمـود أفندي حمـزة بالحـروف المهملـة. ولمـا طبـع هـذا التفسـير بدمشـق بعثنـي والـدي بنسـخة منـه إلى المرحـوم مفتـي الخليـل التميمـي. وكان علامـة الديـار المقدسـية. فنظـر في التفسـير طويـلاً ثـم رده إليّ وقـال: لـو لم يقيـد قلمـه بالأحـرف المهملـة لأفادنـا بأكثر مـن هـذا. وكتـاب «عنـوان الـشرف» المشـتمل عـلى عـدة علـوم في مـتن واحـد يقـرأ بصـور مختلفـة. وهـو مطبـوع في مصر. وعلى نسـقه كتـاب آخر مطبوع في الأسـتانة. ولمـا قـال العـماد الكاتـب «سر فلا كبا بـك الفرس» أجابـه القاضي الفاضـل «دام علاء العـماد». والجملتـان مما يقرأ طرداً وعكسـاً. وكان القاضي الفاضل رئيسـاً للمراسـلات السياسـية عنـد السـلطان صـلاح الديـن الأيوبي. والعـماد الكاتـب بمعيته رئيسـاً لقلم المصالـح الشـامية. وكتابـه «الفتـح القـدسي» طبـع في السـنين الأخـيرة. وقـال أبو عبد

الله بـن بيـس مـن علـماء الأندلس. وهو شـيخ لسـان الدين بـن الخطيب المشـهور:

أساجعـــة بالواديين تبـــوُّئي ثماراً جنتها حاليات خواضـــب

دعن ذكر روض زانه سقي شربه صباح ضحى طي ظباء عصائب

غريب فؤادي قاذف كل ليلـــة متى ما نأى وهناً هواه يراقـــب

فجمع في أول الكلمات حروف الهجاء من الألف إلى الياء على الترتيب.

فأدباء الإفرنج يقولون: نعم إن الشعر العربي فيه كثير من الصنائع البديعة، وله رونق وبهجة، وفيه تهييج للمسامع، وهو على أسلوب التوراة وعلى نسق اللغات السامية. ولكن الكلام الذي فيه تصنُّع في الألفاظ وتعمُّل في الشكل الخارجي لا يكون فيه حركة ذهنية ولا تخيُّل فكري. وما لم يكن فيه ذلك ليس فيه إحساس ولا عظمة مطلقاً وإذا ارتفع نفس الشاعر أو الكاتب في الكلام الذي فيه تصنُّع وتعمُّل لم يبق على ارتفاعه بل ينقطع حالاً وينتقل إلى غير ما هو فيه. بخلاف الشعر اليوناني أو الإفرنجي كرواية «إيرناني» مثلاً فإن فيكتور هوكو نظمها على نفس واحد ونسق واحد، وأبدع فيها بما قاله على لسان شارلكين من الكلام العالي الملوكي، فإذا نطق به المشخص على مرسح التشخيص أخذ بمجاميع القلوب، واستمر المشخص يهدر كما يهدر النهر حتى يصل كلامه لأعماق أفئدة السامعين، ويؤثر فيها تأثيراً عظيماً، ومن قاس بنظره بين مقامات الحريري وبين رواية مضحكة من روايات موليير التشخيصية فهم معنى اعتراضهم وحقيقة انتقادهم على مقامات الحريري والهمذاني وأمثالهما. وينتقدون على المقامات أيضاً من جهة التهتك بالأخلاق والتغزّل بالبنين كالتغزّل بالبنات ووضع الحب في غير موضعه الطبيعي مما لم نعهده في كلام أدباء الإفرنج المشهورين إلا من ندر منهم مثل الأديب الإنجليزي الذي حكم عليه منذ سنوات في لوندرا، ودافع عن نفسه بمشروعية هذا الحب في أصل الخلقة والطبيعة وبوجوده عند اليونان والرومان.

والحق أن هؤلاء الأفاضل لم يقصدوا بتأليف المقامة تصوير رواية مضحكة على أسلوب الكوميدية ولا رواية محزنة على نسق التراجيدية، وإنما قصدوا إظهار المقدرة على تصنيف الكلام وتدبيجه بديباج الاستعارات وإلباسه حلل التشابيه وترصيعه بلآلئ البديع كقول الحريري في وصف الخطيب «يختلب الأسماع بجواهر لفظه، ويجتذب القلوب بزواجر وعظه» من الكلام المدبج المصنَّع المرصَّع الذي لو نطق

به على مرسح التشخيص لا يفهمه العوام ويحتاج الخواص إلى النظر في صنائعه وإعمال الفكر في بدائعه. وإلا لو صرف الواحد من أولئك الأفاضل عنايته لتصوير رواية على نسق روايات اليونان أو الرومان أو الإفرنج لسقانا بكأس من الزجاج الشفاف أطيب الخمور وأعلاها طبقة. ولكنه أراد أن يغترف من ماء البحر بإناء صاغه لنا من الذهب الخالص، وطلاه بالمينا الثمينة، ورصعه فوق ذلك بعروق وأوراق من الجواهر واللآلي ليخفي لنا الماء بأبهى إناء، ويرينا أحسن المصوغ والمجوهر. وقد يغرق فكر الكاتب العربي الملتزم للصنائع البديعة في لجج تلك الاستعارات والجناسات ويحتاج في استخراجه إلى غواص ماهر له ملكة راسخة في اصطلاحهم. لأن الكاتب منهم لم يكتب للعوام وأهل السوق وإنما يكتب للخواص من علماء الرجال وأدبائهم ولأصحاب الذوق منهم في الكلام وفي معانيه. ولذا فهو يتجنب الكلمات السوقية المبتذلة وينتفي أعلى طبقات الكلام وأعوصها في اللغة. فالمعري على ماله من جلالة القدر في الأدب لم يسقِنا الحكمة من كأسه إلا وهو يغوص في المباحث اللغوية ويأتي بالشواهد والأمثال كما يتضح لمن طالع رسالة الغفران. وهي التي شبهها مندوب مصر في مؤتمر المستشرقين الحادي عشر برسالة الجحيم التي ألفها الشاعر دانتي الطلياني. ومن طالع رسالة دانتي أو ترجمها رآها تسيل على نسق واحد كما يسيل الماء. ليس فيها تصنُّع في الألفاظ والتراكيب ولا فيها احتياج إلى تفسير الألفاظ اللغوية والاستشهاد بالكلام المعترض.

فالأندلسيون أصلحوا كثيراً من الخلل الموجود في أدب العرب، وجاءوا بالمطولات في فنون كثيرة من الشعر والنثر، وأوجدوا فنوناً مستحدثة، واتبعوا في الكلام شعورهم وإحساسهم القلبي، فطافوا على قرائحهم بصحاف من ذهب وأكواب فيها بعض ما تشتهي الأنفس. ونرى في توصيفهم المناظر الطبيعية وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة بأشعار الإفرنج كوصف حمدونة وهي من بنات الأندلس الشواعر لوادي آش وهو في إيالة غرناطة قالت:

وقـانـا لفحـة الرمضـاء وادٍ سقـاه مضاعف الغيث العميم[1]
حللنا[2] **دوحه فَـحَنـا علينـا حنوَّ المـرضعـات على الفطـيـم**

---

1 - نسخة: وقاه مضاعف النبت العميم.

2 - نزلنا.

ورشفنــا علـــى ظمـــاءٍ زلالاً   ألذُّ من المدامــــــــة للنديــــم
تروع حصاه حالية العــذارى   فيلمس جانب العقد النظيـــم

وقال أبو الفداء: لا بل الأبيات لأحمد بن يوسف المنازي المتوفى سنة 437 هـ وزير أبي نصر أحمد بن مروان الكردي صاحب ديار بكر وترسل إلى القسطنطينية ومرَّ في بعض أسفاره بوادي بزاعا فأعجبه حسنه فقال فيه الأبيات. ووادي بزاعا في ولاية حلب وإليه ينسب أبو فراس الحمداني وغيره من الشعراء.

ولو طال على الأندلسيين الأمد في الحضارة وتعاقبت الأدوار على اللغة وتوالت عليها الانقلابات لأتوا بأحسن مما جاء فيه فيكتور هوكو وإميل زولا من محصول العقل ومجتنى الفكر البشري. ولكن عاجلهم الانقراض وفاجأهم الاستبداد فأمحلت عقولهم وسدّت قرائحهم. وقد اجتمعت في باريس بوفد السلطنة المراكشية وهو ذاهب لحضور الاحتفال بيوبيل فيكتوريا ملكة الإنجليز فوجدت رئيس الوفد الذي هو السفير الكبير أميًّاً.

ثم إن العارفين باللغات نصوا على أن لأدب اللسان العبراني تأثيراً على أدب العرب قبل الإسلام وبعده، وذكروا مشابهة وتوارداً في الخواطر بين ما جاء في شعر امرئ القيس الذي ضرب فيه المثل إذا ركب وبين ما ورد في سفر أيوب من التوراة في وصف الفرس. ونقل بعد الإسلام من العبرانية إلى العربية ما سمي بالإسرائيليات مثل التواريخ وقصص الأنبياء ومناقب الصالحين مما هو في التوراة والتلمود. وكان نقلها عن أحبار اليهود الذين أسلموا مثل كعب الأحبار ووهب بن منبه وأمثالهما رضي الله عنهم، وقد رأينا فيما سبق كيف ترجم عن اللغة الفارسية والهندية كتاب «كليلة ودمنة» وما شابهه، وكيف نسج الأدباء على منواله واعتنوا بنظمه مما كان له مفعول قوي في الحركة الذهنية والتصورات الأدبية والاختلافات الفكرية. ومع ذلك فجميع ما ذكر لم يكن له كبير تأثير على الشعر العربي، ولم يغير شيئاً من أساليبه القديمة ودامت أساليب شعراء الجاهلية هي الهدف الذي يصوّب نحوه كل شاعر بالعربية في قديم الزمان وحديثه.

فيتضح مما تقدم أن العرب لم يأخذوا من الأمم الذين ترجموا كتبهم إلا العلم والحكمة فقط، ولم يحفلوا بشعر اليونان ولا برواياتهم الشخصية ولا بشعر اللاتين وخطبهم، ولا ترجموا شيئاً من ذلك. مع أنهم رأوا في كتاب «المنطق» لأرسطو ثناء

طيباً على أوميروس الشاعر اليوناني ولكنهم لم يقلدوه ولا اتبعوه ولا نهجوا منهجه في شيء. ولم يكن للكتب المترجمة تأثير على طبقة المتنبي والمعري وابن هاني إلا من جهة إفادتهم الآراء الفلسفية لا من جهة إفادتهم أساليب النظم وطرق الكلام.

ومن فحول هذه الطبقة أبو العتاهية وكان في أيام المهدي وهارون الرشيد والمأمون وأكثر في أشعاره من ذم الدنيا لغدرها بأبنائها ومن تذكير الغافلين بالموت وتشويقهم للآخرة ونعيمها ومن لطيف شعره:

ألا أننـــــا كلنـــــا بائـــــدٌ وأيُّ بـــــن آدم خالـــــد؟
وبدؤهـــم كان مـــــن ربهـــم وكلٌّ إلى ربـــه عائـــــد
فيا عجب كيف يعصى الإلـــ ـه؟ أم كيف يجحده الجاحـــد؟
وفي كل شـيءٍ لــــه آيـــة تدلُّ علـــى أنـــه واحـــد

ومن فلاسفة الشعراء أيضاً ابن الشبل أبو علي حسين بن عبد الله البغدادي المتوفى سنة 474 هـ. وكان له وقوف على كثير من علوم الحكمة والفلسفة وله ديوان وقصيدة فلسفية يقول فيها:

بربك أيهـــا الفلـــك المـــدار أقصدٌ ذا المسير أم اضطـــرار؟
مسيرك قل لنا فـي أي شـــيء؟ ففي أفهامنـا منـــك انبهـــار
وفيك نرى الفضاء وهل فضـاء سوى هذا الفضاء به تـــــدار؟
وعنك ترفـع الأرواح أم هـــل مـــع الأجساد يدركها البوار؟

إلخ...

ولابن سينا والرازي أشعار فلسفية وقصيدة ابن سينا في النفس مشهورة ومنها:

هبطت إليك من المحـــل الأرفع ورقاء ذات تعـــزُّز وتمنُّـــع
محجوبة عن كل مقلة عـــارف وهي التي سفرت ولم تتبرقـع
وصلت على كره إليك وربمـــا كرهت فراقك وهي ذات تفجُّع

إلخ...

وله أشعار بالفارسية أيضاً يرد بها على من اتهمه بالكفر والإلحاد.

ومن كلام أبي بكر الراز محمد بن زكريا قوله:

لعمري ما أدري وقد آذن البلى بعاجل ترحال إلى أين ترحالي

وأين محل الروح بعد خروجها من الهيكل المنحل والجسد البالي

إلى غير ذلك مما أتى على هذا النسق من كلام أهل هذه الطبقة، فإن لم يكن لفنون الأدب الأعجمية تأثير كبير على شعر العرب ونثرهم فهل لفنون الأدب العربي تأثير على شعر الإفرنج؟

بينا أنا أبحث عن جواب هذا السؤال رأيت في جريدة طرابلس الشام عدد 462 مقالة في الزجل والتوشيح وكتاب «العذارى المائسات» الذي استخرجه صاحب جريدة الأرز من سفر قديم العهد مخطوط بالحرف المغربي المثبج. عثر عليه في خزانة كتب بدير القديس أنطونيوس للرهبانية الحلبية في رومة وقال فيه:

«فتصفحته فإذا فيه طائفة كبيرة من الشعر الفائق مقطعات ومختارات خرج بها ناظموها عن أوزان الشعر العربي المعينة وأجزاء بحوره المفروضة وأحكام أعاريضها وضروبها المطردة، بيد أنهم أجادوا في ذلك منتهى الإجادة فانتقيت مما عثرت عليه كل نفيس... خدمة لأهل الأدب وإثباتاً لسبق العرب إليها...» وبعد أن ذكر صاحب المقالة تعريف الموشح والزجل وعروض البلد والمزدوج والكاري والملعبة والغزل وغير ذلك قال:

«وقد استحسن شعراء الإفرنج من الإسبان والألمان والطليان والفرنساويين هذه الضروب من فنون الشعر العربي، ونسجوا وعلى منوالها كما يُرى ذلك في دواوين شعرائهم. ولا مراء بأن ذلك انتقل إليهم من العرب حيث لم يأنسوا بأنوار هذه المستحدثات إلا في أواخر القرن الثالث عشر. والمتصفّح لكتب العرب والإفرنج يرى شذرات من هاتيك العذارى. ولكن قَلَّ أن يراها مجتمعه في صفحات عديدة أو كتاب واحد مع أنها في درجة عليا من الحسن والجودة وتطريب السامع» (انتهى).

فإيضاحاً لمجمل هذا القول رأينا أن نبحث في منشأ الأدب الإفرنجي وفي دخول العرب بلاد الإفرنج.

9

كانت فرنسا في قديم الزمان تسمى أرض الغول. وكان يسكنها قبائل الغولوا والسلت (القلت) من البربر المتوحشين. فلما استبحر عمران الرومانيين في رومة وقويت شوكتهم ساقوا العسكر من إيطاليا على سواحل فرنسا الجنوبية واستولوا على إسبانيا لجودة الهواء والأرض فيها. وشكلوا في أطراف مرسيليا ومصب نهر الرون ولاية سموها بروفانس ومعناه الإيالة، وجعلوا عاصمتها مدينة إكس وهي في شمالي مرسيليا. وبنو على الحدود الإسبانية مدينة نربون بالقرب من مستنقع على شاطئ البحر واتخذوها محطاً لرحالهم في سفرهم إلى إسبانيا وإلى الحمامات المعدنية التي في جبال البيرينه. وقبل الميلاد بخمسين سنة تعيَّنَ يوليوس قيصر والياً على بروفانس فوسّع حدود الولاية، وفتح أرض الغول وألحقها بأملاك الدولة الرومانية فصارت الولاة ترسل إليها من رومة ومعهم العسكر والمأمورون. فنظّموا إدارتها وفتحوا طرقها وعمّروا فيها القلاع والحصون والمدن ونشروا فيها شيئاً من حضارتهم ومن لغة عوامهم وهي اللغة اللاتينية الدارجة. وأدخل المبشرون بالمسيحية الدين فيها فصارت اللاتينية لغة الدين والدولة. واستمرت بلاد الغول في أيدي الرومانيين نحو أربعمائة سنة.

وحينما انقسمت دولة الرومان إلى شرقية مقرها القسطنطينية وإلى غربية مقرها رومة وذلك في سنة 395 م كانت فرنسا في قسمة الغربية ضرورة. غير أن تشتت الولاة

وضعف قوتها العسكرية أباح لقبائل الجرمان التجاوز إلى أرض الغول والاستيطان فيها كما استوطن من قبلهم قبائل القوط والفاندال أرض إسبانيا، وسموا الأندلس باسمهم فقالوا فاندالوسيا أو أندالوسيا. ففي أوائل القرن الخامس للميلاد نزلت قبائل الويزي قوط في جنوب نهر (لوار) المار في وسط فرنسا والمنصب في المحيط بالقرب من مدينة نانت. ونزلت قبائل البورغوند في وادي الرون وجبال جورا. ونزلت قبائل الفرنك في شمالي أرض الغول أي في بلاد البلجيك ونزلت الألمان على ضفاف الرين العليا. واستمرت حكومة الرومانيين محصورة وسط بلاد الغول على ضفاف نهر السين. غير أن القبائل النازلة سالموا الحاكم الروماني، وقاتلوا تحت قيادته قبائل الهون الآسيوية وكانت قد هجمت على غربي أوروبا وخَرَّبت البلاد وأراقت الدماء فهزموا رئيسهم أتيلا سنة 450م أمام مدينة شالون على نهر مارون. فلمت قبائل الهون شعثها وجمعت جموعها وفاضت على الممالك الرومانية في إيطاليا كالسيل الجارف، واستولوا على رومة سنة 476م وأبادوا ملكها. فتفرّدت قياصرة الروم في القسطنطينية بالحكم على الرومانيين واستقلت القبائل النازلة في أرض الغول. وكان أشجعهم وأقدرهم قبائل الفرنك فاستبدّوا بالأمر وطرد رئيسهم قلوفيس الوالي الروماني وقام مقامه في حكومة الغول وتزوج بمسيحية من البورغوند فنصرته هو وقومه ونصره الرهبان على قبائل البورغوند والويزي قوط فحكم عليهم، وأسس سنة 481 الدولة التي سميت باسم جده «ميروفة» فقيل لها (مير وفينجيان) أي آل ميروفة وهي أول دولة من الإفرنج. ودام حكمها ثلاثة قرون. وحيث كان ملوك الإفرنج يقسمون الملك بين أولادهم انقسمت دولة المير وفينجيان إلى أقسام متفرقة فضعفت قوتها وتضعضعت، وأصبحت أيام دخول العرب إليها منقسمة إلى أربع ممالك يملكها ملوك من آل ميروفة وهي:

أوستراليا أي المملكة الشرقية وهي عبارة عن الإلزاس واللورين وما جاورهما من ضفاف نهر الرين. ولم يكن لملكهما من آل ميروفة نفوذ فيها بل كانت الكلمة فيها لأعيانها وكبيرهم دوق أوستراليا. ومقرهم مدينة مج.

نوستريا أي المملكة الغربية وهي على ضفاف السين إلى أورليان جنوباً وعاصمتها باريس. وكذا أورليان والمالك عليها من سلالة مير وفنيجيان أصحاب الملك الشرعي على عموم فرنسا.

بورغونيا وهي على ضفاف الرون والسون وعاصمتها ديجون.

أكيتانيا وهي ما بين جبال البيرينه ونهر غارون المنصب في المحيط بعد مروره بطولوز وبوردو. وكانت إذ ذاك تحت حكم الدوق أو الملق بدوق إكيتانيا وهو من نسل ميروفة ومقره طولوز. وتسمى الإيالة المحيطة بها لانغيدوق وما في جنوبها سبتمانيا. كما يسمى القسم الذي على ساحل الأوقيانوس المحيط غسكونيا. وأطلق عليه في كتب العرب غشكونية.

ففي سنة 687 م تداخل دوق أستراليا المسمى ببين دريسنال في شؤون مملكة نوستريا لغفلة ملوكها من آل ميروفة وإهمالهم مصالح الملك حتى أطلق عليهم اسم الملوك البطالين لقعودهم وتخنثهم. وجعل ببين نفسه مشيراً للملك في باريس وأميراً للأمراء في المملكة على مثال ما حدث في عهد الخلفاء العباسيين. ثم انضمت إليهم بورغونيا فصار لدوق أوستراليا نفوذ في أكثر المملكة. وهيأ الأمر لابنه شارل مارتل صاحب الوقائع مع العرب ولحفيده من بعده. فحقد بين الأمراء من آل ميروفة لا سيما أود، دوق أكيتانيا لتفوقهم عليه في الأصالة وشرف النسب.

وقبل دخول الرومانيين أرض المغول كان لسكانها من قبائل الغولوا والسلت النازلين أرض بريطانية ألسن مخصوصة همجية فلما انتشر بينهم عسكر الرومانيين ومأمورهم ومن تبعهم من التجّار والسوقة صاروا يتكلمون لغة عوام اللاتين وسوقتهم أي اللاتينية الدارجة، ويلوكون بها ألسنتهم كما يلوك الزنجي لسانه بالعربية أو السنغالي بالفرنساوية. فلما استولت قبائل الفرنك على أرض الغول وطردوا منها والي الرومان اقتبسوا لسان أهلها وما لديهم من الحضارة الرومانية، وضموا إلى هذه اللاتينية المحرفة كلماتهم الفرانكية البربرية فظهر من هذا الاختلاط لغة سميت (رومان). وهي لاتينية سوقية تحرفت بلسان الغولوا والسلت ثم امتزجت بلسان الفرنك. وحيث كان اللسان والدولة تابعين لقانون واحد في الترقي والانحطاط والانقسام انقسمت لغة رومان بانقسام الدولة إلى قسمين: أحدهما كان يتكلم به أهل الجنوب ويسمى (أوق) ومنه لسان بروفانسال المنسوب لإيالة بروفانس. وهو أقرب للسان الطليان والإسبانيول منه إلى اللسان الفرنساوي الجديد، والثاني كان يتكلم به أهل الشمال ويسمى (أويل). ثم انقسمت لغة أهل الشمال إلى لهجات متعددة غلبت على الجميع لهجة جزيرة فرنسا وهي الإيالة التي عاصمتها باريس، وتعممت في الولايات الشمالية حتى صارت اللغة الفرنساوية الحالية. ثم انتشرت في الإيالات الجنوبية حينما استولى عليها سنة 987م. هوغ قابت مؤسس الدولة الثالثة

من دول الإفرنج في فرنسا. ولم تزل الحكومة الفرنساوية تسعى في نشرها وتعميمها وإصلاحها إلى يومنا هذا. ومع ما تصرفه من العناية في تعليمها لم يزل في أهل القرى من لا يعرف منها الكلمة الواحدة. ونزلتُ ذات يوم قرية من قرى الفرنساويين في جبال البيرينه فلم أستطع التفاهم مع أهلها حتى جاءني رجل من القرية المجاورة وله تردد على الأمصار الفرنساوية ومدنها العامرة.

فالفرنساويون أخذوا لسانهم من قوم ليس لهم به قرابة جنسية. وسموا أنفسهم باسم قبيلة أجنبية من قبائل الجرمان الذين خرجوا من ألمانيا وتغلبوا على فرنسا وأسسوا فيها حكومتهم وسموها باسمهم وتناسوا اسمها القديم وهو أرض الغول واسم سكانها الغولوا.

ولما دخل العرب فرنسا كان أهلها يتكلمون لغات كثيرة همجية غير مدونة إذ كانت القراءة والكتابة باللسان اللاتيني الفصيح في فرنسا وفي عموم أوروبا الغربية بما فيها إنجلترة. فمن تلك اللغات التي لم تدون حينئذ لغة الباسك وكان يتكلم بها قبائل الواسكون سكان البلاد في قديم الزمان. ومنهم سميت أكيتانيا بأرض غسكونية. ولم يزل من المتكلمين بلسان الباسك نحو 120.000 في فرنسا ونصف مليون في إسبانيا. ومنها لغة بروفانسال. ولم يزل لها عدة لهجات (باتوا) يتكلّم بها أهل القرى في الولايات الجنوبية وفي ضواحي مرسيليا. ومنها لغة بريتون وهي بقية لغة القلت أو السلت ولم يزل من المتكلمين بها نحو مليون ونصف في شبه جزيرة بريطانيا غربي فرنسا. ومنها لغة فلاماند وهي نوع من الألمانية ولم يزل يتكلم بها نحو 165.000 من سكان الحدود الشمالية، وغير ما ذكر من اللغات التي انقرضت بدون أن يبقى لها أثر في اللغة الفرنساوية كلغة أكيتانيا أو بقي لها أثر فيما يسمونه (باتوا) من لغات أهل القرى. إذ لكل ناحية (باتوا) مخصوصة بها لا يفهمها أهل الناحية الأخرى بخلاف اللغة العربية الدارجة فإن المرسيني والإسكندروني والبيروتي واليافي والإسكندري والطرابلسي والتونسي والجزائرلي والطنجي يفهم بعضهم بعضاً بأدنى تأمل وأقل فكر مهما تحرّفت كلماتهم. وكذا أهل المدن في داخل تلك السواحل فلا يتعذّر عليهم فهم لهجات بعضهم بعضاً مع أنه لم يحصل عناية ولا همة في نشر اللغة العربية وتعليمها بل الهمم مصروفة في تلك البلاد العربية لنشر غير العربية من اللغات الأعجمية كالفرنساوية، والإنجليزية، والطليانية، والتركية. فبينما كانت فرنسا متفرقة الكلمة لغة وسيادة إذ دهمها العرب واستولوا على أكثرها.

10

لما جلس الوليد بن عبد الملك بن مروان (ولد 48 ـ 96 هـ) سادس الخلفاء الأمويين والثالث من آل مروان كانت إفريقية ولاية ملحقة بإمارة مصر والعامل عليهما عبد العزيز بن مروان. فلما أتاه الحسن بن النعمان بالغنائم التي غنمها من البربر طمع فيه فشكاه الحسن بن النعمان إلى الوليد فسلخ عن مصر إفريقية وولاها موسى بن نصير. وكانت مملكة القوط في اختلال من استبداد رودريك بالأمر وتغلبه على طليطلة عاصمة الملك وظلمه في قبائل القوط وتسلّطه على أعراض بناتهم. فاستجار الإسبانيول بالعدالة الإسلامية، واغتنم موسى الفرصة وكتب للخليفة يستأذنه في فتح بلاد «أطيب هواءً من الشام وأخصب أرضاً من اليمن وأعطر زهراً من الهند». وبعد استحصاله على إذن الخليفة سيّر طارق بن زياد بجيش من البربر فاجتاز بحر الزقاق على المراكب من أضيق محل فيه، ونزل بساحل أوروبا عند صخرة هائلة كأنها الجبل فسميت باسمه. وقيل لها جبل الطارق. وقيل لمجمع البحرين المتكنفين بها بوغاز جبل طارق (جبرالتار) وكان ذلك سنة 92 للهجرة وسنة 710 م وألف عبد الحق حامد مستشار سفارة لوندره رواية تشخيصية باللسان العثماني سماها «طارق» وأبدع في نظمها ونثرها وبيّن فيها هذا الفتح المبين. فانتصر طارق في محاربة وادي ليتة بالقرب من جزيرة قادس. ولحقه موسى بن نصير بجيوش من العرب وأشراف قريش وفتحوا

مالقة وإشبيلية وهي على شاطئ الوادي الكبير وقرطبة وطليطلة عاصمة ملوك القوط وهي على نهر باجه المسمى بنهر التاج. وظلوا سائرين حتى بلغوا أسفل جبال. البيرينه الفاصلة بين إسبانيا وفرنسا وفتحوا استورغة وهي في أسفل تلك الجبال وهذه أول مرة رأى فيها القرشيون جبال البيرينه وهم تحت قيادة موسى بن نصير وسموها (جبل البرنات) بكسر الراء ـ هذا من جهة الغرب.

وأما من جهة الشرق فسيّر الحجاج والي العراق جيشاً عقد لواءه لابن عمه محمد بن القاسم الثقفي تجاوز به نهر السند وفتح الهند، وسيّر جيشاً آخر تحت قيادة قتيبة بن مسلم تجاوز به نهر جيحون من خراسان وفتح ما وراء النهر وتقدّم حتى بلغ كاشغر، وأخذ الجزية من ملك الصين ـ وأصبح ما بين المشرق والمغرب تابعاً للوليد وهو منعم في قصره لم يخرج في غزوة، واستوثقت له الأمور ولم تتغلغل عساكره المنصورة إلا في بلاد الترك وهي في قيادة الحجاج، وفي بلاد الروم وهي في قيادة أخيه مسلمة بن عبد الملك. وبلاد الترك هي تركستان وما بين بحر الخزر وبحر خوارزم (بحيرة أرال) وما في شمالها من أراضي سيبيريا وكانت في حكم خاقان الترك كما هي اليوم في حكم قيصر الروس. وبلاد الروم هي بر الأناضول والروم إيلي وكانت تابعة لقيصر الروم أي لدولة الرومان الشرقية كما هي اليوم من أجزاء الممالك العثمانية. ومن حسن حظ الوليد توفيقه لبناء المسجد الأقصى ومسجد المدينة وجامع دمشق وفي كل بنيان منها دليل شاهد على حضارة ذاك الزمان وترقّي أهله في الصنائع والعمران.

ثم جلس على كرسي الخلافة أخوه سليمان (ولد 54 ـ 99 هـ) بن عبد الملك بن مروان وجازى قتيبة بن مسلم فاتح الشرق بما جازى به أخوه الوليد فاتح الغرب وهو موسى بن نصير. وهكذا كانت الخلفاء تجازي فاتحي الممالك الإسلامية بأشنع مما جوزي به سنمار. فماتوا منكوبين قهراً لا يملكون شيئاً مما جنته أيديهم من أموال الغنائم. وزادت نكبة موسى بن نصير بقتل ولده عبد العزيز مكافأة على حسن إدارته في ولاية إشبيلية. وكان موسى متأهباً للإغارة على الأمم التي بين جبال البيرينه وخليج القسطنطينية وإدخالها جميعاً في الإسلام كما دخلت أمم آسيا وأفريقيا ولم يكن هذا الأمر على موسى بعزيز لوجود الاختلاف والتفرقة بين أمراء الإفرنج وعدم النجابة في ملوكهم الملقبين بالبطالين. ولكن سوء تدبير الأمويين صده عن هذا العمل العظيم، ومكّن الإفرنج في فرنسا مما لم يتمكن منه القوط في إسبانيا من الائتلاف

والاتحاد وصد هجمات العرب. وبسوء تدبير الخلفاء أيضاً وعدم غرسهم المعروف في أهله وعدم مكافأتهم المخترعين والمكتشفين كما كانوا يكافئون الشعراء والمغنين التحق البعلبكي مخترع النار اليونانية بقيصر الروم وأسرّ كيفية عمل هذه النار فأمر باصطناعها في معامل القسطنطينية برّاً وبحراً. لأن مسلمة بن عبد الملك أخا الخليفة اخترق بعسكر الإسلام بر الأناضول وعبر من مضيق الدردنيل المسمى (بوغاز جنا قلعة) وطلع لأوروبا، واتبع ساحل بحر مرمرة حتى وصل أسوار القسطنطينية ووضع الحصار عليها كما حاصرها من قبل سفيان بن عوف الأزدي في خلافة معاوية سنة 47 هـ واستشهد إذ ذاك 30 ألفاً من أهل الإسلام وفيهم خالد أبو أيوب الأنصاري. ولم يزل ضريحه يزار في الحي المنسوب إليه على ساحل الخليج المسمى بقرن الذهب. وبينما كانت عساكر مسلمة تحاصر من جهة البرّ كان أسطول الإسلام المجهز في سواحل سورية ومصر من خشب أحراج لبنان راسياً في مياه القسطنطينية. فالذي منع العرب من فتح القسطنطينية هي النار اليونانية لأنها أضرت بعسكر المسلمين وأحرقت مراكبهم. وكانت عدتها ألف وثمانماية مركب. والكبار منها عشرون مركباً أمام عاصمة الروم كأنها الغاب من الصواري والكماة فيها كالأسود، فاحترقت بأجمعها ولم يعد منها للإسكندرية سوى خمسة مراكب. فالمخترع لهذه النار السيالة على ما ذكره المؤرخ الإنجليزي جيبون - هو رجل من بعلبك يسمى كالينيقوس كان يصطنعها من النفط والكبريت وفحم الصنوبر بطريقة مخصوصة ومقدار معين فكانت تشتعل في الماء والهواء وتدمِّر ما تنصب عليه ولذا سميت أيضاً النار البحرية. وما زال العسكر في الحرب يعولون عليها ويتقون ضررها إلى أن اكتشف العرب على ما يظن بارود المدافع بإضافتهم إلى مسحوق الفحم والكبريت ملح البارود. ونقله عنهم في القرن الثالث عشر للميلاد روجر باكون الإنجليزي (1214 ـ 1294 م) وغيره من كيماويي الإفرنج. واشتهر استعمال البارود في المدافع سنة 1346 في المحاربة التي وقعت بين فرنسا وإنجلترا في قريسي وهي في شمال باريس على نهر صوم. فكان ملك الإنجليز إدوارد الثالث يقود العساكر هو وابنه دوغال. وكانوا مسلحين بالقوس والنشاب ومعهم بعض المدافع التي ظهر استعمالها في ذلك الوقت فغلب الإنجليز مع قلة عددهم بسبب الانتظام والترتيب العسكري. فهذه أول محاربة في أوروبا استعملت فيها المدافع. ولكن المظنون أن العرب استعملوها قبل هذا التاريخ أي في أواخر القرن الثالث عشر للميلاد في محاصرتهم جزيرة صقلية سنة 672 هـ ـ وعلى كل فلا ندري

كيف ترك هذا الكيماوي البعلبكي خدمة الخلفاء الأمويين والتحق بقيصر الروم. وفي الدولة الأموية في ذاك العصر من يحرص على الكيمياء وعلى تفرعات مسائلها مثل خالد وجعفر وجابر ومن أخذ عنهم.

توفي سليمان بن عبد الملك مرابطاً في مرج دابق من أرض قنسرين وأخوه مسلمة مُنازل القسطنطينية. ثم جلس عمر (61 ـ 101 هـ) بن عبد العزيز بن مروان وأبقى ابن عمه مسلمة على حصار القسطنطينية. وتجاوزت عساكر الأندلس إلى وراء جبال البيرينه من أرض فرنسا ليحققوا آمال موسى بن نصير في الذهاب براً إلى القسطنطينية. وكانت مدينة نربون تفوق مرسيليا في العمران وتتصل في البحر الشامي بترعة طولها ثمانية كيلومترات فتدخلها المراكب كما تدخل اليوم حاضرة تونس الخضراء. فحاصرها علقمة بجيوش المسلمين من البر والبحر. وامتد الحصار سنتين لتَحَصُّنها بالمستنقعات وبالقلاع الرومانية.

ثم جلس يزيد (76 ـ 105) بن عبد الملك بن مروان تاسع الأمويين وسادس المروانيين. وفي أيامه دخل علقمة بالسيف إلى نربونة فرمَّمها، وزاد في تحصينها، واتخذها مركزاً لحركاته العسكرية في فرنسا وصار العرب يسمونها أربونة. وافتتحوا ما حولها من القرى والقصبات التي في أرض سبتمانية. وظلوا سائرين حتى دخلو إيالة لانغيدوق وألقوا الحصار على مدينة طولوز (طلوشة)، وكانت إذ ذاك مقر دوق إكيتانيا المسمى أود. فخرج لهم الدوق بجيوشه من الويزي قوط والواسكون والفرانك واقتتلا قتالاً شديداً قتل فيه كثير من الجانبين. وكان علقمة يستشيط غيره وحَمِيّة، ويكر بنفسه، ويشجع الأبطال بكلامه فأصابه سهم قضى به نحبه. وافترق الجمعان وكان ذلك في شهر مايس سنة 721 م وسنة 103 هـ فاستلم قيادة الجيش عبد الرحمن من ذوي الحمية والاقتدار ومن أصحاب عبد الله بن عمر. وانقلب راجعاً إلى ضواحي نربون وإلى مصب نهر الرون.

وفي سنة 105 هـ أو سنة 724 م توفي يزيد بن عبد الملك حزناً على حبابة فجلس على كرسي الخلافة أخوه هشام (70 ـ 125 هـ) بن عبد الملك بن مروان وعيّن والياً على الأندلس عنبسة فأراد الأخذ بثأر سلفه علقمة وتجاوز بالعساكر جبال البيرينه ونزل إيالة سبتمانية. وهي اليوم ولاية البيرينه الشرقية وولاية أود وما جاورها وافتتح مدينة قرقسون وسموها (قرقشونة). وهي في غرب نربون وعلى سكة الحديد الواصلة بين مرسيليا وطولوز وبوردو. وتقدّم عنبسة بالعكسر فجاءه أهل مدينة

نيم وهي في الشمال الغربي من مرسيليا وطلبوا منه الأمان فأَمَّنَهم، ودخل مدينتهم بالصلح وسموها نيمة. وأخذ أبناء أعيانها رهناً على طاعة آبائهم وحفظهم في برسلون (برشلونة) وهي على ساحل البحر الشامي في إيالة قطالونيا المشرفة عليها جبال البيرينه. وتقدّمت جيوش عنبسة على ضفاف الرون حتى دخلت مملكة برغونية وغزت مدينة أتون سنة 107 هـ وسنة 725 م. وفي هذه السنة قتل عنبسة في إحدى المعارك. وبلغ ما غنمه المسلمون في زمن ولايته ضعف ما غنموه في السنين السابقة من بلاد فرنسا.

واستلم قيادة الجيش بعده حديثة ورجع بالعسكر إلى الحدود الإسبانية فلاقى بها المدد الذي بعث به المرابطون في الأندلس فكرّ بهم على بلاد الإفرنج وألقى الرعب في قلوب أهلها. وأوغل في الأرض الشمالية وفي مملكة برغونية. ويزعم مؤرخو الإفرنج أن العرب أكثروا في هذه الحروب من إراقة الدماء وعدم البناء وإحراق الكنائس والأديرة وتخريبها وإتلاف الأموال وغصبها. ومنهم من يعترف بأن العرب أخف وطأة على بلادهم من قبائل الهون الآسيوية الذين أتوهم من الشمال الشرقي تحت قيادة أتيلا ودمروا بلادهم تدميراً. ولم يزل الفرنساويون ينسبون إلى العرب تخريب كل خرابة يشاهد أثرها في الأراضي الجنوبية من فرنسا.

ويظهر من تواريخ الإفرنج أن العرب بعد فتحهم هذه البلاد قسموها إلى إيالات وجعلوا الأرض التي على جانب البيرينه في فرنسا وإسبانيا من جهة البحر الشامي المتوسط ولاية اسمها سيردانية وهي اليوم عبارة عن قطالونيا في إسبانيا وعن ولاية البيرينه الشرقية في فرنسا. وكان الوالي عليها قائداً من البربر مثل طارق بن زياد يسميه الإفرنج مونيزا. فاتفق الدوق أود مع هذا القائد المسلم وزوّجه بنته وعاهده على عدم الغزو في بلاده فأصبح في جبال البيرينه حاجزاً أمام غزاة المسلمين فاغتاظوا من هذا الاتفاق وأظهروا ميلهم لعبد الرحمن الذي كان قد استلم قيادة الجيش بعد قتل علقمة. وكان عبد الرحمن من أصحاب عبد الله بن عمر متخلقاً بأخلاق الخلفاء الراشدين وأكابر الصحابة والتابعين حريصاً على إعلاء كلمة الله وعلى نشر الدين في جميع أقطار الأرض. فكان يجتهد في تحقيق آمال موسى بن نصير والاستيلاء على أوروبا والوصول منها إلى القسطنطينية. فعيّنه الخليفة هشام والياً على الأندلس سنة 112 هـ أو سنة 730 م فدخل بالعسكر مدينة بويسردا وهي عاصمة ولاية سيردانية، وقتل القائد المتفق مع أود، وبعث بزوجته وهي بنت الدوق إلى دمشق. وقيل بل

انتحر هذا القائد المسمى مونيزا خزياً وحياءً. وكانت مدينتا نيم ومون بيليه تابعتين للمسلمين فتقدّم عبد الرحمن بالعسكر إلى ضفاف الرون، وعبر إلى شاطئه الأيسر وألقى الحصار على مدينة آرل فأنجدها الفرنساويون بمفرزة من العسكر. وحميت نار الحرب، وكثر فيها القتلى حتى امتلأ النهر بأجسادهم. ثم سار على ضفاف نهر الرون صاعداً في الشمال وألقى الحصار على مدينة أفيون وافتتحها. وهذه المدينة هي التي صارت في القرن الرابع عشر للميلاد مركزاً للبابوية بدلاً من رومة واستمرت تابعة للباباوات إلى ما بعد الانقلاب الكبير أي لسنة 1791 م.

وكانت فرنسا إذ ذاك في حكم الملوك الذين هم أواخر سلالة ميروفينجيان ويلقبون لبطالتهم وعطالتهم (فينيان) أي الذين لا يعملون شيئاً، بل كانوا يملكون بلا حكم ولا قدرة ويموتون بلا عزّ ولا نصرة كما وصفهم المؤرخون. وكانوا يقيمون في قصر بجوار مدينة قومبينية في شمال باريس وفيها حصلت ملاقاة قيصر الروس في زيارته الأخيرة لفرنسا. فكانوا كأنهم في حبس لا يأتون عاصمة الملك إلا مرتين في السنة: مرة في شهر مارس، وأخرى في مايس لحضور المجلس المؤلف من أعيان الإفرنج أو لملاقاة السفراء. فإذا انعقد المجلس أركب الملك في كارة يجرها ستة رؤوس من فحول البقر لا من عدم وجود الخيل والبغال وإنما للراحة وعدم الانزعاج بكثرة الحركة والجري وأتي به إلى المجلس ليصدق على المقررات التي يتخذها ناظر السراي أو أمير الأمراء وهو في ذاك التاريخ دوق أوستراليا المسمى شارل مارتيل. وكانت بقية الأمراء أشبه بالمستقلين في إماراتهم يبغضون بعضهم بعضاً وكلمتهم متفرقة. ولو دخل عليهم موسى بن نصير سنة 92 هـ حينما افتتح إسبانيا لامتلك أوروبا بأجمعها ولأدخل جميع القبائل الجرمانية الوثنيين في الدين الإسلامي.

غير أن الإفرنج لما سمعوا بظهور العرب ومحاصرتهم القسطنطينية. وكانوا يترقبون ورودهم من شرق أوروبا. فلما رأوهم نازلين عليهم من جبال البيرينه أخذهم الرعب فانضموا بأجمعهم إلى أمير الأمراء شارل مارتل. وكان أشدهم بأساً وأدهاهم سياسة وأحسنهم رأياً وعقلاً. فلم يدر عبد الرحمن بأن الوقت فات على بلاد الإفرنج وأخذ يتأهب لقتالهم وحشد العساكر من الشام ومصر وإفريقية والمغرب وسار بهم من جهة المحيط لا من جهة البحر الشامي المتوسط على سابق العادة في دخول غزاة المسلمين لفرنسا ومرّ بهم من (رونسيفو) وهو ممر ضيق في جبال البيرينه تمر منه جيوش الفاتحين في قديم الزمان وحديثه. ومنه مرّت جيوش نابليون حينما فتح

إسبانيا. ومنه مرَّ فيكتور هوكو في ذهابه لإسبانيا وإيابه منها. فممر رونسيفو واقع بين مدينتي بامبلونه في إسبانيا وبايون في فرنسا. وهي التي سماها العربي «بيونه» ويقطع المسافر منها بالقطار ستين كيلومتراً إلى منتهى الحدود الفرنساوية، ثم يسير على الخيل والعجل 15 كيلومتراً أخرى فيصل حلق الوادي المسمى رونسيفو. فسار عبد الرحمن في هذا الطريق وخرج لأرض غسكونيا التي سموها غشكونية وهي سهول واسعة كثيرة المياه والأحراج والقسم الساحلي منها أشبه بتهامة من جزيرة العرب. ولذا سماها بعض الجغرافيين تهامة الإفرنج. غير أن الوديان التي تسيل في تهامة العرب تبتلعها الرمال المحرقة أما المياه التي تسيل في رمال تهامة الإفرنج التي تدعى (لاند) فتروي أرضها وتكثر عشبها وأشجارها.

فظل عبد الرحمن سائراً في الأراضي المخصبة آمناً على عسكره ودوابه من العطش حتى بلغ نهر غارون المار بطولوز وبوردو عرضه ربما يقرب في بعض الأماكن من عرض النيل. وطول الجسر الذي عليه في مدينة بوردو 487 متراً فهو أطول من جسر القاهرة الذي على النيل نحوماية متر. فلقي عبد الرحمن على ضفاف النهر الدوق أود بما جمعه في العسر من قبائل الواسكون وبقية أهالي أكيتانيا. وانتشب القتال بين الفريقين وكانت معركة شديدة انجلت عن انهزام الدوق وعسكره وتحصنّهم في قلعة بوردو. فلحقهم عبد الرحمن وحاصر المدينة، وفتحها بالسيف وأباح الغزو فيها لعسكره، فكانوا يسمونها مدينة برغشت، وأصبح ما بين مصب نهر غارون في المحيط وما بين مصب نهر الرون في البحر الشامي داراً للإسلام تلقّن فيه الشهادة ويعلّم القرآن. وهذا القسم العظيم من أوروبا قد أصبح اليوم جزيرة بسبب قناة الجنوب التي أنشأها الفرنساويون ويسمونها أيضاً قناة لانغيدوق باسم الإيالة القديمة والبضاعة الواردة من البحر المحيط تدخل نهر غارون وتمر ببوردو، ثم تدخل هذه القناة عند طولوز على مراكب مخصوصة تسير موازية لنهر أود حتى تخرج في شمال نربون للبحر الشامي. وهم يتحدّثون اليوم في توسيع هذه القناة وجعلها صالحة لسير السفن الكبيرة لتمر منها وهي آتية من قناة السويس وتستغني عن المرور في جبل طارق والطواف حول إسبانيا.

فانتشر خبر فتح بوردو في بلاد الإفرنج ودخل الرعب في قلوب الناس، وفرح أكثرهم بفشل الدوق أود لمظالمه؛ لأن المظلومين من الأهالي يفرحون دائماً بنكبة الجبابرة المستبدين الذين يحكمون فيهم ولا يراعون حقوقهم ويسومونهم أنواع

العذاب لمنافعهم وأغراضهم. ولذا كان الكثير منهم يهرعون لعبد الرحمن ويشوقونه للدخول في بلادهم وإجراء العدالة الإسلامية فيما بينهم. أما الدوق أود فلما رأى ذهاب ملكه هضم نفسه، واستجار بقريبه شارل مارتل، وطلب نصرته رغم بغضه إياه لأن الدوق أود - وإن لم يرقَ إلى رتبة ملك - إلا أنه كان مستبداً في اكيتانيا كالملك يفعل ما يشاء، ويختار وهو ذو أصالة وينتسب إلى قلوفيس مؤسس سلالة مير وفينجيان صاحبة السيادة والحق الشرعي في الملك على قبائل الإفرنج وعموم فرنسا، فأصالته كانت فائقة على أصالة شارل مارتل لأن شارل لم يولد من زوجة شرعية وإنما زنى بأمه ببين دوق أوستراسيا فولدته، وكبر حتى خلف والده في مسنده وتغلّب على ملوك أوستراسيا ونوستريا وبورغونيا من آل قلوفيس حفيد ميروفة. وكان في الظاهر أمير الأمراء وناظر السراي الملوكي وفي الباطن صاحب الأمر والنهي في عموم فرنسا سيما بعد استيلاء العرب على مملكة أكيتانيا. فلما استجار الدوق أود بشارل أجابه: «دعهم الآن فإنهم كالسيل الجارف لا يصطدمون بشيء إلا أبادوه. وفيهم حمية تغنيهم عن التدرّع بالدروع وفيهم شجاعة تكفيهم عن التحصّن في داخل القلاع. ولا يزالون على ذلك إلى أن تمتلئ أيديهم بأموال الغنائم فإذا تنعّموا بنعيم الدنيا وذاقوا لذائذ الحياة وقع الطمع في رؤسائهم فانقسموا وتفرّقوا فحينئذ نهاجمهم ونخرجهم من ديارنا». وكان الأمر كما قال. فإن عبد الرحمن بعد فتحه بوردو رأى الأهالي مائلة إليه ووعدوه بالتسليم والانقياد وشَوَّقه بعض رؤسائهم إلى فتح توروبوانيه لما فيها من الأموال والخيرات. لأن البلاد لم تكن في ذاك الوقت غنية ومعمورة كما هي اليوم. وإنما الأموال والخيرات كانت مذخرة في الكنائس والأديرة وقصور الحكام الجبابرة. فتجاوز عبد الرحمن بالعسكر نهر غارون ووطئ بخيله ورجله تلك الأراضي المخصبة والكروم التي يعصر فيها أحسن خمر في الدنيا. وعبر نهر دوردونيا وهو يجتمع في نهر غارون بقرب بوردو ويسميان حينئذ نهر جيروند كما يجتمع الفرات ودجلة ويقال لمجتمعها شط العرب. ويصب لاجيروند في المحيط الغربي عند مدينة روايان الشهيرة بحماماتها البحرية والتي ينسب إليها سمك روايان المشابه للسردين. وتسمى ضفة لاجيروند اليسرى من بوردو إلى البحر أرض ميدوق وفيها شاتولافيت، وشاتولانور، وشاتومارغو، وجميع كروم العنب والقصور التي يعصر فيها أطيب الخمر وتتلى أسماؤها المتنوعة على الزجاجات التي تباع في أوتيلات الأزبكية، وتفتح على موائد أعاظم الرجال. وعلى شاطئ نهر غارون قبل دخوله بوردو أرض سوتين وفيها شاتوابكيم وبقية القصور

التي تعصر فيها الخمر البيضاء التي تشرب في أوائل الطعام عند أكل لحوم السمك.

ولما وصل عبد الرحمن مدينة أنكوليم وجد جيشاً من الإفرنج ففرق جميعهم، ودخل المدينة منصوراً ظافراً. وفي غربها مدينة كونياك المنسوب إليها خمر الكونياك المعروف. وظل عبد الرحمن سائراً بعساكره المظفرة في تلك المروج والغابات الكثيرة المياه. وكانت كجنات تجري من تحتها الأنهار بالنسبة لصحارى إفريقية ولجزيرة العرب. والفرسان ترتع وتلعب على خيولها ومعهم نساؤهم وأولادهم حتى وصلوا مدينة بواتيه ففتحت لهم أبوابها. ويزعم مؤرخو الإفرنج أن العرب سلبوا ما في كنيستها من أواني الذهب والفضة والأقمشة المزركشة. والمنصفون من هؤلاء المؤرخين يعترفون للعرب بالعدل والحق والرفق بالمغلوبين. ثم عبر عبد الرحمن نهر فينا المار بإيالة فينا وهي التي مركزها بواتيه بخلاف فينا عاصمة النمسا التي حاصرها الأتراك وأقاموا عساكرهم المظفرة على أبوابها. وفي جنوب إيالة فينا إيالة أخرى يقال لها فينا العليا ومركزها ليموج. وما زال عبد الرحمن يتقدم حتى وصل مدينة توروهي على نهر لوار المنصب في المحيط. وألحق أكثر من نصف فرنسا بممالك الدولة الأموية الحاكمة إذ ذاك على الهند وما وراء النهر إلى كاشغر والصين وتركستان. وكان الفاتح لها سنة 119 هـ أسد بن عبد الله القسري. فإنه أدخل المسلمين بلاد الترك وقتل ملكهم خاقان، وغنموا شيئاً كثيراً.

فمنتهى الحدود التي وصل إليها العرب في أوروبا هي نهر لوار ومدينة تور. وفي شرقيهما مدينة ديجون ثم مدينة بزانسون. والخط المار بهذه النقط يقسم فرنسا إلى قسمين: شمالي، وجنوبي. فالجنوبي بأجمعه دخل في ملك المسلمين، وأقاموا في بعضه قليلاً وفي بعضه كثيراً، واستسلموا كثيراً من أهله، وتزوجوا ببناتهم وأعقبوا منهم. ولم يزل لأهل الجنوب من الفرنساويين شبه بالعرب في سيماء الوجوه.

قال المؤرخ الإنجليزي جيبون في ذكر حوادث سنة 742 م: «تقدم العرب في أوروبا أكثر من ثلاثمائة مرحلة Ligues من صخرة جبل طارق إلى مصب نهر لورا كلها مظفريات. ولو تقدموا ثلاثماية مرحلة أخرى لوصلوا حدود بولونيا في شرق أوروبا أو جبال أيقوس من إنجلترا، ولسهل عليهم عبور نهر الرين المار بألمانيا، كما سهل عليهم عبور الفرات والنيل، ولكان الأسطول العربي من جهة أخرى دخل نهر التيمس بلا محاربة بحرية ـ لعدم وجود أسطول إنجليزي في ذاك الوقت يضاهي أسطول مصر وسوريا أو أسطول تونس ـ ولرأينا اليوم العلماء يفسرون القرآن في مدارس أكسفورد،

ويفقهون أفراد أمة الإنجليز المختتنين، ويشرحون لهم وهم مرتفعون على كراسي الوعظ معجزات النبي العربي. فالذي خلص العالم المسيحي من ذلك هو ابن الزانية شارل مارتيل ناظر سراي الملوك الفرنساويين من سلالة مير وفينجيان». آ هـ.

وذلك أن شارل المذكور لما رأى المسلمين لم يبق بينهم وبين باريس إلا 234 كيلومتراً حشد اليه العساكر الجرارة من القبائل الشمالية الألمانية. وهم يمتازون عن سكان الإيالات الجنوبية في فرنسا بطول القامة وزرقة الأعين وشقرة اللون وبالصبر في الحرب والمهارة في الطعن والضرب. ولم يزالوا متصفين بهذه الأوصاف إلى يومنا هذا. ولذا اختار مقام السر عسكرية العثمانية المعلمين للمكاتب الحربية في الأستانة مثل غولج باشا وقبله مولتكه باشا مرتب حركات الجيش في حرب السبعين الفرنسوية.

وكان عبد الرحمن نازلاً بالعسكر أمام مدينة تور في الوادي الذي يجري فيه نهر لوار، ويحيط به سلسلتان من التلال تتقاربان كلما قربتا من المدينة. فبغت شارل مارتيل المسلمين وهم في هذا الموقف الحرج وحاربهم من أعالي التلال. وانتشب القتال بين الفريقين. وأظهر عبد الرحمن من المهارة في حركات الجيش وسوق الفرسان ما حيّر أخصامه. واضطر أخيراً على الخروج من ذاك الموقع الضيّق والرجوع إلى سهول بواتيه. وفيها التقى الجمعان واصطف الجيشان في محل لم يزل يقال له إلى (موسه ـ لا ـ باتايل) ويراه المسافر من بوردو إلى باريس في القطار الحديدي على بعد عشرين كيلومتراً عن بواتيه شمالاً أي على الضفة اليمنى لنهر كلين المنصب في نهر فينا المنصب في نهر لوار. واستمر الفريقان بضعة أيام على أهبة الحرب والطعان وشارل لا يجسر على الهجوم خدعة منه وحذراً، ففتح عبد الرحمن الحرب وأنزل للميدان مفرزة من فرسانه ودام القتال ستة أيام والنصر فيها للمسلمين. وفي اليوم السابع هجمت عساكر شارل هجمة اليأس والقنوط على مكان الحريم والغنائم فشغلت أفكار المسلمين على أموالهم وعيالهم. وقتل عبد الرحمن على رواية مؤرخي الإفرنج بعد مقاومة شديدة. وكان ذلك في شهر تشرين أول سنة 732 م وسنة 114 هـ ورجعت بقية السيوف من أهل الإسلام لا عن طريق رونسيفو بل عن طريق طولوز وقرقشون ونربون لرسوخ قدمهم في تلك الجهات. ولحقهم شارل مارتل، واسترجع مدينة أفينيون، ولم يقدر على استرجاع نربون فهدم ما في شمال نهر أود من الحصون والقلاع وصيره قفراً لكيلا يطمع فيه العرب. وقد نظم أحد شعراء الفرنساويين المسمى (قارل دوسنت غارد) في حدود سنة 1684 ديواناً عنوانه «إخراج العرب من فرنسا» وجعل فيه البطل المغوار

في هذه الحروب شيلوبراند أخ شارل مارتيل، فنكت عليه الشاعر بوالو وجهله على مدحه بطلاً لم يحقق التاريخ وجوده بين أبطال تلك الحروب.

فاشتهر شارل في البلاد وصار الناس يتحدّثون به في فرنسا وإيطاليا وعموم أوروبا ويروون عن شجاعته أحاديث ملفقة. ويزعمون أن بطلته أو فأسه المسمى مارتو أو مارتل قتل بها ما يربو على ثلاثمائة ألف من العرب. غير أن واقعة بواتيه على التحقيق لم يكن فيها تغلغل كبير على عساكر الإسلام ولو بقي في شارل بعدها قوة لأخرجهم من ناربون ورمى بهم إلى ما وراء جبال البيرينه وحصن منافذ الجبال وجعلها مانعة لهجومهم ولكنه لم يستطع ذلك. واستمر العرب في جنوب فرنسا حقبة من الزمان سيما في أطراف مرسيلية. ولم نزل نشاهد في متحف نربون كثيراً من آثارهم وأوانيهم الخزفية. وإليهم تنسب (جبال المور)[1] وهي في شمال طولون ومارسيليا.

كما نسبت إليهم قسطل سارازين وهي مدينة بين بوردو وطولوز والقسطل هو الحصن أو القلعة. ولم يزل في ضواحي القدس قرية يقال لها القسطل. فقسطل سارازين معناها حصن العرب. وقيل غير ذلك والله أعلم.

وكان هشام بن عبد الملك عاشر الخلفاء الأمويين قد عيّن على أفريقية عبيدة بن عبد الرحمن بعد استشهاد واليها بشر بن صفوان الكلبي في فتح صقلية. وهي جزيرة سيسليا التابعة اليوم لإيطاليا. غير أن ولاية عبيدة لم تطل بل عزل ونصب مكانه عبيد الله بن الحبحاب وهو الذي زيّن تونس بالمباني الفاخرة، وأنشأ في ساحلها دار صناعة للسفن أي (ترسانة) كما يسميها الأتراك أو (شانيه) كما يقول الإفرنج. فلما بلغ عبيد الله وفاة عبد الرحمن في واقعة بواتيه بعث والياً على جزيرة الأندلس عبد الملك بن قطن فأصلح حال الجيش وزوّده وساقه على فرنسا سنة 117 هـ سنة 735 م فاسترد الإيالات الجنوبية التي في أطراف نربون وقرقسون وعلى ضفاف أود، وعبروا نهر الرين، وضبطوا إيالة بروفانس بأجمعها سنة 120 هـ أو سنة 737 م من حاكمها مورونت ومركزه إكس في شمال مرسيليا. وظلّوا سائرين على سواحل البحر الشامي حتى دخلوا إيطاليا وأغاروا فيها على مملكة لومبارديا التي عاصمتها ميلان. فاتفق

1 - يسمي الإفرنج عرب إسبانيا مور (Maurs) نسبة إلى موريتانيا القديمة وهي عبارة عن تونس والجزائر ومراكش ويسمونهم أيضاً (Sarrasins) سارازين. واختلفوا في أصل هذه الكلمة فقال بعضهم من (سارقين) العربية وآخرون بل نسبة إلى (سارا) زوجة إبراهيم الخليل عليه السلام لأنهم أولاد جاريتها (هاجر) أم إسماعيل جد العرب. وقال غيرهم إنها تحريف شرقيين.

ملكها لوي بران مع المتغلّب على ملك الإفرنج وهو شارل مارتيل دوق أوستراسيا وناظر السراي الملوكية، وأرجعا العرب إلى قرب جبال البيرينه سنة 122 هـ أو سنة 739 م. ولم يقدروا على إخراجهم من نربون ولا من قرقسون.

ثم إن عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية عَيَّنَ عقبة بن الحجاج على الأندلس، فحضر إليها واستلم زمام الأمر فيها فحصلت فتنة، وتغلب عليه عبد الملك بن قطن الفهري. فذهب عبقة بن الحجاج إلى قرقسون في فرنسا وكانت عامرة بالمسلمين وبقي هناك إلى أن مات ودفن في تربة قرقسون. فغضب هشام وعزل عبيد الله وولى مكانه كلثوم بن عياض، والياً على إفريقية، وبعث معه اثني عشر ألف فارس من فرسان الشام يقودهم بلج بن بشر. فقتل كلثوم في المغرب الاقصى في واقعة جرت له مع البربر ودخل بلج بن بشر بعسكره جزيرة الأندلس، وقاتل عبد الملك بن قطن، وتولى مكانه. فبعث هشام لأفريقية حنظلة بن صفوان الكلبي والي مصر فجاء القيراون سنة 124 هـ أو سنة 741 م، وأصلح ما فسد في قبائل إفريقية والغرب الأقصى، وبعث أبا الخطار الكلبي والياً على الأندلس فورد إليها ونزل قرطبة وفرّق عساكر الإسلام في البلاد فأنزل الدمشقيين في البيرة (الويره) وهي الولاية التي عاصمتها غرناطة. وتكثر فيها المياه والغوطات والرياض. ومدينة غرناطة مبنية على ثلاث تلال يمر من وسطها نهر حداره (دارو) النصب في نهر شنيل وهو ينصب في الوادي الكبير (غواد الكفير) المار بإشبيلية. ولذا دعاه العرب نهر إشبيلية. وفي غرناطة قصر الحمراء الشهير وغرناطة في جنوب مادريد وعلى خط الطول المار منها. وأما خط الحديد بينهما فمسافته 696 كيلومتراً ولذا أطلق على البيرة وغرناطة دمشق. وأنزل الحمصيين في إشبيلية (سفيلة). ويمر منها الوادي الكبير وفيها القصر المشهور عند الإفرنج باسم (القازار). وكان داراً لملك بني عباد. ولذا أطلق على إشبيلية حمص. وأنزل أهل قنسرين على ضفاف الوادي الأبيض (غواد لفياد) المنصب في البحر الشامي قرب بلنسية فأطلق على تلك النواحي قنسرين. وأنزل أهل الأردن في مالقة (مالاغه) وهي على ساحل البحر الشامي شرقي جبل طارق ويمر منها (وادي المدينة) وإليها ينسب الخمر المعروف باسم (مالاغه). وأنزل أهل فلسطين في سيدونيا أي مدينة شريش (إكسيرس) وما جاورها. وهذه المدينة بالقرب من قادس على مسافة 22 كيلو متراً عن البحر المحيط. وإليها نسب كثير من الأدباء فقيل لهم الشريشي. ومنهم شارح المقامات وكتابه مطبوع في مصر. وينسب إليها اليوم الخمر المشهور

باسم (شري) و(إكسيرس). وفيها فاز طارق بن زياد على رودريك ملك القوط، وشتّت عساكره، وأخذ ملكه.

وأنزل أبو الخطّار الكلبي المصريين في تدمير وهي الإيالة المشتملة على مرسية وهي على نهر سفوره تبعد على ساحل البحر الشامي المتوسط بين البحور 35 كيلومتراً بجانبها سهول هوثرته المشابهة لوادي النيل في بركة المحصول وقوة الإنبات. ولذا أطلق عليها مصر. ولم يزل فيها بقايا الترع العربية والقنوات. وبينما كان المسلمون في الأندلس ينظمون شؤونهم ويستعدون لفتح بلاد الإفرنج ونشر الدين الإسلامي فيها ظهر الفساد في دمشق عاصمة الممالك الإسلامية ودار خلافتها واختلت أمور الدولة بعد وفاة هشام وجلوس الوليد (84 ـ 126 هـ) بن يزيد بن عبد الملك بن مروان حادي عشر خلفاء بني أمية. وجلس بعده في تلك السنة يزيد (80 ـ 126 هـ) بن الوليد بن عبد الملك ثم أخوه إبراهيم. ثم رابع عشر خلفاء بني أمية وآخرهم وهو مروان الحمار (70 ـ 132 هـ) بن محمد بن مروان بن الحكم. ولم ينتظم الأمر ولو لواحد منهم بعد موت هشام ولا سكنت الفتن في أيامهم. ولذا لم تتقدم الفتوحات في بلاد الإفرنج.

11

داخلية أوروبا بعد رجوع العرب عنها

أما فرنسا فاستيقظت بسبب هذه الحروب من غفلتها، واجتمعت كلمتها على شارل مارتل ناظر سراي الملوك من آل قلوفيس حفيد ميروفة. فاستبد بالأمر وصار الآمر الناهي في المملك، وزال نفوذ الملوك من سلالة مير وفينجيان وأصبحوا كالخلفاء العباسيين في آخر أمرهم. ولم يستطع شارل مارتل أن يملك على الفرنساويين لشدة ظلمه وسوء سيرته وتعديه على أملاك الأديرة والرهابين، ولكنه هيأ الملك لولده ولحفيده من بعده. وأما هو فلم يُرضِ بعمله المسلمين ولا النصارى لأنه ضبط أوقاف الأديرة والكنائس ليجهز العساكر ويقوم بنفقات هذه الحروب العظيمة فأغضب بذلك الأساقفة والرهابين المتمتعين بهذه الأموال فلم يغفروا له هذه السيئة وأغمضوا العين عن جميع حسناته عليهم. وحكموا في مجتمعهم الرهباني (قونصل) في فرنسا بكفره وأدخلوه في نار جهنم. ورآه أحد أوليائهم بعين الكشف وهو يعذّب في النار والأفاعي تنهش من جثته المنتنة. فشارل مارتل واضع أساس الدولة الثانية في ملك الإفرنج لم يرض عنه المسلمون ولا النصارى.

ولما مات[1] قام بالأمر بعده ابنه ببين القيصر وحارب قبائل الجرمان في ألمانيا

1 - نقلنا هذه الخلاصة التاريخية عن كتاب «بلاد العرب» الفرنساوي تأليف نوئيل ديفرجه (Noel desverg-ers) المطبوع في باريس سنة 1847 ونقل هو عن المستشرق (Renaud) مؤلف كتاب «هجوم العرب على فرنسا» المطبوع سنة 1836 في باريس واعتمد في ما كتبه على تواريخ العرب المحفوظة في المكتبة الأهلية وكانت تسمى قبلاً المكتبة الملوكية ولا سيما على «تاريخ المقري» وعلى تاريخ النويري» وغيرهما.

وقبائل اللومبارد في إيطاليا، وكانوا معادين للباباوات في رومة، فاكتسب بذلك نفوذاً وقوة، وانتخبته قبائل الإفرنج ملكاً عليها. وأمر البابا بدهنه بالزيت المقدس وتتويجه فدهنه وتَوَّجَه القديس بونيفاس أسقف مايانس سنة 752 م، وانقرضت دولة مير وفينيجان بعد أن ملكت (448 ـ 752م) ثلاثة قرون. وسميت الدولة الثانية قارلوفينجيان نسبة إلى شارلمان بن بيبن القيصر وحفيد شارل مارتل وملكت الدولة الثانية (752 ـ 987) قرنين ونصف قرن تقريباً. وفي سنة 760م أو سنة 4143 هـ أغار ببين القيصر على بلاد المسلمين واسترجع منهم نربون وجميع إيالة سبتمانيا. فلم يستطيعوا الدفاع عنها لاشتغالهم بما حدث عندهم من الانقلاب العظيم بسبب سقوط الدولة الأموية وقيام الدولة العباسية مقامها. فقتلوا بني أمية، واستخفى من سلم منهم فهرب عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان بن الحكم، ودخل الأندلس سنة 139 هـ أو 25 أيلول (سبتمبر) سنة 759 م فأطاعه بعض المسلمين فيها، واستولى على إشبيلية، وجعل قرطبة دار المملكة، وأخضع لحكمه جميع جزيرة الأندلس، ونكَّلَ بالمتشيعين منهم للخلفاء العباسيين ـ فليفهم السبب الذي مكن الإفرنج من استرجاع نربون وقرقسون.

ولما مات ببين سنة 768 م أو سنة 151 هـ جلس مكانه على كرسي ملك الإفرنج ابنه شارلمان (سنة 742 ـ 814 م). ومعناه شارل الكبير فنسبت إليه السلالة الثانية من سلالات ملوك الإفرنج وقيل لها (قارلوفينجيان) أي آل قارلو لأن اسم شارل يلفظ بصورة مختلفة حسب اللغات واللهجات. فالألمان يلفظونه قارل وعند الإسبانيول قارلوس وعند الإنجليز جارلس بالجيم الفارسية. ففتح شارلمان ممالك لومبارديه وعاصمتها ميلان وهي القسم الشمالي من إيطاليا وكان بين ملوكها وبين باباوات رومة ضغائن وعداوة، فامتن البابا من ذلك وبارك شارلمان ورضي عنه، ثم فتح بافاريه وساقسونيا. وهما من مماليك ألمانيا. وأخضع إيالة أكيتانيا التي كانت ميداناً ترمح فيه غزاة المسلمين. فجمع شارلمان في حكمه بين فرنسا وألمانيا وإيطاليا، ومزج الأقوام الجرمانية بالأقوام الرومانية الذين كانوا في حكم دولة الرومان.

ولما تولى شارلمان كان مشتركاً في الملك مع أخيه اتباعاً للقواعد المرعية في ذاك الزمان وهي تقسيم الملك بين الأولاد. ففي سنة 771م استقبل بالملك، وجعل عاصمته إكس لاشابل وهي على نهر الرين في ألمانيا، وزينها بالمباني والقصور. ولذا يعتبره الألمانيون في عداد ملوكهم كما يعتبره الفرنساويون. وفي سنة 778 م وسنة 162

هـ تجاوز شارلمان بعساكره جبال البيرينه من ممر رونسيفو الذي مرّ منه عبد الرحمن حينما فتح بوردو وبوانيه وتور. ومرَّ منه قبلاً هنيبال القائد القرطاجني حينما قهر الرومانيين، هو ممر صعب في جبال البيرينه قريب من البحر المحيط. ولذا لم يرجع العرب منه بل كانوا يتجاوزون على فرنسا من جهة البحر الشامي عن طريق (بويسيردا) و(نربون)، فضبط شارلمان ولاية نافار وولاية قطولونيا، وتقدم على ضفاف ايبر حتى بلغ مدينة سرقسطة مركز ولاية أراغون وألقى الحصار عليها وكانت بيد المسلمين. فبعث إليه عبد الرحمن الأول سنة 113 ـ 171 هـ (731 ـ 787 م) الملقب بالعادل. بجيش منظم طرد عساكر شارلمان من إسبانيا وأرجعها إلى ما وراء البيرينه. وكان المسيحيون من النفاريين والواسكون أي الباسك متفقين مع المسلمين حباً في العدل الإسلامي وكرهاً في ظلم شارلمان لوطئه بالعسكر بلادهم وقتله رجالهم وأولادهم. ولذا رجحوا الاتفاق مع المسلمين مع أنهم على غير دينهم، وانتقموا من شارلمان وجنوده وهو يدين بما هم يدينون به:

والدين إنصافك الأقوام كلهــم — وأي دين لآبي الحق إن وجبا
والمرء يعييه قود النفس مصحبة — للخير وهو يقود العسكر اللجبا

فلما ارتدت جنود شارلمان على عقبها خاسرة اغتنم أهل نافارا وغسكونيا المسيحيون هذه الفرصو وانقضوا عليهم وهم في ممر رونسيفيو وأبادوهم عن آخرهم. وقتل في هذه المعركة رولان قائد الجنود البريطانية نسبة إلى إيالة بريطانيا في غرب فرنسا ورفيقه أوليفية، ونظمت في هذه الواقعة أغاني رولان الآتي ذكرها. وهي عند الفرنساويين كقصة عنتر، لا بل كقصة بني هلال أو الزير. واسترد عبد الرحمن العادل وهو المعروف بالداخل ولاية أراغون وقطالونية، واسترد ابنه هشام (140 ـ 180هـ) مدينة جيرونيه ونربون وجميع إيالة سبتمانيا سنة 792م (سنة 176 هـ) واستخدم الأسرى في بناء جامع قرطبة. وكان أبوه قد باشر عمارته فنصّب شارلمان ابنه لويس ملكاً على إكيتانيا، وأمره بمحاربة العرب. فكانت بينهما حروب على سفح جبال البيرينه من سنة 180 هـ (796 م) وهي السنة التي توفي بها هشام وجلس فيها ابنه الحكم خلفاً له، وخرج عليه عمّاه سليمان وعبد الله ابنا عبد الرحمن، وتحاربوا مدة. وكان النصر للحكم على عمّيه. ودامت الحروب مع الإفرنج إلى سنة 197 هـ (812 م) وأخذ الإفرنج في هذه الحروب ولاية نافارا وسبتمانيا وجزءاً من قطالونيا

وهو المشتمل على مدينة برشلونة التي على ساحل البحر الشامي. فشارلمان لم يتمكن من إسبانيا ولكن حكمه كان نافذاً في عموم أوروبا الغربية. وكان البابا وعموم الكهنة يميلون إليه، ويرغبون في إعادة نفوذ إمبراطورية الرومان الغربية ليضاهوا بذلك الإمبراطورية الشرقية القائم بها قياصرة الروم ويحصلوا على العزّ الذي حصل عليه بطاركة القسطنطينية وكهنتها المنشقون؛ ولذا دهن البابا شارلمان بالزيت المقدس وألبسه تاج الإمبراطورية في آخر القرن الثامن أي سنة 800 م (سنة 184 هـ).

وكانت الخلافة العباسية في بغداد قد بلغت منتهى العز وأوج الرفعة على عهد الرشيد، فأخذ شارلمان يتقرّب منه وبعث إليه بسفارة مؤلفة من سفيرين فرنساويين يصحبهما يهودي اسمه اسحق. وكان الخليفة يحارب قيصر الروم فرأى من السياسة التمايل إلى الإفرنج أعداء الأمويين فأحسن ضيافة الوفد الإفرنجي، وأكرم مثواه، وأجاب طلبه بالرخصة لحجاجهم في زيارة بيت المقدس، وبعث إلى شارلمان بهدية فاخرة منها سرادق كبير من الحرير وساعة دقاقة وشطرنج لم يزل بعض أحجاره محفوظة في المكتبة الأهلية بباريس. وهي من العاج دقيقة الصنع والقطعة منها كبيرة الحجم. وكان ذلك قبل موت الرشيد بسنة أي في سنة 192 هـ (807 م) وتوفي شارلمان بعد ذلك بسبع سنين أي سنة 814 م، وجلس في مكانه ابنه لويس إلى سنة 840م ثم انقسمت المملكة إلى ثلاثة أقسام ألمانيا وفرنسا، وإيطاليا، وضعف حال ملوك فرنسا وهجم عليهم الأقوام الشمالية الذين يسمونهم نورمان من بلاد اسوج ونروج والدانمارك، وأسّسو في شمال فرنسا دوقية نورماندية. وانقسمت المملكة إلى دوقيات وكونتات. وكان حكامها أشد نفوذاً من الملك. وصارت السلالة الثانية من سلالات ملوك الإفرنج إلى ما صارت إليه السلالة الأولى فاستبدّ بالأمر دوق فرنسا كما استبد قبله دوق أوستراسيا. وفعل هوغ قابت ما فعله ابن شارل مارتل، وأحدث السلالة الثالثة في مملكة الإفرنج وهي سلالة قابتيان. وملكت هذه السلالة من سنة 987 م إلى سنة 1428 م وفي زمنها ظهرت فرنسا للوجود وسميت مملكة فرنسا نسبة إلى هوغ قابت دوق فرنسا. وانتقل الملك بعد ذلك إلى فرع ثان من تلك السلالة وهو المسمى فالوا ثم إلى فرع ثالث وهو آل بوربون.

12

فتوح المسلمين في جنوب أوروبا والحروب الصليبية

ثم إن المسلمين عدلوا عن فتح فرنسا. ولعلهم فعلوا ذلك لشدة البرد في الأقاليم الشمالية وعدم توسع العمران فيها إذ ذاك ولصعوبة المرور من جبال البيرينه وهي أشد برداً من جبال لبنان التي يقول المتنبي فيها:

وجبال لبنان وكيف بقطعها   وهي الشتاء وصيفهن شتاء

ومالوا إلى فتح جزر البحر الشامي فاستولوا على جزائر باليار وهي مايورقة ومينورقة، وأفبس، وما يتبعها سنة 820 م (سنة 205 هـ) وكانوا يسمونها (مايرقة) و(منرقة) ويابسة. واستمروا فيها إلى سنة 1232م، واستولوا سنة 226 هـ على جزيرة قورسيقة فبقيت مستقلة عن غيرها بالحكم إلى سنة 236 هـ (850 م) وأغاروا على سواحل مرسيليا مراراً، وأسسوا سنة 276 هـ (889 م) مستعمرة فراقسينة فيما بين وينيس وطولون. وكان الفينيقيون أسسوا قبلهم مستعمرة في جوار موناقو. ومكث المسلمون في فراقسينة طول القرن العاشر، وتزوج بعضهم بنساء تلك الإيالة الفرنساوية، واشتغلوا بفلاحة أرضها حتى أصبحت زاهية بحضارتهم. ثم جالوا سنة 324 هـ (935 م) في إقليمي تارنتيزه ووالس ثم في بلاد السويس (سويسرا) التي نهبها

المجر قبل ذلك، ومدوا نفوذهم سنة 331 هـ (942 م) على فريجوى وطولون وجميع سواحل البحر الشامي في فرنسا. ولم يزل يقال للجبال التي في شمال مرسيليا وطولون (جبال المور)، ومدوا نفوذهم على إيطاليا أيضاً. فإن بني الأغلب استولوا على جزر سيسيليا (صقلية) ومالطة وسردانية وجميع القسم الجنوبي من إيطاليا في حدود سنة 213 هـ (828 م) إلى سنة 265 هـ (878 م)، ورسخت لهم قدم في جميع هذه البلاد، واستبحر فيها عمرانهم، وحسنت بهم الزراعة والصناعة. وكانت مدينة أمالفي ومدينة ساليرم وهما في جنوب نابولي (وكتبوها نابل) زاهيتين بحضارتهم وهما اليوم قريتان خربتان لم يزل يُشاهَد فيهما آثار العرب وبقايا الطواحين التي عمروها ولسان الحال يقول: إن آثارنا تدل علينا فانظروا بعدنا إلى الآثار. واستولوا على أوستيه وكانت مينا رومة العظمى وهي بقرب مصب نهر التيبر وعلى بيزا ذات البرج المائل. وكانوا يسمونها (بيش)، وعلى جنوه التي في شمالها. وبقي المسلمون في جزيرة (سردانيه) سردينية إلى سنة 408 هـ (1017 م) وفي طارانت التي في جنوب إيطاليا إلى سنة 396 هـ (1005 م) وفي جين (جنوه) إلى سنة 325 هـ (936 م) (انظر خريطة مملكة العرب في أطلس شرادر الفرنساوي المطبوع في باريس).

واختلف المؤرخون في التاريخ الذي أغار فيه العرب على ليون وما في شمالها من الإيالات الفرنساوية ـ لا ليون التي في شمال إسبانيا الغربي وتكتب (Leon) ويكثر ذكرها في تواريخ العرب ـ هل كان في عهد شارل مارتل فقط أم في عهده،و وبعد ذلك أيضاً حينما دخلوا من سواحل طولون وتقدّموا في الشمال حتى بلغوا بلاد السويس؟ ولكن المؤرخين متفقون على أن المسلمين ضبطوا إيالة دوفينة وهي في شمال بروفانس على ضفة الرون اليسرى وضبطوا في شمالها إيالة بورغونية وسموها (أرض بورغونة) وإيالة فرانش كونتة وإيالتي فينا ـ وفينا هذه إيالة في وسط فرنسا الغربي بخلاف سميتها عاصمة أوستريا والمجر وكان حاصرها الأتراك ـ وضبطوا في فرنسا جميع ضفاف الرون وغزوا القرى والمدن التي في تلك الإيالات. وأمهات هذه المدن هي: ليون وهي على نهر الرون وأول مدينة في فرنسا بعد باريس، ثم ماقون وإليها ينسب الخمر المسمى باسمها من خمور بورغونيه، وشالون على نهر السون، وبون وسماها العرب (بونة)، وأوتون. واحترقت فيها كنيستان عظيمتان حينما هاجمها العرب: كنيسة سان ناظير، وكنيسة سان جان، وكذا دير سان مارتن، وديجون وهي منتهى ما أخذوه في الشمال من المدن العظيمة وفي شرقي ديجون وبالقرب من

مدينة بيزانسون التي ولد فيها فيكتور هوكو، وجميع هذه المدن هي في ممر السكة الحديدة من باريس ـ ليون ـ البحر المتوسط أي مرسيليا وما جاورها من الموانئ البحرية. ولم يجد العرب أموالاً كثيرة في غزواتهم لأن البلاد لم تكن في الثروة والعمران التي هي عليها اليوم، ولكن مقصدهم الأصلي كان إعلاء كلمة التوحيد ودعوة الأمم بقولهم {تَعَالَوْا إِلَى كَلِمَةٍ سَوَاء بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلاَّ نَعْبُدَ إِلاَّ اللّهَ وَلاَ نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلاَ يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللّهِ}[1].

الحروب الصليبية

فجميع الحروب التي وقعت بين المسلمين والنصارى من ابتداء ظهور الإسلام بمكة وفتح المسلمين للقدس على عهد ثاني الخلفاء الراشدين هي من نوع الحروب الصليبية. إلا أن المؤرخين اصطلحو على اطلاق هذا الاسم على الحروب التي وقعت بين المسيحيين من الأمم الأوربية وبين المسلمين من الأمم الشرقية، وامتدت من القرن الحادي عشر إلى القرن الثالث عشر للميلاد. وكان الباعث عليها التعصب الديني والغاية منها تخليص قبر السيد المسيح عليه السلام. واتخذ المحاربون من الأمم الأوربية الصليب شعاراً لهم ونقشوه على أثوابهم وجلودهم. ولذا قيل لهم الصليبيون. وعدد الحروب الصليبية ثمانية وهي:

الأولى (1096 ـ 1099م): الحرب التي دعا إليها بطرس الناسك وقرر إجراءها البابا أوربين الثاني في المجمع الروحاني المنعقد سنة 1095م في مدينة كليرمون فيران وهي بالقرب من مدينة ليون في فرنسا. وكانت النتيجة إرسال جيشين للشرق أحدهما تحت قيادة بطرس الناسك والقائد غوتيه. وكان مؤلفاً من ناس لا خبرة لهم في الحرب ومعهم نساؤهم وأولادهم بغير تأهب للسفر، فمات أكثرهم في الطريق. وقتل آخرهم السلجوقيون في بر الأناضول. والثاني جيش متأهب للسفر ومتسلح للحرب تحت قيادة غودوفروا دوبوليون دوق إيالة اللورين. عبروا بوغاز الدردنيل، واستولوا في بر الأناضول على ازنيق وطرسوس وهي مينا أطنة، وعلى انطاكية. وكانت هذه المدن تابعة للدولة السلجوقية ومركزها قونية. ثم استولوا على القدس وكانت تابعة لخليفة

1- سورة آل عمران آية (٦٤)

مصر العلوي وقتلوا فيها كثيراً، وألبسوا غودوفرا تاج الملك. وذهب المستنفرون إلى بغداد فلم يستطع أهلها غير البكاء. وقال المظفر الايبوردي أبياتاً منها:

وكيـف تنـام العين مـلء جفونهـا | عـلى هفـوات أيقظـت كـل نائم
وأخوانكم بالشام يضحى مقيلهم | ظهور المذاكي أو بطون القشاعم؟

الثانية (1147 ـ 1149): الحرب التي دعا إليها القديس برنار وقادها قونراد الثالث إمبراطور ألمانيا ولويس السابع ملك فرنسا فوصلوا دمشق الشام وحاصروها ورجعوا عنها.

الثالثة (1189 ـ 1193): الحرب التي دعا إليها غليوم أسقف صور بسبب استرداد صلاح الدين الأيوبي للقدس. وقادها فريدريك باباروس إمبراطور ألمانيا من جهة وفيليب أوغست ملك فرنسا وريشار قلب الأسد ملك إنجلترة من جهة أخرى. فالأول غرق في النهر بعد أخذه قونية. والآخران أخذا قلعة عكا، وعقدا الصلح مع صلاح الدين.

الرابعة (1202 ـ 1204م): الحرب التي دعا إليها فولك وقادها بغدوين وهو بودوين التاسع كونت إيالة فلاندر. وكانت إيالة مستقلة بين فرنسا وبلجيكا. فلما وصلت هذه البعثة إلى فينيسية (البندقية) استدعاها قيصر الروم في القسطنطينية لنصرته على أخيه. وكان قد أراد التغلب عليه فأجابت دعوته وأيدته على كرسي مملكته. وبعد وفاته انتخب الصليبيون مكانه بودوين المذكور بعد أن خربوا المدينة وأتلفوا ما فيها من الآثار النفيسة والمباني الظريفة. واستمرت دولة اللاتين في القسطنطينية 57 سنة (1204 ـ 1261).

الخامسة (1217 ـ 1221): الحرب التي أشهرها جان دوبريين ملك القدس واندره الثاني ملك هنغارية وذهبوا فيها إلى مصر وعادوا منها خائبين.

السادسة (1228 ـ 1229م): الحرب التي قادها فريدريك الثاني إمبراطور ألمانيا لادعائه بميراث مملكة القدس عن جان دوبريين. فعقد مع الملك الكامل معاهدة الصلح واستلم بموجبها القدس.

السابعة (1248 ـ 1254م): الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا إيفاءً بنذر نذره. فخرج لمصر وغلبه الملك الكامل خامس الملوك الأيوبية في محاربة المنصورة وأسره فأخلى دمياط وسلمها للمسلمين فكاكاً لأسره.

الثامنة (1270م): الحرب التي قادها لويس التاسع ملك فرنسا الملقب بالقديس لويس ومات فيها أمام أسوار تونس الخضراء. فاسترجع المسلمون حينئذ مدن فلسطين وسوريا من الإفرنج واحدة بعد الأخرى. وكان آخرهن فتح عكا سنة 1291م وانتهت بذلك الحروب الصليبية.

وكان لهذه الحروب نتيجتان: إحداهما مادية عسكرية، والأخرى معنوية أدبية. فالنتيجة المادية رجوع الإفرنج عن الغنيمة بعد الكد بالقفل وتخليتهم القدس وجميع ما ملكوه في الشرق. والنتيجة المعنوية انتباههم من الغفلة التي كا نوا فيها بمخالطتهم المسلمين وأهل الشرق وسلوكهم منذ ذاك التاريخ سبيلي «الانتظام» و«الترقي». ويسميهما الإفرنج (أوردر وبروغره). قال رينان «حدث بعد الحرب الصليبية الثامنة التي قام بها لويس التاسع ومات على أبواب تونس حركتان واضحتان من جهتين مختلفتين: الأولى انحطاط العالم الإسلامي، والأخرى نهوض العالم المسيحي؛ لأن العلوم الإسلامية لما لقحت جراثيم الحياة في جسم البلاد الأوروبية انطفأت جراثيم حياتها. وأخذ العالمان يسيران في وجهتين متعاكستين علوّاً وهبوطاً.

سارت مُشَرِّقة وسار مُغَرِّباً   شتان بين مُشَرِّق ومُغَرِّب

13

ما اقتبسه الإفرنج من قواعد الشعر العربي

فيتضح لك من هذه النبذة التاريخية المعترضة في هذه الرسالة أن الاختلاط بين العرب والإفرنج لم ينقطع لا في الحروب الصليبية ولا قبلها حينما دخل العرب أرض فرنسا وتوطَّنوا في جنوبها، وحرثوا أرضها، وتزوجوا ببناتها، وتاجروا مع أهلها، وعمروا مدن نربون (نربونة) وقرقسون (قرقشونة) وفراقسنة، وأخذوا الأسرى من الإفرنج وشغلوهم في عمارة جامع قرطبة القائم ليومنا هذا على ألف وثلاثة وتسعين عموداً وفي غيره من المباني الفاخرة كالقصر والزهراء والحمراء والقنطرة. فكانت الأفكار تتبادل بين الفريقين ضرورة ولو كانا على طرفي نقيض. وحيث كان المسلمون في ذاك العصر أرقى حضارة وأدباً من جيرانهم المسيحيين كانت الإفرنج تقتبس من معارف المسلمين، وتحصِّل العلم في مدارسهم وجوامعهم كما فعل البابا سيلفستر الثاني. واسمه الذي سماه به أبوه جربر (930 ـ 1004م) فإنه بعد أن حَصَّل مبادئ العلوم اللاهوتية باللغة اللاتينية في مدينة أورياق التي ولد فيها - وهي بالقرب من طولوز وفي شمالها الشرقي - ارتحل في طلب العلم إلى الأندلس فقطع عقاب البيرينه والوادي الكبير المار بجوار قرطبة ومن إشبيلية والمنصب في خليج قادس من المحيط غير بعيد عن شريش وجاور في مدرسة إشبيلية ثلاث سنين، وعاد لأوروبا متبحراً في العلوم والمعارف حتى حسبه الناس ساحراً، واتخذه الملوك مؤدباً لأولادهم. وتقلَّب في

المناصب حتى أحرز رتبة البابوية. وقيل أنه أول من أدخل لبلاد الإفرنج ما يسمونه الأرقام العربية ونسميه الأرقام الهندية وهي التي تدل بذاتها على عدد وبمنزلتها على عدد آخر. وكانوا لذلك العهد يستعملون الأحرف اللاتينية التي هي بمثابة الحروف الأبجدية.

واقتفى طلاب العلم أثر هذا البابا الحكيم وكذا المنتحلون منهم للشعر والأدب كانوا يقلدون شعراء العرب وأدباءهم. وكان المجاورون للعرب من أهالي فرنسا وشمال أسبانيا يحيدون عن تعلم أشعار اللاتين، ويكبون على تعلم أشعار العرب وأزجالهم. وكان فقراؤهم في القرن الحادي عشر للميلاد ينشدون الأناشيد والمدائح العربية وهم يستعطون على الأبواب وفي الطرقات فيستمع الناس لهم ويتصدقون عليهم لا لفهمهم ما يقولون وإنما شوقاً منهم وحناناً للألحان والأنغام والقوافي الرنانة. كما كانت العربية هي اللسان الرسمي في صقلية على عهد رجار ومن خلفه من الملوك بعد انقراض الحكومة الإسلامية منها وكانوا يحررون بالعربية على المباني العمومية في تلك الجزيرة.

وذكرنا فيما تقدم أن لغة «رومان» وهي لاتينية سوقية محرَّفة بكلام الغولوا والفرنك انقسمت إلى شعبتين: (1) لسان أوق تكلم به أهل الجنوب لا سيما سكان بروفانس (2) لسان أويل تكلم به أهل الشمال لا سيما سكان جزيرة فرنسا. وهي الإيالة التي عاصمتها باريس وكان في الشمال شعراء يقال لهم (تروفير). وفي الجنوب شعراء يقال لهم (تروبادور). فالتروبادور الذين كانوا في إيالة بروفانس هم صنف من المدّاحين يطوفون من قصر لقصر ومن قلعة لأخرى يغنون قصائدهم ويمدحون الأمراء وذوي الوجاهة، ويسمون أدبهم بالعلم المطرب. ولم تكن أشعارهم ذات قواف كأشعار العرب وإنما لها بدل القافية مراكز ومواقف كالأشعار التي يتغنى بها رعاة الغنم. وكان لهم فن من الشعر يسمونه تنسون (Tenson) على شكل المخاطبات يشابه ما أوجده الأندلسيون من الفنون الشعرية. وأجمع العارفون على أن القوافي أول ما ظهرت في الشعر البروفانسال وأنها مأخوذة من العرب. فالقافية عند الفرنساويين هي اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة وما يتبعها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين أو قطعتين من الشعر مثل ساج وباج (Sage, Page) فالذي أخذوه عن العرب بالسماع والتقليد هو علم القوافي. وكانوا يستعملون قبل ذلك عوضاً عن القافية ما يسمونه (أسونانس) وهو اتحاد الأحرف الصوتية الأخيرة بقطع النظر

عما بعدها من الأحرف الساكنة في نهاية كل بيتين مثل ساج (Sâge) وآرم (ârme). وكان استعمالهم للقوافي في القرن الثالث عشر. وأخذوا عن العرب في المنظوم أنواع المدح والغزل والنسيب والهجو والهزل أي ما يسمونه ليريك وما يسمونه ساتيريك. كما أخذوا عنهم في المنثور القصص والمِلَح وضروب الأمثال. ومنها ما نقلوه نثراً ثم نظموه في لغتهم. وجاروا العرب في الفكاهات أيضاً فألفوا حكايات وتظريفات على أقسّة القرى وخَدَمة الكنائس ليضحكوا منهم الأمراء والفرسان الذين يسمونهم «شيفاليه». وفي هذه الحكايات والنوادر المأخوذة عن العرب ما أصله الأول من حكايات الفرس والهنود وترجمت إلى العربية ثم نقلت للإفرنجية. فلو كان الحكم والغلبة لأهل الجنوب المجاورين للعرب وللغتهم المسماة «أوق» لوجدنا في اللغة الفرنساوية الحالية شيئاً كثيراً من فنون الأدب العربية. ولكن الحكم والغلبة كانتا لأهل الشمال وللغتهم المسماة «اويل» وكان شعراؤهم التروفير لا يعرفون غير أشعار الحماسة. وقصائدهم قصيرة، والبيت مؤلف من عشرة هجاءات ليس له قافية وإنَّما له (أسونانس) كما في أغاني رولان الآتي ذكرها واستمروا على هذا النظم إلى آخر القرن الثاني عشر. وفي القرن الثالث عشر أخذ شعراء الشمال وهم التروفير ينسجون على منوال (التروبادور) وتعلموا منهم القوافي ورقّة الغزل واللحن الموسيقي. وصار فرسان الإفرنج يقلدون فرسان العرب في انتحال الشعر فكانت فضائل الفارس المهارة في الفروسية وحفظ الشعر والتمثل به وفي لعب الشطرنج. فتحسن الشعر الإفرنجي بإدخال القوافي العربية فيه وباقتباس أدب الأندلسيين ورقَّة غزلهم.

14

اقتباس الإفرنج أقاصيصهم عن العرب

والحاصل أن الرومانيين لما فتحوا أرض الغول أدخلوا إليها مدنيتهم ولغة عوامهم وهي اللاتينية الدارجة. فلما استولى قبائل الإفرنج على أرض الغول أخذوا ما وجدوه فيها من اللسان والمدنية فنتج من هذا الاختلاط لغة جديدة قيل لها «رومان». وأقدم المدونات في هذه اللغة هريمين ستراسبوع. وهو صورة القسم الذي أقسم به العسكر لأحفاد شارلمان حينما عقدوا معاهدة فيردون، وقسموا مملكة شارلمان إلى ثلاثة أقسام: فرنسا، وجرمانيا، وإيطاليا، وأخذ كل منهم قسماً وذلك في سنة 843م أو سنة 229هـ أي في خلافة الواثق بالله هارون بن المعتصم بن هارون الرشيد في بغداد وعبد الرحمن بن الحكم في قرطبة. فهذه أول مرة دونت فيها لغة رومان وقامت مقام اللغة اللاتينية. ثم انقسمت لغة رومان إلى لسان أويل وإلى لسان أوق. وانقسم لسان أويل - وهو لسان الشمال - إلى لهجات غلب على الجميع لهجة جزيرة فرنسا ـ وهي الجزيرة المحاطة بالأنهار المشتملة على باريس وما في جوارها ـ فصارت اللغة الفرنساوية. ثم عَمَّ استعمال هذه اللغة في الإيالات الجنوبية، وغلبت على لسان أوق سنة 987م حينما تأسست الدولة الثالثة من دول الإفرنج وهي الدولة التي دامت إلى

حدوث الانقلاب الكبير وظهور الحكومة الجمهورية. وكان مؤسس الدولة الثالثة هوغ قابت دوق جزيرة فرنسا فأطلق هذا الاسم على عموم المملكة وعلى اللغة.

ولما كان اتساع دائرة النظم في تاريخ الأدب سابقاً لاتساع دائرة النثر كان الكلام المنظوم أساساً للأدب الفرنساوي وأقدم نظم فيه هو «أغاني رولان». وتاريخ نظمها في النصف الأخير من القرن الحادي عشر. وناظمها أو ناظموها مجهولون ولا دليل على أنه تيرولد المذكور اسمه في آخر بيت منها. ورولان هو قائد جنود شارلمان الذين حاربوا الأندلسيين. وذلك أن شارلمان لما فتح الفتوحات العظيمة، وتتوّج بتاج الإمبراطورية، واستحصل من الخليفة العباسي على الإذن لحجاج النصارى في زيارة بيت المقدس طار له ذكر في الآفاق، وتحدث الناس به، ونظموا فيه القصائد، وقصوا عنه القصص والحكايات، وأنشدوا الأناشيد، وفعل الإفرنج له ما فعله العرب لهارون الرشيد. غير أن فنون الأدب الإفرنجية لم تكن زاهرة كفنون الأدب العربية، بل كانت حديثة النشأة لم تُهَذَّب بعد. وكانوا يكتبون باللغة اللاتينية ما يحتاجون إلى كتابته وتدوينه ولم يكن الملوك والأمراء ولا الرعية يفهمون اللاتينية الفصحى، وإنما كان يفهمها بعض الأساقفة والرهابين فنظمت (أغاني رولان) و(حج شارلمان) باللسان الفرنساوي الذي كان يتكلمه أهل ذاك العصر أي بعد شارلمان بأكثر من قرن. وفي أغاني رولان من المبالغات ما في قصة عنترة وجسمت فيها الحرب التي حصلت بين الإفرنج وعرب الأندلس، وجعلت رولان عنتر زمانه وألحقته بنسب شارلمان، وادعت بأنه ابن أخيه وذراعه اليمنى. وذكر في هذه الأغاني أن سبب هزيمة رولان هو خيانة غانيلون. وذلك أن رولان بعث بتابعه غانيلون إلى والي سرقسطة مركز ولاية أراغون بمهمة حربية وكان في ذهابه إليها خطر على حياته فاغتاظ هذا المأمور من آمره، وانضم إلى المسلمين، ودبر في قتل رولان وانهزامه فلما رجع رولان ببقية الجنود إلى فرنسا ووصل مضيق رونسيفو في جبال البيرينه هجم عليهم أهالي نافارا وغاسكونيه المتفقون مع المسلمين في جيوش جرارة عُدَتها أربعماية ألف فارس. وكان لرولان مستشار ورفيق اسمه أوليفيه، فنصحه بالاستمداد من شارلمان واستدعائه لنجدته فلم يصغ في بادئ الأمر لمقاله. ولما أراد أن يعمل برأي أوليفيه العاقل ويتبع مشورته فات الوقت وذهب الأوان وغلبهم العدو بكثرة عدده، وأمسوا متخبطين في ظلام النقع، وقتل بعضهم بعضاً وضرب أوليفيه صاحبه رولان بالسيف ضربة خطاءٍ لا عمد فجرحته وسبَّبَت موته. فصورت تلك الأغاني موت رولان ثم موت أوليفيه وطلب كل

منهما السماح من الآخر ومباركة الأسقف توربين عليهما وغفران ذنوبهما. وأراد رولان قبل موته أن يكسر سيفه المسمى (دوراندال) لئلا يقع في أيدي أعدائه، أو يصل إلى مارسيل (Marcile) والي المسلمين في سرقسطة فلم يستطع كسر هذا السيف لأنه من السيوف التي لا تكسر ولا تفلّ. ولعله من المعدن المسبوك منه صمصامة عنترة وذو الفقار علي رضي الله عنه. وهو الذي قيل فيه لا سيف إلا ذو الفقار. وقد تهور الإفرنج في وصف (دوراندال) كما تهورت الشيعة في وصف ذي الفقار وجعلوا القوة والشجاعة بأجمعها في السيف حتى لم يبقَ منها شيء لصاحب السيف ولم يزل أثر الضربة التي ضرب بها رولان الصخرة بسيفه باقياً إلى يومنا هذا يشاهده السائحون والمارون بمضيق رونسيفو كما يشاهدون تل العلائف في جوار قرية أريحا من فلسطين وهو التل الذي أحدثه على زعمهم جيش أبي زيد الهلالي حينما مروا بقرية أريحا وأرادوا الصعود إلى جبل القدس فنفضوا مخالي الشعير في أسفل العقبة فتَكَّونَ من الغبار الذي فيها هذا التل العظيم لأنهم كانوا لا يحصون عدّاً لكثرتهم. هذا ما تتناقله الألسنة ويرويه الأباء عن الأجداد. ولعل الباحثين في الآثار القديمة لو حفروا في تل العلائف لوجدوا فيه أثراً من الآثار كما لو بحث العارفون بطبقات الأرض وبشكل الجبال لذكروا سبباً (لضربة رولان) في صخرة رونسيفو. ولرولان حصان كأنه هو وأبجر عنترة بن شداد فرسا رهان. ولم يفت ناظم أغاني رولان ذكر الملائكة وكيفية نزولهم واصطفافهم حوله لقبض روحه. فصَوَّر في منظومته الجهاد المسيحي وجعل فضائل المجاهدين الشجاعة العسكرية والطاعة لأولي الأمر (السوزيرين) والتصلب في الدين المسيحي وبغض من لم يعتقدوا بما أمر به وينتهوا عما نهى عنه بغضاً لوجه الله لا لعداوة دنيوية ولا لمال ودولة. وهذه الأغاني مطبوعة ومترجمة للفرنساوية العصرية. ومنها يظهر اعتقاد الإفرنج إذ ذاك في الإسلام والمسلمين فإنهم كانوا يحسبون المسلمين دعاة إلى عبادة الأصنام ويعدون من أصنامهم أبولون. ولم يزل الكثير من أهل القرى الفرنساوية يعتقدون هذا الاعتقاد إلى يومنا هذا كما تبين لي من محادثة الكثيرين منهم. وكان لأغاني رولان شأن في عموم أوروبا وفي إنجلترا. وترجمت في القرن الثاني عشر للميلاد للغة الألمانية ولغة السويد والنوروج.

ومما نظم على نسق أغاني رولان حج شارلمان إلى بيت المقدس وقصائد وحكايات كثيرة في الحروب الصليبية. ربما يعتني في المستقبل بترجمتها ومطالعتها المشتغلون بالتاريخ العربي كما يعتني الإفرنج في زماننا في استخراج الكتب العربية وطبعها

وترجمتها ليقفوا منها على حقيقة تاريخية يوضحون فيها ما غمض من تاريخهم. وفي أواخر القرن الثاني عشر وأوائل القرن الثالث عشر أقبل شعراء الشمال ينسجون على موال شعراء الجنوب يقتبسون منهم المحسنات الشعرية ورقة الغزل والقوافي العربية ووضعوا الألحان الموسيقية وتغزلوا بها وطبع من ذلك دواوين ورسائل كثيرة لا حاجة لذكرها. ثم ظهرت الأشعار الهجوية والهزلية والمِلَح والفكاهات مما هو على نسق «كليلة ودمنة» وضروب أمثال لقمان وبقية الحكايات المؤلفة على ألسنة الحيوانات فمن ذلك (رومان الثعلب) و(أمثال ايزوب) و(رومان روز) وغير ذلك. وقيل للمنظوم من ذلك (الأغاني) أو (أغاني القصص)،

15

اقتباس الإفرنج العلوم عن العرب

ولما اختلط ملوك أوروبا وأمراؤها بملوك الشرق وأمراء المسلمين في أثناء الحروب الصليبية رأوا بأعينهم أدباء العرب وشعراءهم ومؤرخيهم وأطباءهم وحكماءهم سيما من كان منهم بمعية صلاح الدين الأيوبي مثل القاضي الفاضل والعماد الكاتب وعمارة اليمني الشاعر والطبيب الحاذق الذي طبب ريشار قلب الأسد. فقدروا الأدب حق قدره واعترفوا بلزوم وضع تاريخ لدولتهم. فألف بعض الرهبان السالكين طريقة القديس ديني (St. denis) لدولة الإفرنج. وكان ذلك على عهد لويس التاسع الملقَّب بالقديس. وهو المتوفى سنة 1270م في تونس أثناء الحرب الصليبية الثامنة. فكان هذا التاريخ أول سجلّ لضبط وقائع ملوك الإفرنج وتاريخ جلوسهم ووفاتهم وذكر شيء من أخبارهم وحروبهم. وداموا على هذا السجل إلى أن مَلَكَ لويس الحادي عشر المتوفى سنة 1483. وأنشأوا في مدينة مون بيليه مدرسة للطب. وذلك في القرن الثالث عشر وهي أقدم مدرسة طبية في أوربا بعد مدرسة ساليرن التي بجوار نابولي. وكانت الأندلس في منتهى عزها وحضارتها فجلبوا منها لمدرسة مون بيليه المعلمين والمدرسين من العرب واليهود المستعمربين. وفي سنة 1323م أنشأو في مدينة طولوز

جمعية أدبية دعوها مدرسة العلم المفرح (Collеge du gai scavoir)، وجعلوا جوائز الشعر أزهاراً مصوغة من الذهب والفضة تُفَرَّق على نوابغ الشعراء بعد تقدير الجمعية وحكمها، وفي أواخر القرن الخامس عشر للميلاد أوقفت إحدى المحسنات من نساء طولوز أموالها على هذه الجمعية فاتسعت ثروتها، وزادت رغبة الشعراء فيها، وأقبلوا على انتحال فنون الأدب، وحسنوا المنطق والكلام باللسان الفرنساوي. ولم تزل هذه الجمعية الأدبية زاهرة إلى يومنا هذا. وتسمى جمعية أو (أكاديمة لعب الأزهار). وتتألف من أربعين محافظاً ومن معلمين كثيرين. وسُمِّي أعضاء هذه الجمعية بالمحافظين إشارة إلى ما يجب عليهم بحسب قانونهم من المحافظة على قواعد اللسان وفنون أدبه. ويحتفلون في اليوم الثالث من شهر مايو في كل سنة ويوزعون الجوائز والنقود على مستحقيها. ولهم تسع جوائز من الذهب والفضة كل جائزة على شكل زهرة مخصوصة مثل الإقحوان والياسمين والسوسن. ومنها ما هو للشعر. ومنها ما هو للنثر والخطب ـ ورأينا فيما سبق كيف نال فيكتور هوكو جائزة هذه الجمعية.

وفي القرن الرابع عشر للميلاد ترجم الإفرنج الكتب اللاتينية للفرنساوية، ونقلوا علوم اليونان وفلسفتهم عن العرب. ولم يكن لهم معرفة باللغة اليونانية ولا بما دُوِّن فيها. فترجموا كتب أرسطو عن اللاتينية المترجمة عن العربية والعربية مترجمة من اليونانية أو السريانية. ثم ظهر فن التشخيص. وكان منشأه من الكنيسة ومن تشخيص آلام المسيح عليه السلام وما شبه لهم فيه من القتل والصلب. فهذا أساس فن التشخيص، ثم وسعوا دائرة هذا الفن ووضعوا فيه المؤلفات الكثيرة، واستحدثوا فيه أنواعاً مختلفة وطرقاً متنوعة، وأقبلوا على درس أدب اللغة اللاتينية وأدب اليونانية وتبحروا فيهما، وانتقشت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم، وحذوا حذو شعراء الرومان واليونان، واتخذوا أشعارهم ورواياتهم منوالاً نسجوا عليه أمثالها من كلمات أخرى فرنساوية ولم يزالوا كذلك حتى بلغوا شأواً كبيراً على عهد لويس الرابع (1638 ـ 1715) الملقب بالكبير، وأصلحوا فنون الأدب، وهذبوها. وفتحت الماركيزة رامبويه دارها للأدباء من سنة 1635 إلى سنة 1665م. وكانت تستقبلهم هي وبناتها ويعقدون في حضرتها منتدى أدبياً يحضره الشعراء والأدباء والظرفاء، ويتسامرون فيه، وينشدون الأشعار ويقصون القصص والنوادر الأدبية والعلمية. فكان أول ناد في باريس خدم انتشار الأدب والمعارف وساعد على ترقي اللغة وعلى اجتماع الرجال

بالنساء في جلسة أدبية محترمة. وتقرّب الأدباء من الأمراء وأرباب الوجاهة بعد أن كانوا مختصرين لا يتحرفون بالأدب إلا لاستجداء المعروف وطلب الإحسان. وصارت السيدات الفرنساويات يقلدن الماركيزة في الإقبال على تحصيل الأدب والمعارف وفتح أبوابهن للشعراء والكَتَبة. وأرادت بعض سيدات الأستانة قبل إعلان الدستور تقليد الماركيزة في حماية الأدب فنجح عملهن مدة ثم أقفلت دورهن. وفي سنة 1653 أسس الكاردينال ريشيليو الأكاديمية الفرنساوية من أربعين عضواً وفوض إليهم جمع قاموس اللغة الفرنساوية ثم أسست أكاديمة الفنون والآداب، واشتغلت بالتاريخ والآثار القديمة ثم أكاديمية العلوم الأخلاقية والسياسية، واشتغلت في الفلسفة وعلوم الاقتصاد ثم أكاديمية العلوم الرياضية والطبيعية وأكاديمية الصنائع النفيسة وغير ذلك من المؤسسات العلمية النافعة وظهر من الأدباء بالزاك وفولتير وديكارت (1596 ـ 1650م) وهو الذي أحيا الفلسفة وأوجد التعبيرات الفلسفية في اللغة الفرنساوية. كان إماماً في الأدب فسلك فيه مسلكاً جديداً واتخذ لنفسه طريقة مخصوصة تنسب إليه وتسمى باسمه. ثم أنشأ ألكساندر هاردي مسرحاً في باريز شَخَّصَ فيه روايات كثيرة أخذ موضوعها من إسبانيا لتقدم فنون الأدب فيها لسبب مجاورتهم للعرب. وظهر من فحول الأدباء بيرقورنيل (1606 ـ 1684م) صاحب رواية هوراس التي صَوَّر فيها فضائل الرومان ومحبتهم لأوطانهم وبذلهم دونها المال والبنين. وأبدع ما في هذه الرواية حديث المرأة التي أتت شيخاً من قبيلة هوراس تخبره بموت ابنيه في حرب لهم مع قبيلة كورياس وبنجاة ولده الثالث بالفرار من ميدان الحرب. فتجلد الشيخ على موت ابنيه وغضب من فرار ولده الثالث. فقالت له المرأة. «ماذا تريد أن يفعل وهو وحده مع ثلاثة من أعدائه؟» فأجابها الشيخ: «أريد أن يموت». ومن أئمة الأدب المؤسسين لطريقة (كلاسيك) راسين (1649 1699-)، وكان معاصراً لقورنيل ورقيباً له. نظم رواية أندروماخه، ونسجها على منوال رواية بهذا الاسم لأحد شعراء اليونان الأقدمين، ثم درس تاريخ العبرانيين ونظم رواية (استير) ورواية (أتالي) التي قال فيها فولتير بأنها أحسن ما ألفه العقل البشري. وسموا هذا النوع من الروايات الفاجعة التاريخية (تراجيدي) ومن مشاهير أدبائهم المتقدمين بواولو الشاعر الهجاء مؤلف الهزليات وصاحب المذهب في فن الأدب. ومولير مؤلف المضحكات المسماة كوميدي وفنلون مؤلف تيلماك المترجم للعربية والمطبوع في بيروت وترجمه للتركية يوسف كامل باشا بألفاظ لغوية وعبارة عويصة. وترجمه أحمد وفيق باشا بألفاظ

سهلة. ولافونتين مؤلف الحكايات المنظومة على ألسنة الحيوانات. وكانت المدارس الإبتدائية تعوِّل عليها في تدريس اللغة الفرنساوية وتُحَفِّظها للأطفال. وأما اليوم فَقَلَّت الرغبة فيها. ثم مونتسكو مؤلف «أسباب اعتلاء الرومانيين وسقوطهم» و«روح القوانين» و«الرسائل العجمية». وبوفون مؤلف «التاريخ الطبيعي»، وفولتير الشهير الذي لم يدع باباً من أبواب الكتابة وفنون الشعر والإنشاء إلا طرقه، وديدرو صاحب الأنسكلو بيديا، وجان جاك روسو الذي هيَّج الأفكار بمؤلفاته وهيأ حدوث الانقلاب الكبير، وبرناردن دوسن بير مؤلف «بول وفرجيني» وغيرها من القصص والسياحات.

16

الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية في أدب الإفرنج وما أخذوه من ذلك عن العرب

أدب كل لسان ـ كما لا يخفى ـ هو مجموع ما حصلت الإجادة في تأليفه بذلك اللسان من فَنَّي المنظوم والمنثور. فمن أمعن النظر في أدب اللسان العربي وجد فيه طرقاً كثيرة ومذاهب شتى ورأى فريقاً من الذين أحرزوا قصب السبق في أدب العرب يتوخى حفظ الألفاظ وتصنيعها وفريقاً آخر يختار ضبط المعاني وترتيبها. وعلم أن لكل واحد من أئمة البلاغة وأمراء الفصاحة منهاجاً معروفاً وطريقة مألوفة. فلو راجعنا البصر في رسائلهم المنثورة، وتأملنا طرز إنشائها لتبين لنا أن منهم من سلك طريقة الأصل أو طريقة السجع أو طريقة الجاحظ إمام الأدب. ومنهم من جمع بين طرق المتقدمين وطريقة المتأخرين حتى خلص لنفسه طريقة. ثم لو أعدنا النظر ثانية في نظم أشعارهم لظهر لنا أن منهم من نسج على منوال شعر الجاهلية ولم يخرج عن الأساليب التي راعوها. ومنهم من لم يجر على أساليب العرب المتقدمين كالمتنبي والمعري بل ا تخذ كل منهما منوالاً خاصاً لنسج كلامه وأوجد قالباً جديداً لبناء شعره فأصبح في الأدب إماماً يُقتدى به، ثم إذا بحثنا في مؤلفات أولئك الأئمة باعتبار آخر

رأينا منهم من أطلق العنان للمخيلة الشعرية فأتى بالمعجز من آيات البيان ومنهم من استغرق في الحب استغراق ابن الفارض وتجلّيه. وإذا وصفوا الأمكنة والأشخاص أو المواد والمعاني منهم من يصور لك الموصوف على حقيقته بلا خلف فيه. ومنهم من جعل وصفه يربو على الموصوف ويتعداه أو يقصر عنه. ثم إذا استقصينا البحث نجد طائفة من أمراء البلاغة قد تركوا لغة مضر وما فيها من الإعراب ونظموا أشعارهم بلسان الحضر وهي اللغة الدارجة في أمصارهم لأن البلاغة لا تختص بلسان مضر، بل توجد فيه وفي لسان الحضر وفي غيرهما من الألسن الأعجمية. ونجد منهم أيضاً طائفة أخرى في الأندلس وغيرها خرجوا عن أوزان العروض المعروف عند العرب إلى أعاريض مختلفة ومقاطيع متفاوتة. إلى غيرذلك مما هو مفصل في مواضعه ومعلوم عند أربابه سيما بعد طبع كتب الباقلاني والجرجاني وغيرهما من الأئمة الواضعين لفن الانتقاد الأدبي.

فالأمم الأوربية على اختلاف قومياتهم وتفرق لغاتهم ظلوا لأواخر القرن الحادي عشر للميلاد محرومين من الأدب وفنونه. ولم يكن فيهم إلا أفراد من القسوس والأساقفة يحفظون في الأديرة شعر فرجيل اللاتيني ولا يفهمون مغزاه كما يحفظ مشايخ الأعاجم في زماننا شعر المتنبي والمعلقات. ففي أوائل القرن الثاني للهجرة والثامن للميلاد أخذت الأفكار تتبادل بين المسلمين وبين أمم أوروبا من الإسبانيين والطليان والإفرنج. ودامت الصلات لا تنقطع بين الفريقين المتحاربين لا في الحرب بواسطة الأسرى والسفراء ـ ولا في السلم بسبب الأخذ والعطاء. وكان الأرسخ قدماً في الحضارة يكسب جاره أدباً وعرفاناً. وفي القرن العاشر للميلاد تغلب البابا سيلفستر الثاني على التعصب الديني وخرج من مدينة أورياق مسقط رأسه، وقطع عقاب البيرينه ومياه الوادي الكبير، وجاور في إشبيلية ثلاث سنوات. وفتح لقومه باب العلم والمعارف فدخلوه طوعاً أو كرهاً. وارتحل الافرنج في طلب العلم إلى مدارس الأندلس، وحضروا على مشايخها، وعادوا لأوطانهم متنورين يلقون الدروس في ساحات المدن الكبيرة، وتجتمع حولهم الطلبة والعوام على مألوف العادة الجارية ليومنا في المدارس والجوامع الإسلامية. فأدرك الناس فوائد العلم وقَرَّبَ الملوك والأمراء منهم علماء المسلمين وأغدقوا عليهم. فكان الشريف الإدريسي صاحب الجغرافية عند رجار المعروف عندهم بروجر الثاني ملك صقلية، ونابولي وهو من سلالة الملوك النورمانديين. وكان أحفاد ابن رشد المتضلعون في علم الحيوان والنبات عند خلفاء رجار في مملكة

صقلية ونابولي المُعَبَّر عنهما بالصقليتين. فكان مثل هؤلاء كمثل الأوربيين المستخدمين اليوم في الممالك الشرقية. وظل الإفرنج بعد استرداد صقلية يكتبون بالعربية على المباني العمومية والعمارات الملوكية، واستعمل علماؤهم اصطلاحات العرب العلمية في جميع أوروبا. وفي القرن الثالث عشر للميلاد فتحوا مدرسة للطب والعلوم في مدينة مون بيليه القريبة لمرسيليا وجاؤوا لها بالمعلمين من عرب الأندلس ويهودها المتسعربين. فكانت تلك المدرسة أقدم المدارس في أوروبا بعد مدرسة سالِرن القريبة لنابولي. ولم تزل مدرسة مون بيليه عامرة يقصدها طلبة العلم من الأستانة ومصر وغيرهما من بلاد الشرق. ثم في سنة 1323 أنشأ أدباء الإفرنج في مدينة طولوز التي فتحها العرب سابقاً جمعية أدبية لم تزل زاهرة إلى يومنا هذا وتسمى جمعية لعب الأزهار وتفرِّق في كل سنة على نوابغ الشعراء عشر جوائز مصوغة من الذهب والفضة على هيئة الأزهار. وكانت لفيكتور هوكو منها أوفر نصيب كما تقدم. ومعلوم أن العرب أقاموا مدة بتلك الأصقاع وحرثوا أرضها وتزوجوا بناتها وعمرت بهم مدينة أربونة (ناربون) وقرقشونة (قرقسون) وفراقسنة وكانت مستعمرة للعرب في شرق مرسيليا. وقسطل سارازين معناها قلعة العرب. وهي في الشمال الغربي من طولوز.

فتعلم الإفرنج من العرب القوافي ورقّة الغزل وأداب النظم والنثر وتلحين الأغاني والشعر، ونقلوا عنهم القصص والحكايات والنوادر وضروب الأمثال والحكم المنقولة عن الفرس والهنود كما هو مفصل في تواريخ الأدب الفرنساوي. وإلى ذلك أشار الموسيو رينه دوميك في كتابه المتداول بأيدي طلبة العلم في عموم المدارس الفرنساوية. وبعد أن اطلع الإفرنج من كتب الإسلام على ما عند اليونان من الفلسفة والحكمة أقبلوا على درس اللغة اليونانية، ولم يهملوا كتب أدبها كما أهملها العرب من قبلهم. بل تهافتوا على درس أدب اليونان واللاتين وعلى حفظ أشعارهم والتمثل بها. وهاموا في قصّ قصصهم وفي تشخيص رواياتهم لأن فن التشخيص أو التمثيل كان شائعاً عند اليونان والرومان. وألف أدباؤهم كثيراً من الروايات واشتهر منها مؤلفات أوريبيد لا سيما رواية «إندروماق» التي نسج راسين على منوالها. ولا يزال السياح يشاهدون في أثينة على سفح الجبل تحت قلعة الأفروبول آثار المرسحين العظيمين اللذين هما من بقايا التمدن القديم.

وكان أسبق أمم أوروبا إلى تحصيل فنون الأدب الإسبانيول والطليان المجاورون للعرب. فظهر في الأولين من فحول الشعراء لوب دوفيكه ونظم نحو ألف وثمانماية

رواية تمثيلية. وظهر فيهم أيضاً الشاعر قالديرون ولوقين وغيرهم. وفي الطليان ظهر الشاعر دانتي (1265 ـ1321م). وطار له ذكر في العالم. وهو يعد في مصاف أكبر شعراء الأمم القديمة والحديثة. وسبب شهرته كتابه الموسوم بـ«الكوميدية الإلهية» ـ ديفين كوميدي ـ ألفه في غضون سنة 1300م وجعله على ثلاثة أبواب باب في جهنم وباب في الأعراف، وباب في الجنة. وسمّى الباب منها بالنشيد وقسمه إلى مائة غناء. وكل غناء يشتمل على 130 أو 140 بيتاً. وافتتح كتابه بباب جهنم، وصَوَّر نفسه مشرفاً على غابة مظلمة تقشعر الجلود من وصفها. وهمَّ بدخولها لو لم يعترضه ثلاثة سباع كاسرةٍ. وبينما هو بين أظفار المنية ظهر له فرجيل الشاعر اللاتيني، وعرض عليه أن يكون قائداً له في الأعراف والسعير فقط لأنه لا يستطيع دخول الجنة ولا وطء عتابها لكونه من عبدة الأوثان. فقبل دانتي بقيادة فرجيل له وسارا معاً في عالم أهل النار. وأطنب الشاعر في وصف أصحاب العير وصَوَّر عذاب الذين مرَّ بهم من الظَلَمة والجبارين. وأتى على قصة إيكولين. وكان جباراً عنيداً في مدينة بيزا فوقع بأيدي أعدائه فوضعوه مع أولاده في برج وسدوا عليهم جميعاً، فاشتد به الجوع وأكل أولاده ثم هلك. فوصف دانتي جميع ذلك بصورة هائلة على الأسلوب المعروف بالدراماتيقي. ولما أدته خاتمة المطاف إلى الجنة وجد ببابها بياتريس. وكانت من رَبّات الجمال المشهورات بمدينة فلورنسا. وقيل كانت معشوقته فتلقته، واخترقت به طبقات الجنة المسيحية أو طباق السموات، فلقي فيها كثيراً من الأبرار والقديسين والملائكة المقربين وباحثهم بالمسائل اللاهوتية والعلوم الإلهية والكلامية. وجمع دانتي في مؤلفه علوم العصر وآدابه ومعارفه ووضع به أساس اللغة الطليانية. فكان كتابه كدائرة المعارف والآداب. ولم يزل يستوقف أنظار الأدباء بحسن ترتيبه وجودة سبكه وبما فيه من المهارة العجيبة في التنقل من مبحث إلى آخر. فالكوميدية أو المضحكة الإلهية أشبه برسالة الغفران التي حررها المعري قبل تأليف الكوميدية بأكثر من قرنين وقدمها جواباً لرسالة وردت عليه من أحد أصحابه الأفاضل في حلب. وانتقل فيها لذكر الجنة ونعيمها وذكر من دخلها مَنْ الشعراء الذين يتبعهم الغاوون وفي كل واد يهيمون. وما كانوا يدخلونها إلا بعمل صغير كان له عند الله أجر كبير فغفر لهم ما تقدم من الذنب وما تأخر. وقالت لهم الملائكة: طبتم فادخلوها خالدين.

واقتفت الأمم الأوروبية أثر الإسبانيين والطليان في العدول عن اللغة اللاتينية إلى وضع لغاتهم القومية وتدوينها. وأقبل الأدباء في إنجلترا على التأليف باللغة الإنجليزية

وأصلح الفرنساويون لسان رومان وهذبوه فأصبح اللغة الفرنساوية. واقتفى الألمان أثر من ذكر من الأمم ودونوا لغتهم الألمانية. وكان فن الأدب منحصراً في الخواص شأنه عند العرب ولا نظر للعوام فيه. ولذا اختار الأدباء اصطلاحات مخصوصة من اللغة وتصنعوا في كلامهم وتعمَّلوا له. لأن الخواص من الناس يأنفون من استماع الكلام السوقي المبتذل، ويألفون الغوص على المعاني وأعمال الذهن في استخراجها. ثم ظهر في فرنسا الكسندر هاردي وهو أول من أصلح فن التمثيل واللعب على المراسح. واتخذ الروايات الإسبانية نموذجاً له، ونظم على منوالها كثيراً من الروايات الفرنساوية، وشخصها على مرسح باريس في حدود سنة 1600م. وفن التمثيل - كما لا يخفى - هو من أكبر العوامل على ترقي فنون الأدب وإصلاح طرق النظم والنثر. لأن الأديب يخاطب بهذا الفن الجمهور وأصناف الناس فيتحرى في كلامه التعبير الذي يستطيعون فهمه والأساليب التي لها وقع في نفوسهم بخلاف من يؤلف كلامه للخواص فإنه يتعمل في التأليف ويتصنع ليظهر تفننه واقتداره على إيراد النكت والدقائق التي لا يفهمها إلا أصحاب الغوص على المعاني.

والتمثيل - كما لا يخفى - مشتق من ضرب المثل. فإن الرواية التمثيلية ما هي إلا ضرب مثل جامع للأطراف والتفاصيل. وأحسن ضروب الأمثال وأبدعها وردت في القرآن الكريم الذي تحدى به النبي عليه السلام العرب وقال: {فَأْتُواْ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ } فقالوا: أنت تعرف من أخبار الأمم ما لا نعرف فذلك يُمكِّنك ما لا يُمكنّا. قال: فهاتوها مفتريات. فالرواية هي أسلوب من أساليب المفتريات. وأساس فن التمثيل عند الأوروبيين مستفاد من أعمال المعبدين في الكنائس ومن تشخيص ما شبه لهم في المسيح بن مريم عليهما السلام من القتل والصلب ومن تمثيل آلام الذين اقتدوا به من القديسين والشهداء في سبيل النصرانية. ولما درس الإفرنج اليونانية واللاتينية، وانتشقت أساليب هاتين اللغتين في نفوسهم حذوا حذو شعراء اليونان والرومان، واتخذوا رواياتهم منوالاً نسجوا عليه أمثالها من كلمات أخرى فرنساوية. وربما ترجموا أبيات شعرهم، وسرقوا معانيهم وصاغوها في ألفاظ فرنساوية من الطبقة العليا، وتأنقوا فيها نهاية التأنق، وراعوا قواعد النحو والصرف والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية والأساليب المتعارفة، فجاءت أبياتهم متينة وقوافيهم عامرة. وكل بيت منها كلام تام في مقصوده ويصلحُ أن ينفرد دون ما سواه. ولم تحصل الملكة في ذلك إلا لمن هو على جانب من العلم. وله الحظ الأكبر من الذوق السليم لاحتياجه إلى تلطف

كثير من استحصال الملكة حتى يبزغ الكلام الشعري في قوالبه التي عرفت له.

وبلغ الأدب الفرنساوي في عصر لويس الرابع عشر، أي من سنة 1600 إلى سنة 1715، أوج الكمال ومنتهى البلاغة. وأصلح الأدباء فنون الأدب ورتبوها على القواعد وهذبوها ووضعوا المؤلفات الجليلة والروايات البديعة، وظنوا بأنهم لم يتركوا شيئاً للمتأخرين. فكان عصر لويس الرابع في الأدب عصراً مدرسيّاً (كلاسيك) أشبه بعصر أوغسطوس عند الرومان وبعصر بيرقلس عند اليونان. ونبغ من شعراء الفرنساويين في فن الفاجعات (تراجيدي) الأديب بيير قورنيل، والشاعر المفلق راسين. ونبغ في فن المضحكات (كوميدي) الأديب موليير. ونبغ في فن الهجويات (ساتير)، الأديب المدقق بوالو. فهؤلاء من نوابغ العصر المذكور الذي بلغ اللسان فيه منتهى الفصاحة والبلاغة. ومن أحسن مؤلفات بيير قورنيل رواية السيد والكلمة عربية لقب بها أحد أبطال الإسبانيين في القرن الحادي عشر للميلاد. وبيان ذلك:

إن العرب بعد استيلائهم على جزيرة الأندلس[1] التجأت بقية السيوف من القوط إلى جبال أستوريا وتحصنوا فيها، ولموا شعثهم، وشكلوا حكومات وإمارات صغيرة فلم يعبأ بهم العرب وحسبوهم من قُطّاع الطرق المشردين في الجبال وتشاغلوا عنهم بتعمير تلك السهول وتمتعوا برياضها الغناء. فمن الإمارات التي أسسها القوط في شمال الأندلس إستورية، وليون، وقشتالة. وكان المالك عليها في ابتداء القرن الحادي عشر للميلاد فرديناند الأول فأوصى بتقسيم المُلك بعد وفاته بين أولاده، فكان ابنه الفونس السادس على ليون الإسبانية. وابنه الثاني سانش على قشتالة. فالسيد صاحب الرواية ولد سنة 1030 وسمي رودريك. وكان أبوه الدون ديغوا من أشراف القوط فأدخله في سراي فرديناند الأول. وبعد وفاته دخل في خدمة ابنه سانش ولما اقتتل الأخوان وانهزم سانش في إحدى المواقع قوّى السيد عزمه وأشار عليه بالمشورات الحسنة، فاتبع رأيه وانتصر على أخيه وحبسه وتفرد بالمُلك على ليون وقشتالة. فكان السيد له نديماً ووزيراً وناصحاً ومشيراً. ثم حدثت فتنة وقُتل سانش في محاصرة زامورة وخلفه أخوه ألفونس السادس. فأمن السيد وأقسم له الأيمان المغلظة بأنه لا مدخل له في قتل أخيه سانش وقربه منه، وزَوَّجَه بواحدة من قريباته. وكانت على رواية التاريخ عجوزاً شنعاء. ولم يتزوجها السيد إلا طمعاً في مالها. وبعد أن تم الأمر لألفونس السادس وأمن غوائل

1 ـ قالت العرب جزيرة الأندلس وجزيرة العرب وذلك اخف من قولنا شبه جزيرة الأندلس وبحيث جزيرة العرب والأندلس تطلق على مملكة إسبانيا ومملكة البرتغال ما عدا جزر صغيرة في الشمال الغربي من مملكة إسبانيا.

الرقباء فعل بالسيد ما يفعله المستبدون من الملوك من فتك[1] ومصادرة. وأراد الفتك به ففرَّ من ملكه إلى الحدود الإسلامية، وعَمَّر قلعة على قلعة بالقرب من سرقسطة (ساراغوس) بين دارقة والقنيز. ولم يزل أثر تلك القلعة على صخرة عالية تسمى صخرة السيد. كما تنسب الصخرة التي في رونسيفو أي في مدخل جبال البيرينه إلى رولان. واستقل السيد بحكمه في تلك القلعة وكان يَتعيَّش هو ورجاله من النهب والغارة على القرى المجاورة ومن قطع الطرق على القوافل الإسلامية والمسيحية. فاشتهر خبره وتحدثت الركبان بشجاعته، ثم اتفق مع أمير سرقسطة وأمير البراسين (هما من أمراء المسلمين)، وقاتل معهما أمير أراغون المسيحي وحارب كذلك عسكر ألفونس السادس والمتفقين معه من أمراء المسلمين لأنهم كانوا متفرقي الكلمة يقاتل بعضهم بعضاً. فجاءهم يوسف بن تاشفين بعساكر المرابطين من إفريقية ووحَّدَ كلمة الإسلام في عموم جزيرة الأندلس مع أنه كان أميّاً بربريّاً. فوقف السيد أمام المرابطين ودفع هجماتهم عن بلنسية ولم يمكنهم من الاستيلاء عليها إلا بعد وفاته في سنة 1099م. فتحدث القريب والبعيد بشجاعة السيد وثبات عزمه، وطار له ذكر بين الفرسان ونُظّمت فيه القصائد العنترية أو الهلالية بلسان رومان. ثم جاء قورنيل ونظم فيه روايته المشهورة بدون التفات للتاريخ والتعمق فيه، بل نسج على منوال القصائد الرومانية وتخيل فيها تخيلاته الشعرية، وجعل تلك المرأة التي تزوجها السيد بديعة الحُسن والجمال. ولما عشقها وعشقته اتفق أن والدها أهان والده فانقض عليه السيد وقتله، وتمكن من تسليط إرادته على عشقه. أما اسم «السيد» فأطلق عليه حينما كان متفقاً مع أمير سرقسطة وأمير البراسين وحارب معهما ولم نتعمق في التاريخ لنفهم هل دخل السيد في الإسلام أم لا. ومن أبيات قورنيل في روايته المذكورة قوله: (كلاهما سمَّياك سيدهما بحضوري لأن السيد بلسانهم تعادل كلمة سنيور).

أما ما أَلّفه راسين من الروايات الموافقة تماماً للقواعد المدرسية فأحسنها رواية «أندروماق». ونسجها على منوال سميّتها الرواية اليونانية المؤلفة قبل الميلاد بأربعة قرون. وتخالف رواية السيد في وحدة الزمان وفي أخلاق بطلها لتغلب العشق عليه وانتصاره على إرادة العاشق. ومن روايات راسين «استير» الإسرائيلية. ويشخصها أحياناً طلبة المدارس في بيروت. ورواية «إتلي» وهي من الإسرائيليات أيضاً. قال فولتير إنها

1 ـ عبارة «من فتك» غير موجودة في الأصل ولعلها سقطة مطبعية.

أحسن محصولات العقل البشري.

ومن أحسن ما ألفه موليير في المضحكات رواية «تارتوف» وهو رجل مرائي في نسكه وعبادته أغفل بخبثه أحد المتمولين من البسطاء واستولى على أمواله وعياله فصار اسم تارتوف كناية عن الرياء والخبث. وقد أتى المعري بأبيات كثيرة تشتمل على مضمون هذه الرواية كقوله:

وليس عندهم دين ولا نسك (فلا تغرك أيدٍ تحمل السبحا)
وكم شيوخ غدوا بيضاً مفارقهم يسبحون ويأتوا في الخنا سبحا

وألف بوالو كتاب «الهجويات» (ساتير) ووضع في قواعد الشعر كتاباً سماه «الفن الشعري» أو «الصناعة الشعرية» (آربويتيك). وأنكر الشعر والشعراء في المتقدمين وقال لم تأتِ فرنسا بشاعر قبل (ماليرب). أي أن الشعراء الذين جاءوا قبل دخول القرن السابع عشر لا يستحقون الذكر في مصاف الشعراء لعدم إتيانهم بالكلام المدرسي المنتظم المعقول ولتهافتهم على التصنع البارد في الكلام وإظهار الرونق الكاذب فيه وبيان مهارتهم وعلمهم بكل ما هو من فضول الكلام. ولذا فكلامهم لا طعم له. وفيه كثير من الغرور والإعجاب. فبوالو بالغ في كلامه وحَطَّ كثيراً من كرامة المتقدمين، ولكنه أصلح أساليب الشعر الفرنساوي كما أصلح باساكال أساليب النثر. وكان باسكال إماماً في العلوم الرياضية والطبيعية. واقتفى أثر بوالو في انتقاد كلام المتقدمين الوزير ضيا باشا وألف مجموعة سماها «الخرابات» خرب فيها كثيراً من أشعار الفرس والترك والعرب المتقدمين عليه. وكانت وفاته في بروسة سنة 1295هـ. فجاء كمال بك إمام الأدب في اللسان العثماني وكتب عليه انتقاداً سماه «تخريب الخرابات»، ونشره في مطبعة أبو الضياء. فالغاية التي يتطلبها أئمة الأدب العثماني كاللذين ذُكرا، وعبد الحق حامد بك مستشار سفارة لوندرة، وأكرم بك، وسعيد بك من أعضاء الشورى، والمعلم ناجي أفندي المتوفى منذ بضع سنين، وبقية النشأة الجديدة ـ هي تخليص لسانهم من مبالغات الفرس الأعاجم والسلوك فيه منهج بوالو وراسين وقورنيل وموليير وبقية أدباء عصر لويس الرابع عشر. لأن هؤلاء الأدباء يذهبون إلى أن التخيل الشعري ينبغي أن يكون مقروناً بالتعقل. فعندهم أن الشعر ليس أعذبه أكذبه، بل أحسنه أصدقه كما قال حسان:

وإن أحسن بيت أنت قائله بيت يقال إذا أنشدته صدقاً

واشترطوا في الروايات التمثيلية ثلاثة شروط:

وحدة الزمان

وحدة المكان

وحدة العمل.

أي أن الحادثة الممثلة على المراسح يشترط تصور حدوثها في زمن واحد أي في ظرف 24 ساعة مثلاً ليكون التمثيل أقرب إلى الحقيقة وأشبه بالواقع لأن حوادث الأربعة والعشرين ساعة يمكن اختصارها وتمثيلها في ساعتين.فـ(راسين) راعى هذا الشرط في رواية «أندروماق». وقورنيل خالفه في رواية «السيد» ونقل بطل الرواية من سنة إلى أخرى. فالقائلون بهذا الشرط تنقبض نفوسهم من تمثيل الحوادث التي حدثت في أزمان متطاولة. وقصدهم من وحدة المكان اشتراط وقوع الحادثة في مكان واحد لئلا ينتقل ذهن السامع من مكان لآخر فيبتعد بذلك عن الحقيقة. ولذا كانت مراسح القائلين بهذا الشرط ثابتة المناظر من أول اللعب إلى آخره. بحيث إذا رُفع الستار عن مكان يبقى المكان بعينه في الفصل الثاني وما بعده من فصول الرواية لمراعاة شرط وحدة المكان. والُمراد من الشرط الثالث أن يكون بطل الرواية واحداً وعروسها واحدة ثم السعي وراء عمل واحد وهو الحب مثلاً وينتهي بفناء المحبين أو أحدهما أو انتصارهما أو تغلب إرادة العاشق على عشقه كما فعل السيد وقتل أبا معشوقته أخذاً بثأر أبيه، أو بالعكس كما قتل سفير اليونان زوج محبوبته في رواية «أندروماق»، وخان بذلك وطنه، ولم يرع عهد من ائتمنه كل ذلك مرضاة لمعشوقته.

فمصدر هذه الشروط والقيود أمثالها هو التعقل في الكلام الأدبي وتحكيم الذوق السليم في فنونه. ولم يكن الأدباء قبل عصر لويس الرابع عشر يتعقلون في نظمهم ونثرهم لا يحكِّمون الذوق السليم فيها. ولذا كانت فنون أدبهم مشحونة بالخرافات والأباطيل وبما هو خارج عن الطبيعة والاعتدال وخارق للعادة ومشتمل على المبالغات العجمية وعلى زخرف القول. فلما تَعَّقل الأدباء في كلامهم وجدت الطريقة المدرسية التي قيل لها (كلاسيك). والكلمة كما هو معلوم مشتقة من الصف والدرس والمدرسة. لأن السالكين هذه الطريقة لا بد لهم من درس آثار الواضعين لقواعدها والارتياض في كلامهم لتحصل لهم ملكة في النظم والنثر. وإمام الطريقة المدرسية وشيخها الأكبر راسين.

17

الطريقة المدرسية عند الإفرنج

فروايات الأدباء والشعراء المتقدم ذكرهم يقال لها روايات مدرسية كما يقال للكتاب الذي يُدَرَّس في المدارس كتاب مدرسي. ويقصد به الكتاب الأقرب إلى مرتبة الكمال في الفن الذي هو مؤلف فيه. فرتبة الكمال يمكننا تصورها والإحاطة بها في العلوم المدرسية كالنحو والصرف والبيان والمعاني والعروض أو الفقه والحساب. ولكن في الأدب وفي الروايات التمثيلية - ليت شعري - ما هي مرتبة الكمال؟ ففي جواب هذا السؤال وقع الاختلاف بين مشايخ الطرق الأدبية من مدرسية ورومانية وحقيقية أو طبيعية. وفي نهايتهم الطريقة الإنسانية وهي موضوع حديث القوم في يومنا بسبب كتاب نشره المسيو فيكتور بيرار مستشار نظارة البوسنة والتلغراف. وبحث فيه عن الأوديسة التي نظمها اوميروس الشاعر اليوناني. وكان المسيو بول آدم بحث عن هذه الطريقة الأدبية الجديدة في مقدمة قصته التي عنوانها أسرار الجمهور (مستير دوفول). وبول آدم يحرر اليوم في جريدة الجرنال الباريسية.

فأصحاب الطريقة المدرسية يذهبون إلى أن مرتبة الكمال في الأدب هي «أولاً» تمام النسبة التي بين أساس الفكر وبين شكل التعبير. أي بين المعاني التي يختلقها

الشاعر وبين قوالب الألفاظ التي يسكب تلك المعاني فيها. فعلى مذهبهم لا يكفي أن يكون المعنى حسناً بل ينبغي أن يكون الحسن أيضاً في كيفية أداء هذا المعنى. فالكلام الجاري على الطريقة المدرسية هومعنى بديع في لفظ حسن[1].

فهذه الموازنة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير هي الخاصة المميزة لمؤلفات العصور المدرسية كعصر لويس الرابع عشر، وعصر أغسطوس، وعصر بيرقلس. والعصر المدرسي لا يوجد عند جميع الأقوام. بل بعض الأمم ليس لهم عصر مدرسي ولا أدب مدرسي مطلقاً ولا يتيسر لهم الوصول إلى مرتبة الكمال في الأدب أبداً. لأنهم إذا تمكنوا من الإتيان بالمعاني البديعة فلا يتمكنون من أداء هذه المعاني بالألفاظ الحسنة ولا يقدرون على الترجمة عن أفكارهم حق الترجمة لأحد السببين: إما أن اللسان الذي يتكلمون به لم يزل على خشونته ولم يكتسب بعد الشكل البديع. وإما أن تكون أساليب الفن ولوازم الصناعة الأدبية لم تعرف بعد عند المتكلمين به. ثم أنهم يشترطون في التأليف المدرسي أن يكون ظهوره في الزمن التي بلغت فيه أوج الكمال ويقولون لا بد من هذا الشرط. ويعترضون على أصحاب الطريقة الرومانية لأنهم تجاوزوا النسبة التامة التي بين أساس الفكر وشكل التعبير. ولم يكتفوا بالتعبير البسيط الذي يؤدي معانيهم تمام الأداء. بل أرادوا زيادة عن هذه النسبة التامة. بل تطلبوا أزيد من ذلك أيضاً. فأرجعهم تهافتهم إلى الوراء وساقهم إلى الأساليب الأجنبية وأوصلهم إلى طريقة لوب دوفيكه الإسباني وإلى طريقة بايرون وشكسبير الإنجليزيين.

ويذهب أصحاب الطريقة المدرسية إلى أن مرتبة الكمال في الأدب هي «ثانياً» وجود موازنة بين التخيل الشعري وبين التعقل. بل يشترطون وجود هذه الموازنة بين جميع الحواس فإذا كان التخيل الشعري في التأليف الأدبي منافياً للعقل فلا يعتبرون ذلك التأليف على نهج الطريقة المدرسية. مثال ذلك مبالغات شعراء الفرس ومن خالطهم من شعراء الترك والعرب. ومبالغات العرب أقل من غيرها لا سيما في كلام

---

1 - قال ابن خلدون: الذي في اللسان والنطق إنما هو الألفاظ. وأما المعاني فهي في الضمائر. فالمعاني موجودة عند كل واحد. وفي طوع كل فكر منها ما يشاء ويرضى فلا تحتاج إلى صناعة. وتأليف الكلام للعبارة عنها هو المحتاج لصناعة (Art). وهو بمثابة القوالب للمعاني. فكما أن الأواني التي يغترف بها الماء من البحرمنها آنية الذهب والفضة والصدف والزجاج والخزف. والماء واحد في نفسه. وتختلف الجودة في الأواني المملوءة باختلاف أجناسها لا اختلاف... آه كلامه. وفي بعضه نظر ولا يخفى أن الشاعرالمفلق أقدر من غيره على تصوير الأشياء ببصره وباصرته وعلى التعبير عنها بلسانه. فالمعاني المتحصلة في ذهنه لا توجد عند كل واحد.

الجاهلية وأهل الطبقة الأولى من الإسلاميين الذين لم يكثر اختلاطهم بالأعاجم ولا حصلت لهم أُلفة بفنون أدب الفرس ولا بتعبيراتهم. ومن المبالغات قول المتنبي في صباه يصف ما فعل به العشق:

أبلى الهوى أسفاً يوم النوى بدني..... إلى أن قال: لولا مخاطبتي إياك لم ترني.

فهذه المبالغة لا تنطبق على العقل ولا تحدث في العادة. والمتنبي ولد في الكوفة وذهب إلى فارس واختلط بأدباء العجم. ومبالغات نفعي كبير شعراء الترك المتقدمين (القرن الحادي عشر للهجرة) قوله بالألفاظ الفارسية والتركيب التركي يصف يوماً شديد الحر:

(.... كيم برمور بردم كرم ايله ايلريدي درياي سراب) ومعناه أن النملة بنَفَس حار تجعل البحور السبع سراباً. ومن قرأ ديوان نفعي حَسِبَ ناظمه من زمرة عوج بن عناق وظن تمثال رودس الذي كانت المراكب تمر من بين ساقيه صورة له. ومنها قول ضيا باشا ـ وهو في مقدمة أدباء النشأة الجديدة العثمانية وله وقوف على الفرنساوية ـ باللسان العثماني الجديد الذي يكثر فيه استعمال الألفاظ العربية. (سرولر أفلاكه سرجكمش مثال قديار). ومعناه مثل قد الحبيب كأشجار سرو تناطح برؤوسها الأفلاك. ويذكرني هذا ما قاله احد الواعظين في جامع أيا صوفيا بأن من صام كذا، وصلى كذا، وسبح كذا في ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر رزقه الله في الجنة حورية طولها ما بين بعد المشرقين. فإن كنا نستهجن طول الآنسة إيلابوين أطول نساء العالم ولا تتوق النفس إلى قربها وهي لا تزيد عن الطول المعتاد بأكثر من قدمين. فما بالك إن زاد قدُّ عروسنا عن ذلك؟

ويقسم علماء المعاني المبالغة إلى ثلاثة أقسام: وهي: ما كان وقعها جائزاً عقلاً وعادة ويقال لها التبليغ، ومعقولة وهي ما كان وقوعها جائزاً عقلاً لا عادة ويقال لها الإغراق، وغير معقولة وهي ما لا يجوز وقوعها العقل ولا العادة ويقال لها الغلو. فأهل الطريقة المدرسية يرفضون الغلو والإغراق في الكلام. ويقولون بأن بعض الأمم أو بعض العصور في الأمة الواحدة لها تخيل شعري وليس لها تعقل. وقد جاءت هذه الامم أو هذه العصور بكثير من المؤلفات البديعة التي لا تخلو من الفوائد. ولكن مؤلفاتهم ليست بمدرسية لوجود التخيل الشعري فيها بدون تعقل. كما هو الحال في ماها بهاراتة وراماياتة من أشعار الحماسة الهندية وفي الشعر الفارسي والتركي القديم وبعض أشعار العرب المخالطين للعجم. فمن خصائص العصور والآداب المدرسية تحكيم الذوق السليم في مؤلفاتها والذوق السليم لا يميل طبعاً إلا للجمال والتناسب والقياس. ولا وجود لما

ذكر في زمن تشكُّل اللسان ولا في زمن انقراضه.

ولأصحاب الطريقة المدرسية مسألة ثالثة أيضاً وهي محبتهم الصدق والحقيقة. فهم يذهبون إلى أن أحسن الشعر أصدقه لا أكذبه. ولكنهم لا يقصدون باتباع الحقيقة تصوير الحقيقة بعينها تصويراً تاماً كما ذهب إليه أصحاب الطريقة الحقيقية وورد في مؤلفات إمامهم إميل زولا. كلا. بل يقولون فقط بلزوم ارتباط التصوير الذهني وحده في الشعر لا يكفي[1].

وعندهم أيضاً أن التآليف المدرسية يجب أن تكون منحصرة في تصوير الجميل والبديع فالتآليف المغايرة للآداب الأخلاقية والموجبة لاشمئزاز النفس يندُر فيها الجمال فلا تكون مدرسية. فهم لا يطالبون الكاتب الذي يسلك طريقتهم بأن لا يحرك قلمه إلا في المواعظ الحسنة والأخلاق المستحسنة، ولا يصور فيها شيئاً غير الجمال. ولكنهم ينذرونه بسقوط مؤلفاته إن ملأها بوصف الأشياء القبيحة والأفعال الشنيعة. كما فعل زولا في كتاباته وصَوَّر فيها بؤس المعيشة وسفالة الحياة. ونظم أحد الأدباء في العام الماضي رواية صَوَّر فيها الأمراض الزهرية والعلل الافرنجية التي تحدث من الانهماك في العُهر، وشرح ذلك على مرسح اللعب شرحاً أليق أن يكون في غرفة الطبيب المخصص لمعاينة الأمراض السرية. فمنع المراقب تمثيلها في باريس كما منع رقصة الشربة والشمعة من المرسح المصري في المعرض الأخير. ويقال بأن الرواية المذكورة في غاية من البلاغة وباعثة على التعفف.

ويشترطون في الطريقة المدرسية شرطاً أخيراً وهو أن تكون المؤلفات فيها ملية قومية أي مصورة لأفكار القوم الفلسفية ولأحوالهم الاجتماعية. فإن كان التأليف الأدبي وضع تقليداً للأجانب فلا يكون مدرسياً. فبناء عليه يكون هذا الشرط مرعيّاً في المؤلفات التي استخرج صاحب (مجاني الأدب) زبدتها في كتابه لأنها من المؤلفات المختصة بالعرب قبل الإسلام وبعده. بخلاف المؤلفات العربية الموضوعة في زماننا على الأسلوب الإفرنجي ـ وربما كانت مترجمة عن لسان من الألسنة الأجنبية فإنها ليست على وفق الطريقة المدرسية. مع ما فيها من الفوائد التي سنذكرها في بحث الطريقة الرومانية.

فهذه زبدة الأقوال وخلاصة القواعد التي أسست عليها الطريقة المدرسية. فكان من أتى من الأدباء بعد عصر لويس الرابع - وهو القرن السابع عشر الذي بلغ اللسان

1 - هكذا في الأصل.

الفرنساوي فيه درجة الكمال - لا يخرجون في النظم والتأليف عن الأساس الذي وضعه مشايخ الطريقة المدرسية ولا عن الأساليب التي راعوها. ويتكلفون لذلك الصعاب ويعانون طول الدرس ومراعاة القواعد ليتمكنوا من تحسين العبارة ومن تطبيقها على ما يتخيلونه من التشابيه والاستعارات، ويلتزمون عدم الخروج عن أوزان العروض المصطلح عليها بين قومهم وجماعتهم، ويجعلون كل بيت في الغالب كلاماً تاماً ولا يأتون بشيء من الكلام السوقي المبتذل ولا يصورون رذيلة من الرذائل ولا سوأة من سوآت الإنسان وعوراته، ولا يصفون شيئاً من بؤس المعيشة أو سفلة الحياة الدنيا، وينتخبون مواضيع مؤلفاتهم من تواريخ القرون الأولى أي من تاريخ اليونان والرومان والعبرانيين. فكان كلامهم مشتملاً على التخيل الشعري وعلى التعقل المشروط وجودهما في الطريقة المدرسية. ولكنه بارد مملّ بسبب ما فيه من التصنُّع والتعمُّل ومن مراعاة تلك الشروط والقيود التي قيدت عقول أصحابه، ومنعتهم عن الخوض في مضمار الوسط الذي هم فيه ويشعرون به ويريدون البحث عنه فيمنعهم مراعاة تلك القواعد والأساليب الإنشائية. فمؤلفاتهم باستيفائها للشروط المدرسية لم تحدث تأثيراً على النفس ولا تهيجاً للعواطف كمؤلفات الطريقة الرومانية لعدم مراعاة شرط الإحساس القلبي فيها. ولذا قالوا بأن راسين وقورنيل وموليير وأهل طبقتهم لو أطلقوا العنان لأقلامهم، ولم يقيدوها بسلاسل تلك الشروط المدرسية لأتوا باحسن مما جاؤا به من درر الألفاظ وغرر المعاني.

فهذا ما كان عليه فن الأدب الفرنساوي قبيل الإنقلاب الكبير. ولذا كان الكثير من الكَتَبة، لا سيما النشأة الجديدة، يتذمرون من تقيدهم بتلك القيود المدرسية، ويرون أنفسهم كالمُقعد الذي يروم النهوض ولا يستطيعه لفقدان القدرة عليه. فكان مثلهم كمثل غلام في مكاتبنا أراد التحرير لوالديه فلم يرَ أمامه من نموذج الإنشاء سوى ما طبع في الأستانة من رسائل الخوارزمي والهمذاني. وكانت هذه النشأة الجديدة ترى أيضاً قصور الطريقة القديمة عن حقيقة البلاغة وهي مطابقة الكلام للواقع ومقتضى الحال. لأن أصحاب الطريقة المدرسية مع محافظتهم على التعقل في الكلام كانوا بكثرة تشابيههم واستعاراتهم لا يسمون الأشياء بأسمائها الحقيقية، ويستعملون الحشو، ويتكلفون للعبارات التي لا لزوم لها. فإذا أراد أحدهم الحقيقة أن يعين الوقت وهو يكتب قصة أو رواية ويقول مثلاً: «قبل مرور ساعة من الزمان» دَبَّجَ عباراته وكَثَّر استعاراته وقال:

(قبل أن يتم العقرب خطاه المنظومة وينقل إلى مينا الساعة المجلاة ستين خطوة موزونة...) الخ.. كما فعل الشاعر الفرنساوي أندره شينيه وهو خاتمة الشعراء السالكين

منهج الطريقة المدرسية وأبلغهم كلاماً. وكانت ولادته في الأستانة وأمه رومية فارتحل إلى باريس وصار فيها إمام أهل طبقته. فلما قتل سنة 1794م مع من قتل من أفاضل الرجال وأكابرهم بآلة الكيليوتين انقرضت الطريقة المدرسية بعد أن كانت قواعدها وأساليبها هي المرعية بين الأدباء. يتبع فيها الخلف أثر السلف. ومع اعتراف النشأة الجديدة بما فيها من القصور والخلل لم يقدم أحد منهم على تركها ولا الخروج عنها لأوائل القرن التاسع عشر.

فقبل هذا التاريخ كان جمهور الناس وعوام الأمة في تسيُّب وغفلة لا يقيدون على المصالح انتظمت أو لم تنتظم، ويدعون الأمور تجري في مجراها حسناً كان أو قبيحاً نافعاً أو مضرّاً كما يجري الماء في الأرض الطيبة بدون حفر النهر ولا كريه. وكانوا يستعملون هذا التعبير (Laisser aller) كما نستعمل تعبير (طيب معليش). ولا يهتمون بالمسائل العمومية والاجتماعية كأنها لا تعنيهم ولا يعود خيرها وشرها عليهم. فلما حدث الانقلاب الكبير في فرنسا سنة 1779م تغيرت البلاد ومن عليها في بضع سنين وانقلبت أفكار الناس وعاداتهم وأخلاقهم، وزال عنهم التسيب والغفلة والكسل والرخاوة، وشغفوا بحب الانتظام والدقة. فتقيدوا بالمسائل وتبصروا بالأمور، وكانوا صامتين ناصتين مفكرين متعقلين لا يضيعون أوقاتهم في ما لا فائدة فيه، ولا يشتغلون بالعبث من اللهو. اعتادوا على الآداب العسكرية في انتظام الحركات والسكنات لأن الأمة بأسرها حتى النساء والصبيان كانوا بأجمعهم تحت السلاح الكامل يكرون ويفرون من غرب أوروبا إلى شرقها ومن قارة إفريقيا إلى قارة آسيا أي من مصر إلى سوريا. فكان الواحد منهم لا يهمل في قيامه وقعوده أمراً، ولا يغفل في ملابسه عن زرٍّ،ولا يترك فيها فتقاً بغير رتق. وإذا وقف استقامت قامته لأن الإنسان مستقيم القامة. وإذا مشى أو ركب لا يتوكأ على الخدم كما تفعل أكابر بعض الأمم دلالاً وعظمة بل اعتمد في حركاته على نفسه. وانتزع من عقولهم أكثر الخرافات والأباطيل التي تولد في الإنسان عادة، ويكبرها الوهم في مخيلته ما دام في مكانه لا يخرج منه ولا يسيح في الأرض فينظر كيف كانت عاقبة المتقين.

فانقلاب الأخلاق والعادات والأطوار استلزم انقلاب اللهجة وتغيير التعبيرات. ولذا كان العصر الجديد مفتقراً لأسلوب جديد في النظم والنثر. وكان رجال العصر يترقبون حصول انقلاب في الأدب كما حصل في السياسة والعادات. فولد فيكتور هوكو وللعصر الجديد سنتان. وصار رجل هذا الانقلاب الأدبي.

18

الطريقة الرومانية

أسلوب الطريقة الرومانية ابتدأ ظهوره في مؤلفات شكسبير امام الأدب وأمير البلاغة. ثم نسج على منوال هذه الطريقة أدباء الألمان، وراجت بضاعتهم فيها. ثم جاء فيكتور هوكو وكشف أساس الطريقة وأوضح مزاياها وصار إمامها المشار إليه بالبنان.

(الأدب عن الإنجليز) فالإنجليز كانوا في مقدمة الأمم الأوربية التي انتبهت من غفلة القرون الوسطى، وبادرت إلى إصلاح لسانها ووضع فنون الأدب والعلم فيه. وقبل ظهور الأدب الإنجليزي كان الإنجليز أنفسهم يعتنون بأشعار المداحين وشعراء الربابة من الفرنساويين. وكانت اللغة الفرنساوية لسانهم الرسمي على عهد ملكهم كليوم الفاتح (1027 ـ1087) ومن خَلَفَه عليهم من السلالة النورماندية. ولذا بقيت الكلمات الفرنساوية مستكثرة في اللغة الإنجليزية شأن الكلمات العربية في التركية والفارسية. ثم اشتغل الإنجليز بتهذيب لغتهم وإصلاحها فأصبحت اليوم من أغنى اللغات الجديدة أدباً بعد اللسان الفرنساوي. ونبغ فيها وليم شكسبير (1564 ـ 1661)، وجمع في مؤلفاته ما تفرد به قورنيل وراسين من فن المبكيات وما اختص

به موليير وبومارشه[1] من فن المضحكات، وصار إماماً في كثير من الفنون الأدبية كفن التراجيديا التاريخية والدرام والكوميديا والأغاني المعبر عنها بالشعر الموسيقي (ليريك). فكان في أفانين الأدب كما قال الشاعر:

ليس على الله بمستنكر أن يجمع العالم في واحد

وألف شكسبير نحواً من 35 رواية ترجمت لجميع اللغات الأوربية، وترجمها للفرنساوية فرنسوا بن فيكتور هوكو وطبعت في 18 مجلداً. ولم تزل رواياته تُمَثَّل على مراسح الفرنساويين والطليان وغيرهما من الأمم. وتُمَثَّل أحياناً في الأستانة وإزمير ومصر الإسكندرية أيضاً. وأشهر ما يُمَثَّل منها «روميو وجولييت». وهما فتى وفتاة تحابَّا حبّاً شديداً وقاسيا تباريح الجوى بسبب العداوة التي بين أهل الفتى المُحب وبين أهل محبوبته. على مثال ما يقع بين قبائل العرب من العداوات التي تحول بين العاشق والمعشوق. بل على مثال ما يحدث في سوريا وفلسطين بين العائلات والبيوت القديمة من العداوات الجاهلية المانعة لوصال المتحابين ليومنا هذا. ففي أواخر القرن التاسع عشر للميلاد حدث في طرابلس حادثة هائلة تشابه عشق روميو وجوليت من وجوه عدة لا سيما في اقتران المحبين سرّاً بمعرفة فقيه من المشايخ كما اقترن روميو بجوليت على يد الراهب لورانس، وأفضى الأمر إلى هلاك المحبين في الحادثتين هلاكاً تذرف الدموع لقص خبره، وتنفطر القلوب لمشاهدة تمثيله. فالتهويل بالموت بالحادثة الممثَّلة يجعلها من فن المبكيات. وتزيين المجلس بظرف الراهب أو لطف الفقيه ما يقرب الحادثة المُمَثَّلة لفن المضحكات الذي مثلناه فيما سبق برواية «تارتوف» لأنها أحسن نموذج لهذا الفن. ولكن الفرق عظيم بين تارتوف وبين لورانس. لأن تارتوف تمثال مجسم للرياء والمكر يخدع الناس بحمل السبحة بيده ويصيد قلوب المغفلين بإظهار النسك وكثرة العبادة. وليس فيه شيء من الظرف والمجون ولا العلم والأدب المتصف بهما أبو زيد السروجي بطل مقامات الحريري. بخلاف الراهب لورانس أو الشيخ.. فإنهما من ذوي الناموس والوجدان. ولم يدخل كل منهما في الحادثة التي تخصه إلا لإصلاح ذات البين. فيظهر الواحد منهما على المرسح بهيئة الكمال والوقار. وعيون المتفرجين ترمقه بالإستحسان والاعتبار. ومع ذلك فوجوده في الرواية يقربها لفن المضحكات.

1 ـ بومارشة (1742ـ1799) هو الأديب الفرنساوي صاحب رواية (حلاق إشبيلية) و(زواج فيغارو). وقد انتقد في الروايتين المذكورتين على أخلاق المعاصرين وفساد آدابهم. وصَوَّر فيهما ما يشبه مجون أبي نواس.

ومن روايات شكسبير المشهورة أيضاً «هاملت» وهو اسم ولد لملك من ملوك الدنمارك في قديم الزمان. وخلاصة الرواية أن أم هاملت اتفقت مع عمه وهو أخو الملك. وكان شاباً حسن المظهر فسقى الملك سماً وتولى مكانه وتزوج أم هاملت فانتقم هاملت من عمه وقتله. وكان لهاملت معشوقة بديعة الحُسن تلاهى عنها بتدبير الحيل في طلب الانتقام فماتت كمداً. وأبلغ ما في الرواية حديث هاملت مع حَفّاري القبور وهم يحفرون قبر معشوقته ويشربون من القرعة ويتنادمون. فالنكات الفلسفية التي يفوه بها حفار القبور يقرب الرواية لفن المضحكات مع أنها من أبكى المبكيات. وقتل الملك على الوجه المتقدم له أمثال في التاريخ. منها قتل أم خالد بن يزيد لمروان بن الحكم في الدولة الأموية. ولم تزل الممثلة الشهيرة سارة برنار تمثِّل على المراسح دور هاملت بطل هذه الرواية، وتلبس لباس الرجال، كما تمثل دور النسر وهو ابن نابليون الأول وحفيد إمبراطور النمسا في رواية (ليكلون) التي نظمها شاعر العصر أدمون روستان. ومن روايات شكسبير أيضاً «مكبث» وهو قائد لجيوش دونقان ملك ايقوسيا من بلاد الإنجليز. قتل سيده وتغلب على مُلكه، وحكم من سنة 1049 إلى سنة 1057م فصَوَّر الشاعر قصته في تلك الرواية. وخلاصة الكلام فيها: إن مكبث اجتاز يوماً مع رفيق له بمفازة مقفرة فمرَّ بثلاث عجائز ساحرات كأنهن جنيات.

فقالت إحداهنَّ: السلام عليك يا مكبث يا أمير غلاميس.

وقالت الثانية: السلام عليك يا مكبث يا أمير قاودور.

وقالت الثالثة: السلام عليك يا مكبث يا من سيكون ملكاً على إيقوسيا.

فقال رفيقه بانقو: أعوذ بالله منكن. أي النسوة أنتن؟ أمِن الإنس أم من الجان؟ تفاءلتن بكل خير لرفيقي ولم تنبئنني بشيء.

فقالت كبراهن:ـ أما أنت فنخبرك بأحسن مما أخبرنا به رفيقك لأن عاقبته مشئومة ويموت بلا ولد يخلفه في المُلك. وأما نسلك فسيملُك على إيقوسيا، ويمتد المُلك فيهم. قلن ذلك واختفين كلمح البصر. وكان الأمر كما تنبأن به.

ففي يوم من الأيام نزل الملك دونقان مع بعض خواصه عند مكبث فبالغ لهم في الضيافة والإكرام وفرش للملك في المخدع ولقرنائه في الغرفة المجاورة. وكانت زوجة مكبث حريصة على تحقيق ما أخبرت به الساحرات فحرَّضت زوجها على قتل ضيفه وسيده. فدخل في ظلام الليل الحالك وأخذ خنجراً لأحد القرناء وهم غارقون في النوم

وغطَّسه في صدر الملك. فلما قتله أخذته الرهبة واستولى عليه الخوف والدهشة من هذا الجرم وغاب عن رشده. فتداركت زوجته الأمر ودخلت المخدع وغرفت بيدها من دم المقتول ولطخت وجوه قرنائه وأيديهم لاتهامهم بإيقاع الجرم فتمت الحيلة وجلس مكبث وزوجته على سرير الملك. ولكن لم يهدأ روع ليدي مكبث ولا استراح ضميرها. فصَوَّرَ الشاعر ندامتها في الفصل الأخير من روايته بأبدع أسلوب وأبلغ تعبير. وأخرجها على المرسح حاملة مشعلاً وهي لا ترى في عينيها إلا الظلام وتفرك بيدها كأنها لم تُنقَّ من لطخ الدماء ولا ذهبت الرائحة منها مع ما تطيبت به من طيب جزيرة العرب وعطرها المشهور وتحسب زوجها معها فتقول له: اغسل يديك، والبس ثوب النوم، وقلل من اصفرار لونك إلخ... ومن روايات شكسبير أيضاً (أوتيلو) بين فيها غيرة الزوج وشدته على زوجته وترجمها نظماً للفرنساوية ألفرد دوفينيه. وله غير ذلك من الروايات.

وأجاد شكسبير في تصوير أخلاق الرجال وتوصيفهم وبيان المزايا الخاصة بكل فرد من أفرادهم. فسلك في الأدب طريقة مستحدثة حاد فيها عن لهجة القدماء المؤسسة على أساليب اليونان والرومان، ونبذ وراء ظهره قواعد الطريقة المدرسية، ولم يلتفت في الرواية إلى وحدة الزمان والمكان ولا تصنَّعَ في الإنشاء، ولا تقصَّد فيه إيراد البديع من الكلام، ولا تهافت على التشابيه والاستعارات. بل أخذ ما يلهمه إياه الوجدان ويمليه عليه الضمير ويصوِّر الإحساسات الباطنية والآداب الاجتماعية بلهجة مألوفة للعموم آخذة بمجامع القلوب يتقلب فيها من طور الحلم والجود والكرم إلى طور الغضب والبطش والاستبداد وبين عوامل الحب والبغض واليأس والقنوط والحسد والطمع وحب الانتقام والتكبُّر والتجبُّر والتفاخر والتكاثر إلى غير ذلك مما هو مغروس في طينة الإنسان من الأخلاق والطبائع ويظهر تأثيرها على النفس بعبارات سلسة جلية ليس فيها تصنُّع ولا تعمُّل.

ثم نبغ في الإنجليز الشاعر ميلتون 1608 ـ 1674م وكان كاتباً لقروموبل الشهير. فلما مات وانقرضت دولته غدر الزمان بالشاعر وعُمي بصره وذهب ماله فأملى على زوجته وبنتيه كتاب «الجنة الضايعة». وهو في الحماسة المسيحية نظمه سنة 1658 بشعر لا قافية له، ورتبه على اثني عشر غناء فجاء من أحسن أبنية الشعر الإنجليزي، ومن أبدع ما ألفه شعراء الأمم الأوربية بعد كتاب «المضحكة الإلهية» المشابه لرسالة الغفران.

فتحسنت اللغة الإنجليزية واتسعت دائرة الأدب والتخيلات الشعرية فيها، ومال أدباؤها لقراءة الأشعار القومية الدارجة التي نظمها في القرون الوسطى التروبادور والزوفير وهم من شعراء الربابة المعاصرين لعرب الأندلس. وأوجدوا للشعر شكلاً جديداً وأسلوباً مبتكراً. ونبغ فيهم مثل شلي (1792 ـ 1822م) وزوجته، واللورد بايرون. وكان ذا نفس عال وتخيُّل واسع فنظم القصائد المعروفة بالشرقيات، وتشَيَّع فيها لليونان تشيُّع العجم للسادات، وتفانى في حبهم. ولم يزل غرام العشق يلعب برأسه أثناء حرب المورة إلى أن حطَّه العشق والهيام من أعلى قصور لوندرا إلى أسفل أكواخ ميسولونكي وهي قرية على ساحل خليج قورنت الفاصل بين شبه جزيرة المورة وبقية بلاد اليونان. وبسبب وخامة تلك القرية وعدم نظافتها كان هواؤها فاسداً فأصابت الحمى الشاعر الإنجليزي، وعجلت بروحه إلى الآخرة. ونقلت جثته إلى إنجلترا، وأقيم له في مسيولونكي تمثال يشاهده السائح في تلك البقاع. فاللورد بايرون هو مؤسس الطريقة الرومانية باللغة الإنجليزية. وله في الشعر الدراماتيقي رواية «ماتفرد» نظمها في إيطاليا على نسق رواية فوست وذكر فيها السحر والأرواح وخوارق الطبيعة. وله أيضاً رواية «دون جيان» نظمها على أسلوب مبتكر. وكلتا الروايتين تُمثلان الآن على المراسح الباريزية.

ومن مشاهير أدباء الإنجليز والتر سقوت (1771 ـ 1832م) كتب بالإنجليزية أكثر من سبعين قصة تاريخية بين سنة 1814 و1832. كلها في غاية التدقيق عَـوّل عليها المؤرخون ومنهم ميشله المؤرخ الشهير. لأن صاحب القصص له في الوقائع التاريخية نظر دقيق وشروح وافية قلما يتيسر للمؤرخ الإحاطة بها. ونسج على منوال والتر سقوت في القصص التاريخية وليم غودوين. ثم ظهر في عالم التحرير المؤلِّف والديبلومات الشهير بنيامين الإسرائيلي صاحب القصص السياسية. وقد اشتهر في التاريخ باسم اللورد بيقونسفيلد، ونبغ في فنون الأدب والسياسة، وساح سنة 1829 في إيطاليا واليونان وبلاد الأرناؤوط وبر الأناضول وسوريا ومصر والحبشة، ونشر كتب سياحته على طرز قصصي، وبين فيها آراءه السياسية، وعَرَّبَ «المقتطف» بتصرف قصة سياحته في سورية وفلسطين. وله قصة أخرى عنوانها «اسكندر بك أرناؤوط». وصار هذا الإسرائيلي رئيساً لوزارة المحافظين. وكان مخالفاً في السياسة لغلادستون رئيس حزب الأحرار. فثبت بيقونسفيلد أمام

مطامع روسيا وعارض في إجراء معاهدة إياستافانوس سنة 1877. ولكنه طمع في الأجرة على هذه الخدمة، وربح أكثر من اللازم في تجارته. وتوفي سنة 1881.

فيُفهم مما تقدم أن أول واضع لأساليب الطريقة الرومانية وليم شكسبير. ولكن أول ناسج على منوال هذه الطريقة ومُظهِر لمزاياها هم شعراء الألمان. وجميعهم من إنجليز وألمان وفرنساويين اقتبسوا أفانين الأدب من الإسبانيين والطليان المخالطين للعرب في القرون الوسطى.

19

الطريقة الرومانية عند الألمان والفرنساويين

أما الألمان فأقدم تأليف أدبي لهم «أغاني هيلد براند» نُظِمت في القرن التاسع للميلاد بلسان الألمان كما نظمت أغاني رولان بلسان رومان. وفي القرن الثالث عشر جمع ديوان نيبلوتجن كما جمعت قصة عنتر وذكر فيه الحروب التي حدثت بين قبائل نيبلوجن وبين أتيلا الذي هجم عليهم من الشرق وأبادهم. فهذا الديوان هو الحماسة الألمانية. ثم حدث الانقلاب الديني وظفر لوتر مؤسس أحكام الديانة البروتستانتية وترجم للألمانية الكتب المقدسة فاتسعت بذلك اللغة، وتهذبت نوعاً ما وظهر نفر من الكتاب والشعراء والعلماء. ومع ذلك استمر الألمان للقرن الثامن عشر للميلاد محرومين من فنون الأدب المعتبرة عند الأدباء. وكان الأمراء والأعيان في ألمانيا منكبين على تحصيل الأدب الفرنساوي وعلى حفظ الأشعار الفرنساوية والتمثيل بها والتكلم بالفرنساوية في نوادي سمرهم ومجتمعاتهم وضيافاتهم تشبهاً بملوك بروسيا وبما في القصر الملوكي ببرلين، إذ الناس على دين ملوكهم. وكان لفريدريك الثاني ملك بروسيا إعجاب شديد بالشاعر الحكيم فولتر الفرنساوي فقربه إليه وأحَلَّه في قصره محلاً رفيعاً. والحاصل كانت بضاعة الأدب الفرنساوي رائجة عند الألمانيين كرواجها

عند الروس. وكرواجها أيضاً بعد حرب القرم في الأستانة العليا ومصر القاهرة.

حضرت يوماً في مدرسة العلوم السياسية بباريس امتحان طالب تركي استامبولي أجاب جواباً مقبولاً عن أكثر الأسئلة التي ألقيت عليه مما يتعلق بأحوال فرنسا وشؤونها الداخلية اللازم معرفتها لأبنائها. فلما انتبه له المعلم وسأله عن البوسنة والهرسك وعن أحوال مسلميها وجده لا يعرف شيئاً عنهما، ولا يدري إن كان فيهما مسلمون أم لا. ورأيت في باريس تلميذاً مصرياً يحسن التكلم والكتابة بالفرنساوية ويتكلم العربية ولا يكتبها. وله والدة تركية تحرر له المكاتيب باللغة العثمانية. ولم يكن هو يعرف اللغة العثمانية لا تكلماً ولا كتابة سوى بعض عبارات متعارفة. ربما كانت والدته تعرف قدر ذلك من العربية فيتيسر لهما التفاهم والتكالم باللغة العربية التركية. وأما المخابرة التحريرية فلم يتمكنا منها إلا بواسطة الترجمان والكاتب مع أن كليهما ليسا بأميين بل هما على جانب من العلم والأدب فالانهماك باللغة الأجنبية أدى إلى أن الولد أصبح لا يعرف لغة أمه كما تجب معرفتها أدبياً وطبيعياً؛ لأن لغة الأم هي اللغة الطبيعية التي يسميها الفرنساويون (لانغ ماترنيل) ويسميها الأتراك (لسان مادر زاده) ومادر هي الأم بالفارسية.

وهكذا كانت الحال في ألمانيا بسبب تهافتهم على أدب اللغة الفرنساوية ففي الثلث الأخير من القرن الثامن عشر أي ما بين سنِيّ 1770 ـ 1780م جاء أدباء الألمان بطرز جديد من الأدب كان له رواج على مرسح اللعب. وأقبل الناس عليه إقبالاً عظيماً. مع أن الطرز الجديد الذي جاؤوا به كان عارياً عن تلك الصور والأساليب البديعة التي في مؤلفات أهل الطريقة المدرسية وخالياً عن ذاك التصنع أو التعمل الذي كانوا يتكلفون له ومجرداً عن تلك المحاسن التي كا نوا يؤلفونها تأليفاً. وإنما كان كلام الأدباء الألمانيين في هذا الطرز الجديد صادراً عن تأثر وتهيُّج وانفعال في النفس. وعن إحساس في القلب. فنفخ هذا الانفعال والإحساس الروح في كلامهم وصَيَّره كلاماً حيّاً تألفه أرواح المستمعين وتحنُّ إليه. ولم يقصد أدباء الألمان في ما ألفوه الامتياز بالفضل والعلم بين الخواص. وإنما كانت غايتهم إفهام كلامهم لعوام الناس ولجميع الأصناف من أولاد البلد الذين يقال لهم (بورجوا). فمن أجل هذا عدلوا عن الأخذ بعالي الطبقة من الإنشاء المصنّع، واستعملوا اللهجة المألوفة بين قومهم وأبناء بلدهم وجعلوا اهتمامهم في نفخ روح الحياة في كلامهم، وأدخلوا فيه كل ما يُحدث انفعالاً في النفس وتهيجاً في العواطف بغير تهافت على البديع من الألفاظ ولا على

رعاية القواعد وصوروا في كلامهم الغرائب والعجائب التي تتشوق الأسماع لاستطلاع حقائقها، ولا تطمئن القلوب إلا بعد الوصول لنهايتها، فإن الأُذن تعشق بطبعها الأخبار. ولذا نرى عوامنا في كل قطر وبلد يدورون وراء القصاص (الحكواتي) من قهوة إلى أخرى، ويتلذذون بسماع ما يتلوه عليهم من أخبار عنترة بن شداد، والزير أبي ليلى المهلهل والزناتي خليفة، وعلي الزئبق عايق زمانه، وقصة الملك سيف والملك زاد بحت بن شهرمان، وجميع ما ورد في ألف ليلة وليلة من الحكايات. وإذا بات بطل الرواية في ضيق وكرب لا يهدأ بالهم ولا تنام أعينهم إلا بعد تمام الخبر وفهم ما جرى له.

وكان أدباء الألمان إذا أَلَّفوا رواية فاجعة أخذوا موضوعها مما يرونه في قومهم ويشاهدونه في بلادهم. وإذا بحثوا عن الوقائع التاريخية اختاروا مباحثهم من تواريخ القرون الوسطى لا سيما من القصص والحكايات الدارجة على ألسنة الأمم الألمانية والجرمانية ترجيحاً لها على تواريخ القرون الأولى وعلى قصص اليونان والرومان. كما فعل غوته (1749 ـ 1833م) شيخ أدباء الألمان. فإنه اختار فوست بطلاً لروايته الشهيرة بهذا الاسم. وتداول اسم فوست على ألسنة العامة في ألمانيا وفي إنجلترا قبل تأليف هذه الرواية الألمانية. واشتهرت سيرته بين الناس بأنه من السحرة الذين باعوا الدنيا بالآخرة واشتروا الضلالة بالهدى فما ربحت تجارتهم ولا كانوا مؤمنين. واختاروا بطلاً لرواية أخرى (اكمون). وهو أمير في البحر هولندي الأصل اشتهر في تاريخ الألمان بخدمته لشارلكين وانتصاره على الفرنساويين وعلى ملكهم فرانسوا الأول المستنجد بالسلطان سليمان القانوني. ومن بديع ما ألفه أيضاً الشاعر غوته قصة وارتر» ثم ديوان «الشرقيات» (ديفان أورينتال). وهو مجموع أشعار نظمها على أسلوب غريب قلد فيها ديوان الحافظ الشيرازي أحد مشاهير شعراء العجم المتوفى سنة 794 أو 791 هجرية وكان الحافظ ممن اجتمع بتيمورلنك حينما ضبط شيراز. وجرى بينهما لطائف مشهورة. وقد ترجم ديوان الحافظ للغات الأوروبية كما ترجمت مؤلفات الأكابر من شعراء الفرس مثل الفردوسي صاحب الشهنامة المتقدم ذكرها ومثل الشيخ مصلح الدين سعدي صاحب «الكلستان» أوالبستان. ترجمه إلى الفرنساوية الموسيو باربيه دومينار مدير مدرسة الألسنة الشرقية بباريس. و«الكلستان» مترجم إلى العربية التركية ويدرس في عموم المكاتب العثمانية. وكان الصليبيون قد أسروا مؤلفه وحبسوه في طرابلس الشام وشغلوه في بناء الأبراج المحيطة بها من جهة البحر. فرق له أحد الأغنياء من أعيان حلب وافتداه بمال وخَلَّصَه من الأسر. وكانت وفاته سنة

691هـ. فإفرنج زماننا يحترمون سعدي قدر ما احتقره أسلافهم. وذكره فيكتور هوكو في مؤلفاته ونقل عنه. ومن مشاهير أدباء الألمان شيلر (1759 ـ 1805م). وكان معاصراً لغوته ورفيقاً له فاتخذ وليم تل بطلاً لروايته المشهورة بهذا الاسم. وكان وليم تل المذكور رئيساً للعصبة التي خرجت في بلاد السويس على حكامها النماسويين وحررت البلاد من قيد أسارتهم سنة 1307م. والمذكور من خبره في التاريخ أن الدوق أي والي بلاد السويس المعين من قِبَل إمبراطور الألمان نصب ذات يوم عموداً في ساحة المدينة، ورسم في رأسه تاج الدوقية، وأمر الناس بالخضوع أمامه. فرفض وليم تل الانقياد لهذا الأمر الذي فيه التحقير والإذلال لنوع الإنسان مع ما اختصه الله به من الكرامة. وورد في القرآن الشريف «ولقد كرّمنا بني آدم»[1]. وكان وليم تل من أشد الأبطال بأساً وأمهرهم رمياً بالنبل فغضب عليه الوالي، وأحضره بين يديه، وحكم عليه بوضع تفاحة على رأس ولده وفلذة كبده ورميها بالقوس والنشاب. ففعل ذلك وقلبه يتمَيَّز من الغيظ. وأصاب الهدف بعد أن كان الخطأ أقرب إليه من الصواب. فَصَوَّر الشاعر هذه القصة التاريخية، وبَيَّن فيها عوامل الاستبداد وعدم صبر النفس الأبية على الظلم والجور والاستعباد. وكان شيلر يلقب بشاعر النساء والشبان لتأثير أقواله فيهم أكثر من تأثيرها في المتأدبين من الرجال المائلين إلى التعمُّل والتصنُّع في الكلام وإلى الإنشاء العالي الطبقة. لأن كلامه كان سهلاً بسيطاً خالياً مما في الطريقة المدرسية من أصول الصك والسبك ومن أنواع البديع والاستعارات وفيه كثير من الألفاظ العامية والتراكيب المتداولة. ولكنه كان على السامع أشد تأثيراً وأخذاً بمجامع القلوب.

فبعد أن كان الألمان في الأدب عيالاً على الفرنساويين. وليس عندهم من المؤلفات الأدبية إلا ما هو ترجمة أو تقليد لما حُرِّر بالفرنساوية على نهج الطريقة المدرسية صاروا أئمة في الأدب يقتدى بهم وينسج على منوالهم. واشتهرت الطريقة التي سلكها غوته وشيلر وليستغ ومن اقتفى أثرهم بالطريقة الرومانية نسبة للغة رومان وهي اللاتينية الدارجة التي جاء بها جنود الروائيين وموظفوهم إلى بلاد الغولوا والسلت أي لفرنسا فتحرفت فيها، وامتزجت بلسان الفرانك، وانقلبت إلى اللغة الفرنساوية الحالية. فكلمة رومان كانت تطلق في القرون الوسطى على ما دوّن بلسان رومان من فَنَّي المنظوم والمنثور. وذلك مثل يمين ستراسبورغ وهو أقدم الأبنية في لسان رومان ومثل

1 ـ {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلاً}. آية: (70) سورة الإسراء.

رومان رولان ويقال لها أيضاً أغاني رولان ورومان المائدة المستديرة ورومان الثعلب ورومان السيد وكثير غير ذلك. فكانت المحررات الرومانية أي المدونة بلغة رومان تعتبر من التآليف الجاهلية بالنسبة للمحررات اللاتينية وهي ما حرر باللغة اللاتينية من التواريخ المقدسة وسير الصالحين والقديسين والصلوات الدينية. فاللسان اللاتيني كان إذ ذاك لسان المدارس والكنائس والمُعَوَّل عليه في العلم والدين. وكان في سبكه تصنيع وتعمُّل ومراعاة لقواعد الغراماطيق والعروض وبقية علوم الآلات المدرسية. ويبلغون علوم الآلات في العربية إلى اثني عشر علماً كما لا يخفى. فلغة رومان لم يكن فيها شيء من ذلك، بل كانت على فطرتها الطبيعية. وليس في سبك عباراتها أدنى تصنُّع ولا تهذيب. فما اختار أدباء الألمان مواضيع رواياتهم من رومان القرون الوسطى ورجحوه على مؤلفات اللاتين واليونان سميت طريقة أدبهم بالطريقة الرومانية. وأطلقت كلمة (رومانتيك) الفرنساوية على الأدب المستحدث تسمية له باسم أجنبي كما أطلقت كلمة (فرانك) الجرمانية على قبائل الغولوا والسلت وقيل لهم فرنساويون.

فطريقة رومانتيك المنسوبة لفيكتور هوكو تولدت في ألمانيا واشتهرت برقابتها للطريقة المدرسية وبميلها لإظهار قريحة القرون الوسطى وتصوير أخلاق أهلها وعوائدهم وحماسة فرسانها وصلابتهم في الدين وتعصبهم للمذهب وتهورهم في المسائل ومبالغتهم في الأخبار وتصديقهم بالخرافات والخزعبلات. وأراد أهل الطريقة الرومانية الفوز على أهل الطريقة المدرسية - لا بانتقاء الألفاظ وسبك العبارات وانسجام المعاني ومراعاة القواعد - بل بالإتيان بكل ما يحدث انفعالاً في النفس ويفتح مجالاً للتصور والخيال. ولذا عمدوا إلى القصص الدارجة على الألسن والمنقولة عن الأسلاف والجدود ووضعوها في قالب شعري، وألَّفوا بها رواياتهم، وأهملوا أساطير القرون الأولى من الإسرائيليات والخرافات اليونانية والرومانية. وجاء الفيلسوف الألماني هيجل وفَسَّر تفسيراً فلسفيّاً حقيقة الطريقة الرومانية. وهو يبحث في الصور المختلفة التي تغلب فيها العقل البشري فوجد فيها ثلاث طرق في صناعة الأدب منذ نشأته الأولى إلى زمانه وهي:

(1) الطريقة الرمزية (سيمبوليك).

(2) الطريقة المدرسية.

(3) الطريقة الرومانية. كما سنذكره.

ويظهر الفرق بين الطريقة المدرسية والطريقة الرومانية لكل مدقق حضر تمثيل

رواية مؤلفة على نهج الطريقة المدرسية مثل مؤلفات راسين ومنها رواية (أندروماق) اليونانية، و(إستير) و(أتالي) الإسرائيليتين، ومثل مؤلفات قورنيل ومنها (هوراس) وهي رواية الأخوة الثلاثة الرومانيين، ثم حضر في مراسح الأستانة وأزمير أو مراسح مصر وأوروبا تمثيل رواية فوست مثلاً. فأول ما يشاهد عند رفع الستار شيخ عليه الهيبة والوقار جالس على كرسي في غرفة المطالعة وأمامه مائدة تراكمت فوقها الكتب والدفاتر والأقلام والمحابر وهو يفكر في ما يكون إليه المرجع والمآب ويقلب على نور السراج أوراق الكتاب الذي خط فيه جابر ومسلمة علوم السحر والكيمياء ويتلهف على أيام الشباب وزمن التصابي ويقول:

إذا كان علم الناس ليس بنافع ولا دافع فالخسر للعلماء

وبعد أان يستولي اليأس على هذا الشيخ الفاني ينفخ في رأسه الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس، ويحرضه على دعوة الشيطان إليه وتلاوة العزائم عليه فبأسرار التلاوات وخواص الطلسمات يظهر صاحب الاسم والعزيمة المتوسل بها وهو خادم من الجنة، ويعلمه ما أنزل على الملكين ببابل هاروت وماروت. وما يعلمان من أحد حتى يقولا إنما نحن فتنة فلا تكفر. وهكذا يقول الخادم للشيخ فيبيع الآخرة بالدنيا ويشتري الضلالة بالهدى ويعلم منه ما يعيد الشباب والغناء ولعل ذلك بواسطة الأكسير الذي من خواصه إعادة الشباب وقلب المعادن إلى الذهب على زعم المتقدمين فينهمك الشيخ فوست في اللذات، ويغرق في الهناء والمسرات، ويعشق بنتاً يقال لها مارغريت فيراودها عن نفسها، ويفرق بسحره بينها وبين أمها، ويستهويها بالجواهر واللآلئ ويطغيها الشيطان.. فتستحق لعنة الله والملائكة والناس أجمعين. فيغتاظ أخو مارغريت من عُهر أخته، ويقف لعاشقها بالمرصاد، ويبارزه بالسيف فيقتل بوخزة خفية من ذاك الخادم الجني المرافق لفوست. فتستحيي مارغريت من هذه الفضائح ويذهب الرد منه فتقتل الولد الذي حملت به من فوست. ويأخذها حاكم البلد بما جنت يداها ويلقيها في السجن، فيأتي عاشقها لتهريبها. وهذه أشد ساعة على مارغريت حيث يتنازع قلبها عوامل الحب من جهة وعوامل الندامة من أخرى. فلا تجد لها ملجأ غير رحمة الله التي وسعت كل شيء فتحول وجهها عن عاشقها وتتوب إلى الله توبة خالصة. و{وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلامٌ عَلَيْكُمْ كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَن عَمِلَ مِنكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ

مِن بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَأَنَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ}[1]. فيغفر الله لها ما تقدم من الذنب وما تأخر ويقبضها إليه فتخرّ ميتة وتذهب نفسها الناطقة الخالدة إلى عالم الأرواح على شكل الحمامة التي وصفها ابن سينا بقوله:

هبطت إليه من المحل الأرفع ورقاءُ ذات تعزُّز وتمنُّع

وتنشق في آخر الليل سماءُ المرسح وتظهر مارغريت بأبهى الحلي والحلل في أعلى عليين بجانب أخواتها تحفّ بهنّ الملائكة المربون. وفوست ينظر إليها والعبرات تسيل من عينيه. واختلفوا في فوست فقالت طائفة إنه من الهالكين ومقرّه في الدرك الأسفل من النار. وقالت طائفة أخرى: لا بل استشهد في الحب وتاب إلى الله فتاب الله عليه والله خير التوابين. {وَاللَّذَانَ يَأْتِيَانِهَا مِنكُمْ فَآذُوهُمَا فَإِن تَابَا وَأَصْلَحَا فَأَعْرِضُواْ عَنْهُمَا إِنَّ اللَّهَ كَانَ تَوَّابًا رَّحِيمًا}. {إِنَّمَا التَّوْبَةُ عَلَى اللَّهِ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السُّوءَ بِجَهَالَةٍ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٍ فَأُولَئِكَ يَتُوبُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا }[2].

ويرى المتفرج على هذه الرواية أفعال السحر والسحارات المكارات اللواتي يطبخن المواد السحرية في القدر ويصببنها بين المفارق ليسحرن المارين في الطرق ويرى أيضاً أعمال الشيطان الرجيم وغوايته لمن يتبعه من الإنس وقدرته على خرق العوائد وإظهار العجائب وحكمه في هذه الدنيا الدنية الفاسدة وكيفية استعاذة النصارى منه بالصليب. ولذا جعل أهل القرون الوسطى قبضات سيوفهم على شكل الصليب ليتعوذوا بها من شر الشيطان الرجيم. وبهذا يكون السيف قاطعاً بقبضته في الروحيات وبحَدِّه في الماديات.

ولما ذهب نابوليون الأول بعساكره إلى بروسيا اجتمع في برلين بالشاعر غوته مؤلف رواية فوست المذكورة وحادثه طويلاً وعجب به وأحسن عليه بنيشان الافتخار فاتجهت نحو مؤلفاته أفكار الأدباء من الفرنساويين كما اتجهت قبلاً أفكار أدباء الألمان نحو مؤلفات فولتير حينما كان في سراي برلين من المقربين وكانت أساليب الطريقة الرومانية دخلت فرنسا على عهد نابوليون الأول بواسطة شاتو بريان ومدام دوستايل.

1 ـ سورة الأنعام آية 54.

2 ـ سورة النساء آية 16 وأية 17

أما الأول فهو الإمام الذي اقتدى به في الأدب فيكتور هوكو وقال: «أما أن أكون شاتو بريان أو لا شيء». واسمه فرانسوا رينه فيقونت وشاتو بريان نسبة لشاتوبريان أي لقصر بريان المشيَّد على نهر لورا بالقرب من نانت. وحيث كان من أشراف العائلات ذهب أيام الانقلاب الكبير إلى أميركا وساح بين أهلها المتوحشين وعاد منها لإنجلترا ثم لفرنسا ونشر قصة (إتلا) وذكر فيها ما شاهده في سياحته من عجائب الأمم المتوحشة. ثم نشر قصة (رينه) وقَصَّ فيها أخبار نفسه، وبَيَّنَ أفكاره وانفعالاته بسبب ما كشف له من الحقائق المزعجة. وامتاز بين الكتاب برونق الإنشاء وكثرة التصورات والإحساسات وبشدة الهيام وفصاحة الكلام فراجت بضاعته في الأدب، ونشر حينئذ (حكمة الديانة المسيحية)، وأقبل على تدقيق هذا الدين، وخرج لمشاهدة الأماكن التي ظهر فيها والبلاد التي انتشر بين أهاليها فساح في أقطار فلسطين وسوريا ومصر وبر الأناضول ونشر سنة 1809 كتاب «الشهداء»، وبَيَّنَ فيه كيفية ظهور الدين المسيحي على الدين الوثني ونشر سنة 1811 (دليل السياحة من باريس إلى القدس) وعرف الفرنساويون بشؤون القرون الوسطى بعد أن كان أدباؤهم مشغوفين بتعريف القرون الأولى وبتقليد أدباء اليونان والرومان. وكانت جريدة الديبا المشهورة بحسن الإنشاء وجودة التحرير حديثة الظهور. فأقبل على التحرير فيها، وبرع في قوة التصوير والوصف والتلوين. وكان لكلامه تأثير على النفوس فصار لمؤلفاته دخل كبير في ظهور أساليب الطريقة الرومانية. ودخل شاتوبريان الوزارة الخارجية، وتَعَيَّن سفيراً ثم ناظراً للخارجية.

أما المدام دوستايل فهي بنت الوزير نيكر الشهير. اشتغلت بالعلوم والمعارف - كما هي عادة سيدات النساء في ذاك العصر - ونبغت في فنون الأدب وأصبحت عالمة فاضلة يشار إليها بالبنان. فحررت سنة 1810م كتاباً مفيداً عن ألمانيا، وكتبت عن الأدب باعتبار ما له من العلائق بتشكيل الهيئة الاجتماعية. فدرست درساً فلسفيّاً أدب اليونان واللاتين. وبينت مدخل الدين المسيحي في تقريب عقول أهل الشمال من عقول أهل الجنوب. وذكرت الخواص المميزة لكل من الأدب الطلياني، والإسباني، والإنجليزي، والألماني. وما لكل منهم من العلائق بالفكر السياسي والأدبي. وشرحت تأثير الدين والأخلاق والشرائع على فنون الأدب. واستنتجت من تدقيقاتها العميقة أن الفكر البشري تابع لناموس الارتقاء مع المعاني الأخلاقية والفلسفية والعلمية والسياسية.. إلخ. ولكنه لم يتبع ناموس هذا الارتقاء في التخيلات الشعرية ولا في

التصورات الخيالية. فعندها أن الشاعر هوميروس مثلاً لا يذهب رونق كلامه وطلاوته ولا في عصر من العصور ولا يسمح به الدهر مرة أخرى.

ثم ظهر لا مارتين الشاعر السياسي الشهير ونظم ديوان التفكرات الشعرية. فكان أول بناء من أبنية الشعر الجديد الموسيقي (ليريك) وخالف فيه أساليب من تقدمه كما خالف المتنبي أساليب الشعراء الجاهليين. واشتمل ديوان لا مارتين على تمجيد الله الذي شرف عن التمجيد وعلى استغراقات في الحب وتجليات لطيفة ووصف مظاهر الكون وعالم الطبيعة وصفاً بديعاً. ومن أحسن ما نظمه قصيدة (البحيرة) التي ترجمها نظماً للسان العثماني سعد الله باشا سفير الدولة العلية في فيانا وباريس سابقاً. وفهمت بأن أحمد بك شوقي شاعر الحضرة الخديوية ترجم القصيدة المذكورة للعربية. وساح لا مارتين في الشرق وأحسن عليه ساكن الجنان السلطان عبد المجيد خان بمزرعة (جفلك) في ولاية أزمير، فمكث فيها وفي رُبى لبنان، وحَرَّرَ سياحته الشرقية وتاريخ الدولة العثمانية في ثمانية مجلدات، ونظم ديوان الألحان الشعرية والدينية وغيرها.

20

ظهور فيكتور هوكو

فجميع من ذكرناهم من الشعراء الفرنساويين وغير الفرنساويين تقدموا على فيكتور هوكو أو عاصروه ومهدوا له طريق الأدب الجديد. وكانت النفوس في ابتداء القرن التاسع عشر تائقة لرؤية أسلوب مستحدث في النظم والنثر ولحصول انقلاب في الأدب كما حصل انقلاب في السياسة. لأن النشأة الجديدة من الخواص كانوا نافرين من قيود الطريقة المدرسية. وجمهور العوام كانوا متألمين من استبداد أصحاب الانقلاب الكبير باسم الحرية. فإن رؤساء هذا الانقلاب لم يكتفوا بتغيير شكل الحكومة بل هدموا أساس الدين، وسببوا حدوث الفوضوية في الأمة. أي أنهم أفرطوا في جانب الدين والسياسة كما أفرط قبلهم ذوو التيجان من الملوك المستبدين. فكان الجمهور يترقب ظهور إمام في الأدب يعيد لهم الرجاء والأمل بالله. والشعراء يترقبون ظهور هذا الإمام ليخلص فن الأدب من القيود الذي قيده بها بوالو في كتابه المسمى (آربويتيك) أي صناعة الشعر. فكانوا يتمنون كسر هذه القيود وإعطاء الحرية التامة للفكر كما كُسرت سلاسل الاستبداد وهُدم بيت المظالم ألا وهو حبس الباستيل الشهير، وأطلق سراحِ المحبوسين فيه ظلماً وعدواناً.

فظهر فيكتور هوكو وبرع في اللغة الفرنساوية وفي طرق الإفادة بها فضلاً عن معرفته بالمفردات والتراكيب اللغوية. وصار له خبرة بما للكلمات من القيمة الموسيقية أي بالنغمة التي تحدثها كل كلمة والتأثير الذي يحصل من جمع نغمات الكلمات وألحانها. لأن الكلمة عند خروجها من الفم لها نغمة مخصوصة ولحن بحسب مخارج الحروف. وتختلف المخارج باختلاف الألسنة ولذا ورد في الحديث الشريف «اقرأوا القرآن بلحون العرب».

وقد عبر أئمة البلاغة من العرب عن هذه القيمة الموسيقية «بأجراس الكلم» ولا يخفى ما في هذا التعبير من الحلاوة لأن الصوت يرن بالألفاظ رنة الجرس. وصار لفيكتور هوكو أيضاً مهارة بعلم القوافي. فقوافيه عامرة مختلفة ليس فيها ما هو مكرر أو مبتذل بل جميعها ترد على غير ما ينتظره السامع. والخلاصة: كان يعرف أي كلمة يلزم وضعها في أي بيت وأي بيت يقتضي انتقاؤه لأي موضوع. وساعده الحظ في السفر إلى رياض الأندلس التي تتغذى القرائح بنفحات أزهارها وتقر العيون بحسن مناظرها. فصار ذهنه كأنه آلة بديعة تفي بوظيفة السينماتوغراف والفوتوغراف معاً فيصور ما يمر به من مشاهد الكون ويطبع ما يسمعه من حوادث الدهر، ويعرضه على القراء والمستمعين بدون أن يضيع من خبراً أو يغفل منظراً. فصور في أشعاره الخمائل وهي الشجر المجتمع الكثيف وكبقية تلاعب النسيم بأوراقها والأغصان الملتفة وما ترسمه على بساط المرج الأخضر من الظل الظليل والجبال الراسية، وما ينحدر عنها من الماء السلسبيل والأنهار الجارية، وما ينعكس على مرآة سطحها من ضياء القمر وشعاع الشمس. ووصف صفير البلابل وهديل الحمام وبغام الظباء وسجع اليمام وذكر غدوها ورواحها ما بين الرياض المزهرة والأشجار المثمرة والجداول المنحدرة وصور غير ذلك أيضاً تصويراً حقيقيّاً بأوضح بيان وأفصح تعبير حتى يخال لمن يقرأ أشعاره أنه ينظر إلى لوح من الألواح المصورة وبقلم الرسام وفرشاته. ويسمع خرير الماء وصوت مزمار الراعي وهو يتناقص كلما ابتعد مع محبوبته في جوف الغابة. وجعل الألفاظ تلبس المعاني كما يلبس الثوب على الجسم فجاءت ألفاظه طبقاً على معانيه. وكان بمجرد نظره في المواد تتفجر المعاني من قريحته فيزنها بميزان الحس، ويصوغ لها على قدرها قوالب من الألفاظ والتراكيب كأحسن صائغ للحلي وأمهر سبّاك للمعادن. فكانت طريقته في بادئ الأمر عبارة عن وصف الطبيعة ومناظرها البديعة. ثم هجم على قواعد المتقدمين وأساليبهم هجمة الأمة المستيقظة

من غفلتها وكسر القيود التي قَيَّدَ بها بوالو عقول الشعراء، ونبذ قواعد الطريقة المدرسية وراء ظهره وأصلح عروض الشعر الفرنساوي، وغَيَّرَ تركيبه بمقاطيع مختلفة، وجَوَّزَ تكميل معنى البيت بالبيت الذي بعده فوضع الجملة الواحدة في بيتين مما لم يجوِّزْه المتقدمون، وجعل نظم الشعر موافقاً لاحتياجات الفكر، وفتح لأخوانه من ذوي النشأة الجديدة طريقة مستحدثة في الأدب كانوا هائبين اقتحامها والولوج فيها.

فأوجد فيكتور هوكو بذلك الطريقة الرومانية، وحاد فيها عن استعارات الطريقة المدرسية وتشبيهاتها القديمة. ولم يتخذ كلام المتقدمين منوالاً لينسج عليه كما فعل أندره شينيه خاتمة أهل الطريقة المدرسية. بل اتخذ الذوق الطبيعي والإحساس الباطني دليلاً له في النظم والنثر كما فعل المتنبي والمعري وأهل طريقتهما الخارجين عن أساليب العرب المتقدمين. فكلما شعر فيكتور هوكو بشيء صَوَّرَه بقلمه كما يحس به في قلبه بدون تهافت منه على ترصيع الكلام بجواهر البديع وتدبيجه بحلل المجاز والتشابيه، فإن أتى بشيء منها في كلامه عفواً بلا تصنُّع ولا تكلُّف فنعم. وإلا فهو لا يهتم إلا بالمعاني وبما يتخيله فيها من حقائق الشعر. وإذا أراد تعيين الزمان مثلاً لم يتكلف ترتيب تلك الجمل المُصَنَّعة، ولم يذكر حركات العقرب على مينا الساعة، ولا شبه ذلك بدوران الفلك ولا بمنازل الشمس، بل قال بذوقه الطبيعي:

«غداً اليوم الخامس والعشرون من حزيران سنة ألف وستمائة وسبع وخمسين...» كما ورد في مطلع رواية «كرومويل» وهي من الروايات التشخيصية المنظومة شعراً. فهذا مقتضى البلاغة في تعيين الزمان. وهذه الشطرة المطابقة للحال أبلغ من سواها. ومن المثال السابق الذي مثلنا به من كلام أندره شينيه. فكان السالك نهج هذه الطريقة إذا عطش قال: هات اسقني. كما قال أبو نواس:

ألا فاسقني خمراً وقل لي هي الخمرُ   ولا تسقني سرّاً إذا أمكن الجهرُ

وأما السالك نهج الطريقة المدرسية فكان يحيد عن السوق الطبيعي ويصنع كلامه ويقول: «ألا ماءٌ بارد نطفئُ به حرارة جوفنا» كما قال ذلك البارد المتنحي.

فإيضاحاً لحقيقة الطريقة الرومانية لا نرى بدّاً من تلخيص القواعد التي أوردها بوالو في صناعة الشعر ثم تلخيص القواعد التي ذكرها فيكتور هوكو في مقدمة رواية «كرومويل» وعارض فيها بوالو وجميع المنتسبين للطريقة المدرسية.

21

طريقة بوالو

نظم الشاعر الفرنساوي بوالو كتابه الموسوم بـ«صناعة الشعر» سنة 1674م. وهي أرجوزة طويلة محكمة البناء عالية النفس جامعة لقواعد الشعر وأنواعه. واعتنى الشاعر في إنشائها كثيراً، وفكَّرَ فيها طويلاً لتكون قاعدة ونموذجاً في الشعر، واقتفى في نظمها وتأليفها أثر الشاعر اللاتيني هوراس وهو نقل عن أرسطوطاليس في كتابه الموسوم بـ«صناعة الشعر». ولأرسطوطاليس في الشعر كتاب آخر لخصه القاضي أبو الوليد بن رشد. وطبع هذا التلخيص المستشرق فوستولازينو في مدينة فلورانسه من إيطاليا سنة 1873. ولا نظن بوالو اطلع على قصيدة ابن رشيق ولا على مؤلفاته في هذا المبحث لأن الافرنج لم يكن لهم ألفة بأدب العرب في القرن السابع عشر. وإذا كانت عنايتهم باللغة العربية قبل ذلك حينما ترجموا كتب علمها إلى اللاتينية. ولم يعودوا لدرسها إلا في أواخر القرن الثامن عشر حينما نبغ شيخ المستشرقين سيلفستر دوساسي في باريس وشرح مقامات الحريري، وأَلَّفَ الكتب المعتبرة. ولما ظهر ضيا باشا من متأخري الأدباء العثمانيين، وقرأ العربية من الفرنساوية اقتفى أثر بوالو ونظم بالتركية كتابه المعروف بالخرابات، وانتقد فيه على كثير من شعراء الترك والفرس

والعرب. فجاء كمال بك وانتقد عليه في رسالة سماها «تخريب الخرابا»، وخَطَّأَه في كثير من مباحثه.

فالفصل الأول من كتاب بوالو في صناعة الشعر يشتمل على تفصيل القواعد التي أجملناها في الكلام على الطريقة المدرسية. وأكثر المؤلف في هذا الفصل من الحض على مراعاة قواعد النحو والصرف والمعاني وغير ذلك من علوم الآلات. وحذَّر كثيراً من الابتعاد عن سلام الذوق ولو قدر شبر. وشرع في الفصل الثاني والثالث في تطبيق هذه القواعد العمومية على أفانين الشعر المختلفة، وعرف كل فن منها على حدته. وبلغت فنون الشعر عنده إلى نحو أربعة عشر فناً. منه أنواع الغزل والتشبيب والرقصات والمطربات وما احتوى على ذل العشق ورقة الكلام والأدوار المنسوجة على منوال شعراء التروبادور المعاصرين للأندلسيين. ومنها أنواع المدح وأنواع الهجاء والهزل والسخرية والذم المشابه للمدح. ومنها أنواع الرثاء ونحو ذلك. وتكلم أيضاً عن الروايات التمثيلية وهي (التراجيديا) أي الفاجعات، و(الكوميديا) أي المضحكات، وعرف كلاًّ منهما وبَيَّنَ الشروط المقتضى مراعاتها في تأليف الرواية التمثيلية ولزوم وحدة الزمان والمكان والعمل. وعرف الشعر الموسيقي وهو النشيد والتلحين المسمى عندهم (ليريك) من كلمة لير وهي العود الذي يُغَنَّى عليه. وعرف أيضاً الشعر الحماسي المسمى عندهم (إيبوبه) ومعناها في الأصل الخطبة التي يقولها الخطيب.

فالشعر الموسيقي يمتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية أو الفردية أي المتفردة في ذات صاحبها. وذلك أن الشاعر يرى الحسناء فيشعر بالحب ويأمل الوصال. ويظهر له رقيب فيشعر ببغضه وبانقطاع رجائه من الوصال. وينال معروف الكريم فيشعر بالشكر له. ويموت صديق له فيشعر بالتفجع عليه. فبسبب هذه المشاعر تفيض نفس الشاعر بالغزل والنسيب والمدح والهجاء والرثاء، ويشاهد أيضاً بدائع المخلوقات وينظر في خلق الأرض والسموات فتفيض نفسه بالتسبيح والتهليل والتقديس والترتيل. فكل واحد مما ذكر من أفانين الشعر الموسيقي. ويختلف عروض كل منها وقوافيه باختلاف المشاعر التي يشعر بها واختلاف الإلهام الذي يهبط عليه. ويعتريه من ذلك دهشة أو انذهال وحيرة وسرور وانشراح أو انقباض وحزن فيظهر أثر ما ذكر في نظمه وشعره.

وأما الشعر الحماسي فهو رواية الوقائع العجيبة التي يقوم بها الشجعان. فقولنا رواية أي خبر يفصل هذا النوع من الشعر عن الشعر الموسيقي لأنه نشيد وغناء

وعن الشعر الدراماتيقي أي الدرام لأن أساسه العمل: ولا يلتبس بالتاريخ الذي هو خبر ورواية أيضاً لأن موضوع التاريخ الوقائع الصحيحة بلا إطراء ولا غلو. وأما الشعر الحماسي فموضوعه الوقائع الملفَّقة المشتملة على غرائب الشجاعة ونوادر الفروسية وأشهر كتب الحماسة «الإلياذة والأوديسة» لهوميروس اليوناني. و«أنييد» لفرجيل اللاتيني، و«الكوميدية الإلهية» لدانتي الطلياني، و«الجنة الضائعة» لملتون الإنجليزي، و«تخليص أورشليم» لطاسو الطلياني، و«هانرياد» لفولتير الفرنساوي. و«الحماسة النابليونية» لفيكتور هوكو. وعند أهل الشرق «ماها بهاراته» و«رامايانة» للهنود. و«الشهنامة» للفرس. وكتب الحماسة للعرب. وأشهرها كتاب «الحماسة» لأبي تمام حبيب بن أوس الطائي، وقد طبعه مع شرح أبي زكريا يحيى بن علي التبريزي عليه المستشرق الألماني فريتغ سنة 1828 في مطبعة مدينة بونة. والجزء الأول من عكاظ الأدب هو في الحماسة الحميدية فهو (إيبوبة) الحرب اليونانية الأخيرة كما حرر فيكتور هوكو «الإيبوبة النابوليونية». ومن أمعن النظر في الشعر العربي وجد أكثره من قبيل الشعر الموسيقي، أي النشيد والأغاني. وهو الممتاز بخاصته الشخصية وبإظهار الحواس الباطنة، ووجد فيه أيضاً من الشعر الحماسي. وهو الذي روى فيه أخبار الحروب، وأطنب بشجاعة الشجعان. ووجد المقامات تشابه ما عند الإفرنج من فن الكوميديا. غير أن صاحب المقامات جعل اهتمامه في انتقاء الألفاظ وبلاغة التعبير ولم يلتفت كصاحب الكوميديا لدرس أخلاق الرجال وبيان المزايا الخاصة بأفراد القوم أو الهيئة الاجتماعية. وكان الباحثون في أدب العرب لا يجدون فيه مثالاً «للدرام» الآتي تعريفه فجاء عبد الرحيم أفندي أحمد وعرض على المستشرقين في المؤتمر الحادي عشر المنعقد سنة 1897م في باريس «رسالة الغفران» للمعري، وبَيَّنَ مشابهتها بالكوميديا الإلهية ووعد بنشرها. وكان يوسف ضيا باشا الخالدي استنسخ «رسالة الغفران» المذكورة سنة 1370هـ من النسخة القديمة المحفوظة الآن بمكتبة الكوبريلي. وهي تجاه نظارة المعارف وتربة السلطان محمود في الأستانة. وهمَّ إذ ذاك بطبعها فحال دونه سفره لبلاد الأكراد واشتغاله السنين الطوال بترتيب القاموس الكردي وتدوين قواعد هذا اللسان الذي نبغ من أبنائه أمثال صلاح الدين الأيوبي صاحب الفتح القدسي. فإذا نشرت «رسالة الغفران» كما تطبع ترجمة «الإلياذة» الآن في مطبعة الهلال تمكَّنَ قراء العربية من الاطلاع على فن جديد في أدب العرب غير الشعر الموسيقي والشعر الحماسي. والمأمول ممن ينشر «رسالة الغفران» أن يقابل بين

النسخة المصرية والنسخة الإستامبولية لكيلا يقف ذهن المطالع كما حصل في المثال المنقول سابقاً من كتاب «إعجاز القرآن» للباقلاني بسبب وجود بياض في الأصل[1]. ومن دَقَّق النظر في لزوميات المعري عرف ما هو عليه هذا الشاعر الحكيم من علو الفكر واتساع القريحة، ولم يشتبه في أن كتابه الموسوم بالايك والغصون لم يغادر صغيرة ولا كبيرة من فنون الشعر والأدب إلا أحصاها. وقد أطنب المؤرخون في كلامهم على كتاب «الأيك والغصون» وزعموا أنه في ماية مجلد. ولكن إذا نظرنا في قولهم أن اللزوميات في خمسة مجلدات، ثم رأيناها مطبوعة في الهند في مجلد واحد وفي مصر في مجلدين حملنا ذلك على الظن بأن المائة مجلد من كتاب «الأيك والغصون» هي بمثابة عشرين مجلداً من اللزوميات طبعة الهند أو أربعين مجلداً من طبعة مصر. وعلى كل فهو من أعظم دوائر المعارف الأدبية في لسان العرب. ولا يعجز عن الإتيان بمثلها رهين المحبسين. والأيك هو الشجر الكثير الملتف. فكأنه أشار بهذا الاسم إلى أن الكتاب شامل لأصول الأدب وفروعه.

ثم إن بوالو بعد ما فرغ من بيان القواعد العمومية للشعر وبيان فنونه ولزوم اتباع الصدق والحقيقة فيه ذكر في الفصل الرابع من كتابه في صناعة الشعر ما ينبغي أن يتخلق به الشاعر من الأخلاق الحميدة، وما يجب أن يحض عليه من الخير والمعروف. فاعترضوا عليه بذلك وقالوا بأن هذا الفصل من مباحث علم الأخلاق لا من مباحث العلم والأدب. ولاموه أيضاً على اعتباره الشعر في مجرد قوالب الألفاظ وعلى تحديده بالحدود والتعاريف وإلزام الشاعر بمراعاة هذه الحدود في كل فن من فنونه وعدم الخروج عنها. وقالو بأن الشعر هو إلهام من الله والطبيعة ونور يفيض على القريحة التي فيها استعداد طبيعي لقبوله، ولا يمكن تعليم ذلك ولا تحديده بالحدود والتعاريف. والصحيح أن بوالو يعترف بأن اساس الفكر المعاني الشعرية لا يمكن تعليمها بالقواعد. ويقول بأنها هبة من الله واستعداد فطري وغريزي في قريحة الشاعر. وإنما الذي يدخل عنده تحت القواعد المذكورة هو شكل التعبير أي في قوالب الألفاظ التي تقاد بها تلك المعاني الشعرية.

1 ـ طُبعت «رسالة الغفران» بمصر سنة 1908 وصححها المرحوم الشيخ إبراهيم اليازجي.

22

هوكو والأدب الفرنساوي

ولما أَلَّف فيكتور هوكو رواية «كروموبل» التمثيلية سنة 1827 وضع لها مقدمة بَيَّنَ فيها ما هو الأساس الذي أنشأ عليه أبنية أوراقه وما هو أصل الشجرة التي أثمر فرعها فاكهة روايته. كما وضع المعري مقدمة للزوم ما يلزم وافتتحها بقوله: «كان من سوالف الأقضية إني أنشأت أبنية أوراق توخيت فيها صدق الكلمة ونَزَّهتها عن الكذب والميط». ثم ذكر القواعد التي راعاها في تأليف هذا الكتاب، وبَيَّن اللوازم التي تلزم القافية بدون أن يفتقر إليها حشو البيت، وأتى لها بالأمثال والشواهد المعتبرة من كلام الحكمة والموعظة كما هو مُفَصَّل في بابه. فخلاصة مقدمة كروموبل:

إن الإنسان منذ النشأة الأولى إلى الزمان الحاضر تقلَّبَ باعتبار التمدن أي الحضارة والعمران في ثلاثة أدوار: (1) القرون الابتدائية، (2) القرون القديمة، (3) القرون الأخيرة. وحيث كان الشعر سابقاً على اجتماع الإنسان وملازماً له فقد تَقلَّبَ معه أيضاً في ثلاث أشكال:

الشعر الموسيقي أي الغناء[1] (ليريك).
الشعر الحماسي أي الحماسة (إيبيك).
الشعر الدراماتيقي أي الهائلة (دراماتيك).

وذلك أن الإنسان لما انتبه في القرون الإبتدائية لعوالم الموجودات ـ وكانت قريبة عهد بالحدوث ـ انتبه معه الشعر. فانبهر من رؤية بدائع المخلوقات، وأسكرته الدهشة حتى لم يكن أول كلامه إلا «هيللة». وكان تفكره تجلياً وجذباً تصوَّره وحياً لقربه من موجد الكائنات وهو الله. فكان يناجي بقلبه ويهلل بلسانه كما يتنفس برئتيه. ولم يكن لعوده إلا ثلاثة أوتار: الخالق، والنفس، والمخلوقات[2]. غير أن هذا السر المثلث يشمل كل ما في الوجود. وكانت الأرض مقفرة تقريباً، وليس عليها من بني آدم إلا بطون وفصائل. ولم توجد بعد القبائل ولا الشعوب. وكان لهم آباء لا ملوك. وكل عرق من عروق البشر متمتع ببقائه. ولا معرفة لأفراده بالملكية ولا بالشريعة ولا بالخصومة ولا بالحرب. بل الكل لكل واحد وللكل.

فكان الاجتماع الإنساني شركة لا شيء فيها يضايق أفراد الإنسان. وكانوا يعيشون عيشة الرعاة والبداوة التي ابتدأ منها كل تمدُّن وعمران. وهذه المعيشة أوفق ما يكون لسائحات الفكر وهواجس القلب. فكانت نفس الإنسان سائحة على جناح الأهواء سابحة في بحر الخيالات. وفكره أشبه بسحابة تسيِّرها الرياح، وتغيِّر شكلها ووجهتها بحسب مهبِّها. فهذا هو الإنسان الأول. وهذا هو الشاعر الأول: فهو شاب وموسيقي. ودينه الصلاة بمعناها اللغوي فقط وهو الدعاء. وشعره الغناء. فهذا الشعر وهذا الغناء الذي للقرون الابتدائية هو «سفر التكوين».

ثم زال عن الإنسانية هذا الشاب رويداً رويداً واتسعت فيها جميع الدوائر. وصار البطن قبيلة والقبيلة شعباً وأمة، واحتشد كل مجتمع من هذا الاجتماع الإنساني العظيم حول مركز مشترك وتأسست الممالك. وحَلَّت طبيعة العمران محلّ طبيعة

---

1 ـ قد يتغنى المرء بالشعر الحماسي أيضاً. لأن الغناء إنما هو تلحين الشعر موسيقياً كان أو حماسياً. ولكن الغالب في الغناء إظهار ما في نفس الإنسان من الحس والشعور ولذا خصصناه هنا بالشعر الموسيقي الممتاز عن الشعر الحماسي بخاصته الشخصية. وكتاب «الأغاني» ألفه أبو الفرج الأصفهاني مبناه على الغناء في المئة صوت التي اختارها المغنون للرشيد. ولكنه جامع لكل فن من فنون الشعر والتاريخ والغناء. فهو ديوان العرب.

2 ـ لا يخفى أن فيكتور هوكو حينما ألف رواية «كروmويل» كان من حزب الملوكيين المتمسكين بالدين الكاثوليكي. ولذا فهو يرى التثليث في كل أمر ومسألة.

البداوة، وتبدلت الخيام بالقصور ومحطات الرجال بالمدائن وتابوت العهد بالهيكل؛ وأصبح رؤساء هذه الدول المستحدثة رعاة ـ للمواشي ـ بل للشعوب والأمم، وتبدلت عصا الرعاية بصولجان الملك، ووقف كل شيء وتعيَّن، وأخذ الدين شكلاً مخصوصاً، وانقلبت الصلاة من المعنى اللغوي إلى المعنى المصطلح عليه عند أهل كل مذهب، وتعينت أقوالها وأفعالها بحسب ذاك المذهب، وضرب الاعتقاد نطاقه على العبادة. وعلى هذا الوجه اقتسم الكاهن والملك أبوة الشعب. وعلى هذا الوجه قامت مقام الشركة الأبوية الجمعية الثيوقراتية. وهي الدولة الجامعة أحكامها بين الديانة والسياسة. وازدحمت الشعوب والأمم على سطح الكرة فتضايقوا وتخاصموا وانتشبت بينهم الحروب، واصطدمت الممالك بعضها ببعض، وطغى قوم على قوم. فأوجب هذا الطغيان مهاجمة الشعوب والأمم وتغريبهم ورحلاتهم. وتصوَّر الشعر هذه الوقائع العظيمة، وانتقل بذلك من الأفكار إلى الأشياء، وتغنى بالقرون والشعوب والممالك، وصار حماسة. وولد هوميروس. فهذا الشاعر في الحقيقة أحسن مُعرِّف للاجتماع الإنساني في القرون القديمة.. وكل ما في هذا الاجتماع بسيط وحماسي. والشعر عندهم دين والدين شريعة أي قانون. فبعد بكارة الدور الأول ظهرت طهارة الدور الثاني من أدوار الإنسانية. واستولى نوع من الوقار والاحتشام على الأخلاق البيتية والأخلاق العمومية.ولم تحفظ الشعوب من عوائد بداوتها إلا حرمة الغريب ورعاية ابن السبيل. وصار للعائلة وطن يربطها ونشأت محبة الوطن والدار وزيارة القبور.

فالتعبير عن مثل هذا التمدن لا يمكن أن يكون بأشعار الحماسة. وتقلَّبت أشعار الحماسة في أشكال كثيرة بدون أن تضيع خاصتها المميزة لها. فإذا تأملنا كلام الشاعر اليوناني بندار وهو من أهل القرن الخامس قبل الميلاد والملقَّب بأمير الشعراء الغنائيين لجودة قريحته في الشعر الموسيقي نجد كلامه كهنوتيّاً أكثر مما هو أبوي، وحماسيّاً أكثر مما هو موسيقي. وفي هذا الدور الثاني من أدوار العمران ظهر المؤرخون وجمعوا الآثار وأَرَّخوا القرون. ومع ذلك فظهور التاريخ لم يستلزم محو الشعر من الوجود بل استمر التاريخ حماسة. وكان المؤرخ هيرودوس كأنه هوميروس ثان. ومن نظر في روايات التراجيديا القديمة التي ألفها شعراء اليونان ومَثَّلوها على مراسحهم تبينت جليّاً أساليب شعر الحماسة ورأى علومهم في كل شيء وتجاوزهم الحد في العظمة والجبروت والهيبة والفخامة. فالأشخاص الممثلة في هذه الروايات هم من الجبارين وأنصاف الآلهة والآلهة. ومواضيع الروايات أحلام وهواتف ومقدرات وألواحها تعداد نفوس وتشييع

جنازات وحروب وغارات. وما كان ينشده الرواة من الأشعار كان يشدو به الممثلون. ففن التمثيل عند اليونان كان مقتصراً على هذا فقط، وكانوا يبنون مراسحهم على سفح الجبل بلا سقف يقي حر الشمس ومطر السماء وإنما هي درجات بعضها فوق بعض على شكل نصف الدائرة المسمى عندهم (امفيتياتر) وموضع التمثيل على الأرض في صحن المرسح. وهو في غاية السعة والجسامة ويستوعب تمثيل معبد بفنائه وسراي بدوائرها وقصورها وأبراجها ومدينة بأسواقها ومعكسر بمهماته. وكذا محلّ المتفرجين يستوعب ثلاثين ألف متفرج. مع أن مراسح الأوروبيين لا تستوعب أربعة آلاف. والمرسح الفرنساوي في باريس لا يستوعب إلا 1400. ومرسح الأوبرا فيها يستوعب 2200. ومرسح الشاتيلة - وهو أكبر المراسح في باريس - يستوعب 3600. وكان التمثيل عند اليونان يبتدئ في الصباح ولا ينتهي إلا في المساء. وربما مُثِّل في المرة الواحدة روايتان أو أكثر. وكان الممثلون يفخمون أصواتهم، ويعظمون قيافاتهم، ويتبرقعون بالبراقع المناسبة للرواية حتى يحاكي الواحد منهم الجبار العنيد أو البطل الصنديد الذي يمثل دوره. فيمثل برومته بن تيتان وهو مُقَيَّد بالسلسل فوق جبل قفقاس والنسر يأكل في أحشائه. لأنه صور من طين الأرض على هيئة الإنسان، ثم أراد أن يأخذ من نار السماء أو نورها لينفخ فيه الروح فأغضب الآلهة وجازاه كبيرهم بذلك الجزاء على ما اقترفت يداه. ويُمثِّل أيضاً أنتيغون وهي في أعلى الأبراج تفتش عن أخيها الذي كان في معسكر الأعداء من الفينيقيين. وقد ذكر خبرها الشاعر سوفوقل في رواية نظمها قبل الميلاد بأربعمائة سنة وسماها «أديب الملك». ونسج على منوالها الشاعر الفرنساوي فولتير، وسمى روايته الفرنساوية بهذا الاسم أيضاً. وأديب هذا ابن ملك من ملوك اليونان قتل أباه وملك على قومه وتزوج بأمه بدون علم منه. فلما وقف على حقيقة الأمر لم يتحمل هذه المصيبة فقلع عيني نفسه بيديه، وخرج من ملكه هاجّاً وابنته انتيغون تقوده. ويمثِّل الممثلون أيضاً على مراسح اليونان مركباً كبيراً ينزل منه خمسون أميرة بما يتبعهنّ من الخدم والحشم كما في الرواية التي ألفها الشاعر إيشيل قبل الميلاد بخمسة قرون. فكان يجتمع على مراسحهم فخامة البناء مع فخامة الكلام. ويمتزج التاريخ بالدين. وكان أول المضحكين عندهم من الكهّان. وكانت ألعابهم احتفالات دينية ومواسم أهلية. فجميع الروايات المحزنة اليونانية هي من أشعار الحماسة. وجميع الشعراء المتقدمين عيال على هوميروس. ورواياتهم مستنتجة من الإلياذة والأوديسة. ومواضيع الجميع منها يعود إلى محاصرة تروادة.

23

الديانة المسيحية والأدب

ثم أخذ هذ الدور الثاني من أدوار الشعر يتقلص ويتعتق كما تعتق العمران القديم. وجاء الرومانيون ونسجوا على منوال اليونانيين، ونسخ شاعرهم فيرجيل عن هوميروس. وانتهى دور الشعر الحماسي وفتح دور جديد للشعر والتمدن بظهور الديانة المسيحية. فالديانة الوثنية مادية ظاهرية. والديانة المسيحية روحانية باطنية. فلما حلت إحداهما محل الأخرى ودخل الإيمان بالمسيح قلب التمدن القديم قتله ووضع في جنازته المتعفنة جرثومة التمدن الحديث، وثبَّت بتعاليمه دعائم الأخلاق. وأول حقيقة جاء بها هذا الدين هي القول بوجود حياتين للإنسان: إحداهما فانية، والثانية خالدة. إحداهما على الأرض، والثانية في السماء. وأعلم الإنسان بأنه مركب من حيوانية ونطق أي من جسد ونفس. وبأنه نقطة الفصل المشترك. وهو في علم الهندسة النقطة المشتركة بين خطين والخط المشترك بين السطحين، والسطح المشترك بين جسمين. أو بأنه الحلقة المشتركة بين سلسلتين من المخلوقات إحداهما تتألف من الماديات، والثانية من الروحانيات. إحداهما تبتدئ من الجماد وترتقي للإنسان. والثانية تبتدئ من الإنسان وتصعد إلى الله.

ربما فقه بعض الحكماء المتقدمين شيئاً من هذه الحقائق، ولكن أول من أوضحها وجلاها الإنجيل الشريف. فأصحاب الديانة الوثنية خبطوا خبط عشواء، وساروا في ظلام الليل على غير هدى، ولم يفرِّقوا في طريقهم بين الحق والباطل. والبعض من فلاسفتهم أفاض من نبراس حكمته على الأشياء نوراً طفيفاً لم يضئ منها إلا الجانب الأصغر، وزاد في الظل الممتد وراء جانبها الأكبر. فنشأ من ذلك تلك الأشباح والخيالات التي وردت في فلسفة المتقدمين وأساطيرهم. لأن إضاءة تلك الأشياء بتمامها لا تتيسر إلا بنور الحكمة الإلهية. فلما جاء أمر الله قام النور الإلهي مقام هاتيك الأنوار المرتجة التي أتت بها الحكمة الإنسانية. وكان فيثاغورس وبقراط وسقراط وأفلاطون سُرُج الليل، فجاء المسيح بن مريم (عليهما السلام) ضوءاً للنهار. فحيث كانت عبادة الأوثان ديانة مادية لم يخطر على بال الأقدمين التفريق بين الروح والجسد كما في الديانة المسيحية. بل أوجدوا شكلاً وهيئة لغير الماديات وشخصوا المعنويات. فكل شيء عندهم مرئي، محسوس، متجسد، وآلهتهم مفترقون لسحابة يختفون فيها عن الأبصار. فهم يأكلون ويشربون وينامون. وتصيبهم الجراح فتسيل منهم الدماء. ويُلقى بهم من السماء إلى الأرض فيتحطمون كما حدث لفولكين إله النار حينما حملت به أمه من (جوبيتر) المشتري كبير الآلهة، ووضعته في أشنع صورة فاستنكفت منه أن يكون ابنها، ورمت به إلى الأرض فهبط على جزيرة ليمن من جزر الممالك العثمانية وانكسرت رجله. وذهب لبركان اتنا ووضع فيه كور الحديد. فهو يعرج من وقعه ويشتغل في صنعته أبد الأبدين ودهر الداهرين. ومن هؤلاء المعبودات ما هم آلهة ومنهم ما هم أنصاف آلهة فقط. ودنياهم معلقة بسلسلة من الذهب يمسكها كبير الآلهة. وشمسهم يجرها في مركبة أربع رؤوس من جياد الخيل. وجهنمهم هاوية عميقة يعين الجغرافيون فوهتها على سطح الكرة. وجنتهم على جبل أوليميوس في تساليا يسكنها الآلهة ويتلذذون بنعيمها. فالديانة الوثنية عجنت جميع المفتريات من أساطيرها في طينة واحدة، وصغرت آلهتها، وكبرت أوادمها حتى تشابه الفاني بالحي الذي لا يموت. فالأبطال الذين تكلم عنهم هوميروس في أشعاره كادوا يكونون أقراناً للمعبودين. فأبو الفوارس أجاكس غضب على جوبيتر وهو راجع من محاربة تروادة، وأعلن الحرب عليه وعلى جماعته. وأشيل عنترة الحروب اليونانية يضاهي في القوة والشجاعة المريخ (مارس). له الحرب وجلاد الفلك. بخلاف الدين المسيحي فإنه فَرَّق بين المادة والروح، وحَفَر وادياً عميقاً بين الجسد والنفس ووادياً آخر بين الإنسان

والآلهة. فبظهور النصرانية وبنشر تعاليمها دخل قلب الناس شعور جديد لم يكن معروفاً للمتقدمين واتسعت دائرة هذا الشعور عند المتأخرين اتساعاً غريباً. فهذا الشعور هو الماليخوليا أي السوداء. وهي أشد من الوقار المستولي على قلوب القدماء وأخفّ من الحزن. فالنصرانية وضعت في طبع المتدينين بها المزاج السوداوي، وجعلت الصلاة للفقير كالغنى للغني، وأسست بين الناس المساواة والشفقة والحرية. فمنذ أن أُدخل الإنجيل النفس بين الحواس ووضع الخلود وراء الحياة أصبح المتمسكون به يرون الأشياء بشكل جديد.

وعدا هذا في التاريخ الذي انتشرت فيه الديانة المسيحية حدث في العالم انقلاب كبير لم يتيسر معه أن لا يحصل انقلاب في العقول. لأن الانقلابات التي حدثت قبل ذاك التاريخ كانت عبارة عن سقوط دولة وقيام أخرى. ولم يكن لذلك تأثير كبير في قلوب العموم. بل المصيبة الحاصلة من تلك الانقلابات كانت كالصاعقة لا تصيب إلا الأماكن العالية والمقامات المرتفعة فعبَّروا عنها بأشعار الحماسة. ففي الاجتماع الإنساني القديم كان الفرد سافلاً حتى كانت المصائب لا تؤثر عليه إلا إذا نزلت بيته وأصابت أهله. ولا يعرف الواحد من أهل تلك القرون الخالية البؤس ولا التعاسة خارج الآلام البيتية. ولا كان يسمع في تلك الأجيال بأن المصائب العمومية الحادثة في المملكة تمس المعيشة الفردية. فلما حدثت تلك الانقلابات الكبيرة إبان انتشار الديانة المسيحية، وأصبحت الأمم الأوروبية في هرج ومرج يتلاطمون كالأمواج في البحر العجاج، وانقرض التمدن القديم باستيلاء الأقوام البربرية على ممالك الرومان حدث من ذلك تأثير في قلوب العامة وانفعال في نفس كل فرد من أفرادهم. وأخذوا يفكرون في مصائب الدهر ومرارة الحياة، وعرفوا بأن هذه الدنيا الفانية ما هي إلا هزر ولعب وكدر وتعب لا ينبغي للعاقل أن يغترّ بها. فهذا الشعور الذي ولَّد اليأس في قلوب المشركين كما علم من حال الأديب قانون، وَلَّد في قلوب المتنصرين الماليخوليا وهي السوداء.

وفي ذاك التاريخ أيضاً تولَّد فكر التجسس والاختبار. لأن تلك الوقائع العظيمة كانت أشبه برواية كبيرة مُثِّلت على مرسح الدنيا، وشهد المتفرجون عواقبها المدهشة. فهذه الوقائع عبارة عن وثبة وثبها الشمال على الجنوب وتغير بسببها شكل العالم الروماني. فأصبح يقاسي نزاع الموت، وبلغت روحه التراقي. فلما مات هذا العالم قام جمهور من النحويين والبيانيين والسفسطائيين يتقاتلون على جنازته، ويقبلون جسده

الذي لا حراك به. ويشرحون ويفسرون ويعبرون ويحللون، ويناقشون، ويجادلون كأنهم ذباب يتساقط على جيفة التمدن القديم. فمن سعادة هؤلاء المشرحين للعقول وحسن حظهم أنهم وجداوا جيفة يجرون عليها أول تجاربهم ويسبرون قروحها بمسبارهم. فكان أول جسد شَرَّحوه جسد أمة ميتة.

وعلى هذا الوجه نرى الآن ظهور جنية الماليخوليا والتفكير بجانب عفريت التحليل والتضاد، ونجد في أحد طرفي هذا الدور الانتقالي البياني الشهير لونجين (210 ـ 373م) ولد في حمص من سوريا وألف باليونانية في علم البيان «رسالة الإعجاز» التي ترجمها بوالو للفرنساوية. ونجد في الطرف الآخر القديس أوغوستين (354 ـ 430م) صاحب «المؤلفات اللاتينية». فجميع أدباء القرون الوسطى استقوا أفانين العلم والأدب من حياض الروم في القسطنطينية. ولا يجوز لنا احتقار هذا الدور الانتقالي من أدوار الأدب لأن فيه النطفة التي تخلَّقَت وولدت وكبرت حتى صارت عروساً تتمتع اليوم ببديع جمالها. فكَتَبة ذاك الدور ـ ونرجو هضم هذا التعبير الحر مع أنه سوقي مبتذل ـ زبَّلوا رياض الأدب ليجتني المتأخرون ثمارها.

فحيث كان هناك دين جديد وأمة جديدة اقتضى أن ينشأ على هذين الأساسين أبنية جديدة في الشعر. لأن شعر المتقدمين كان حماسة صرفاً. وبسبب تأثير الدين الوثني والفلسفة القديمة كان الشعراء لا يدرسون من الطبيعة الواجب عليهم تقليدها إلا وجهاً واحداً وهو وجه الجمال. وينبذون وراء ظهورهم جميع مالا علاقة له بشيء من نموذج الجمال بدون أن تأخذهم رأفة على صناعة الأدب المقتضي لها تقليد ما في الطبيعة من خير أو شر. فهذه الطريقة كانت في بادئ أمرها معتبرة. ولكن باضطرادها على قياس واحد زال رونقها، وذهبت طلاوتها، ونقصت قيمتها كما هو شأن كل ما اضطرد على وتيرة واحدة. فلما ظهر الدين المسيحي جرّ الشعر إلى الحقيقة ووضعه في مكانه. وصارت قريحة الشاعر النصراني ترى الموجودات بعين أوسع وأرق مما كانت تراه قريحة الشاعر الوثني. فشعرت هذه القريحة الجديدة بأن المخلوقات ليست كلها جميلة باعتبار الإنسان بل الشنيع منها بجانب الجميل. والمستظرف بقرب المستقبح. والشر أكثر من الخير. والظلام سابق النور. والجدل مخلوط بالهزل. وكلام السخرية وراء الإعجاز بالفصاحة. فقالت القريحة في نفسها:

أحكمة الشاعر النسبية الجزئية أحسن من حكمة الخالق المطلقة الكلية؟

أبلغ من حد الشاعر أن يقوِّم ما اعوج - على زعمه - من خلق الله؟

وهل الأبتر والأجدع والأجذم أجمل من كامل الأعضاء؟

وهل يحق لصناعة الأدب أن تنزع بطانة الثوب الذي تردت به الإنسانية والحياة والمخلوقات؟

وهل يجوز نزع عضلة من الجسم أو لولب من الدولاب إن أريد انتظام دورانه.

وهل من الواجب على المطرب أن لا يعرب؟

ثم نظرت هذه القريحة الجديدة في وقائع العالم فوجدتها مضحكةً مرهبة معاً، واعتراها المزاج السوداوي بسبب الاعتقاد المسيحي، وأثر عليها أيضاً الانتقاد الفلسفي المستفاد من ذاك الدور الانتقالي فخطت في الأدب خطوة كبرى زلزلت بها العالم العقلي، وقلبت عاليه سافله، وحذت في الشعر حذو الطبيعة، وخلطت في اختلاق المعاني النور مع الظلام وكلام السخرية مع الإعجاز بالفصاحة بدون أن تمزج أحدهما بالثاني. وبتعبير آخر جمعت في الشعر بين النفس والجسد، وبين الحيوانية والنطق. لأن الشعر والدين متلازمان والنقطة التي يسير منها أحدهما يسير منها الآخر. فأوجدت في الشعر نموذجاً جديداً وأسلوباً غريباً بالنظر للمتقدمين. وشرطت فيه شرطاً قلب شكله وأصلح قالبه. فهذا النموذج وهذا الشرط هو كلام السخرية الذي يظهر في قالب الكوميدية. فهذا هو الفرق الذي يفرق في نظرنا بين صناعة الأدب الجديدة وصناعة الأدب القديمة، وبين الشكل الجديد الحي والشكل القديم الميت. أو بتعبير أشهر من هذا - ولو كان مبهماً - هذا هو الفرق بين أدب الطريقة الرومانية وأدب طريقة المدرسية.

فيقول لنا حينئذ أهل الطريقة المدرسية:

ـ ها نحن أمسكناكم وأخذناكم بألسنتكم. أنتم تتخذون من القبيح نموذجاً للتقليد ومن كلام السخرية أسلوباً لصناعة الأدب؟ ولكن. أين اللطافة في ذلك؟ أين حسن الذوق؟ أما تدرون أن صناعة الأدب ينبغي لها أن تقوِّم ما اعوج من الطبيعة؟ أما تعلمون أن الواجب عليها إعلاء شان الطبيعة؟ أما تعلمون أن الأجدر بها انتخاب الأحسن مما في الطبيعة؟ هل أدخل المتقدمون القبيح أو السخرية في كلامهم؟ هل مزجوا الكوميديا بالتراجيديا؟ فاتبعوا - يا سادة - أساليب المتقدمين، واقتفوا في فنون الأدب أثر أرسطو وبوالو ولا هارب... إلخ.

ـ وفي الواقع أن حجج أهل الطريقة المدرسية دامغة. ولكن لسنا مكلَّفين بالرد عليهم، لأننا لا نريد وضع قواعد جديدة ولا تقييد العقل بالعقال كما قيدوه. إذ

حمانا الله من القواعد. وإنما نحن حققنا وجود أمر فنحن مؤرخون ولسنا منتقدين ولا مشرعين. فهذا الأمر موجود سواء أعجبهم أو لم يعجبهم. فقريحة الشعر الجديد تولدت من انضمام نموذج السخرية بالكلام إلى نموذج الإعجاز بالفصاحة. وهي غزيرة المنبع في ابتكاراتها مختلفة الأشكال في تصويراتها. بخلاف الشعر القديم فإنه وحيد الشكل وحيد الأسلوب لبساطته واضطراده على وتيرة واحدة. فهذا هو الفرق الحقيقي والأساسي بين أدب الطريقتين الرومانية والمدرسية.

نعم إن المتقدمين لم يجهلوا بالكلية حقيقة الكوميديا ولا السخرية التي نحن بصددها إذ لا بد لكل شيء من أصل. وجرثومة الدور الثاني لا بد من أن تكون في الدور السابق عليه. ففي الإلياذة كل من (فولكين) و(تيرسيت) نموذج لهذه السخرية والكوميديا. والأول مثال للآلهة. وقد مر ذكر السبب في عرجه وليس على أعرج من حرج. والثاني مثال للبشر. وصف هوميروس في الفصل الثاني من الإلياذة هذره في المنطق وهذيانه في الكلام وبَيَّنَ كثرة جلبته واستهزائه بجميع الناس حتى بالملوك. فكان في محاربة ترواده مضحكة اليونان يسخر بهم ويسخرون منه لأن فيه جميع النقائص والعيوب. ومن أمثلة السخرية أيضاً مكالمة منيلاس مع بواب القصر في رواية (هيلانة) التي نظمها الشاعر اليوناني أوريبيد في القرن الخامس قبل الميلاد.

ومن السخرية أيضاً ما نراه عند اليونان من الأشخاص الخارقة للطبيعة كالذي نصفه الواحد إنسان ونصفه الآخر سمكة. والذي بعين واحدة في جبهته وعرائس الجن اللواتي يظهرن على الإنس كأنهن حور الجنان. كل واحد من ذلك نموذج للسخرية. غير أن أدباء اليونان الأقدمين لم يتمكنوا من إيفاء هذا الموضوع حقه بسبب ما في أشعار حماستهم من الفخامة وما في رواياتهم من العظة والجلالة. فالسخرية في كلامهم ليست في موقعها لأنها مستورة بجلالة الشكل الحماسي. وأسلوب الحماسة يفوق فيها على أسلوب السخرية، ويمنعها من الظهور والبيان. بخلاف الأدباء المتأخرين فإن أسلوب السخرية له في شعرهم ورواياتهم موقع مهم. وهو في كل موضع من كلامهم. ويصورون بهذا الأسلوب الشناعة والفظاعة من جهة، واللعب من جهة أخرى. ويلحقون به في الدين ألف وسوسة وأباطيل غريبة. وفي الشعر ألف معنى مبتكر وتصوّر بديع. فأسلوب السخرية هو الذي أوجد في القرون الوسطى جميع هذه المخلوقات التي اعتقد الناس وجودها بين الإنسان والله من عوالم الجن والروح والملك، وملؤوا بها الهواء والماء والأرض والنار فلم يبق محل في الفضاء إلا وهي

ساكنة فيه. ومنها من هو على أكتافنا يكتب أعمالنا، ومنها من يأكل ويشرب معنا من طعامنا وشرابنا. ومنها من يلبسنا لبس الجلد على اللحم ولا يخرج منها إلا بالضرب الشديد والتعذيب. وهذه السخرية هي التي جعلت لشيطان النصارى قرون التيس وأرجل الخنزير وأجنحة الخفاش، وجرت الشاعر دانتي الطلياني وملتون الإنجليزي إلى تصوير تلك الصور الجهنمية العجيبة ووصفها بالأوصاف الهائلة والأشكال المخيفة حتى جاء في القرن السادس عشر المصور الشهير ميكل أنجلو ونقش على جدار كنيسة في الفاتيكان الذي يسكنه البابا صورة مفخمة بديعة سماها «اليوم الآخر» وهو يوم العرض والحساب. ولو قرأ القرآن الكريم لصوَّرَ جهنم «ترمي بشرر كالقصر كأنه جمالة صفر». ومن أمثلة هذه السخرية أيضاً الخادم الجني ميفستوفلس المرافق لفوست في الرواية المتقدم ذكرها ومنها الساحرات التي مركزهنّ في رواية مكبث، وأنواع كثيرة من الخدام والرصد القائمين على حفظ الكنوز المخيفة والعيون الجارية والأشجار الكبيرة. وكذا الحوت الذي يظهر في البحر كالجزيرة المعشبة والثعابين التي تحاكي في الضخامة الفيلة، وتحرق بنفسها كل مخضر، ونحو ذلك. فالمتأخرون عبروا عن جميع ما ذكر بكلام أفصح وأبلغ من كلام المتقدمين.

فأسلوب السخرية ما هو في نظرنا إلا ضدٌّ قام بجانب أسلوب الإعجاز بالفصاحة ليميزه ويظهره. لأن الأشياء تتميز بضدها. فهو أغزر المنابع التي فتحتها الطبيعة لصناعة الأدب. فطريقة المتقدمين أورثت الملل والكلال باطرادها على نسق واحد ومراعاتها لأسلوب واحد وهو أسلوب الإعجاز. لأن الإعجاز على الإعجاز والبلاغة وراء البلاغة والبيان تلو البيان متعب للفكر مجهد للذهن. فإذا فصل بينهما بكلام السخرية تفكَّهَ العقل وارتاح مما أجهده وأضناه، واستأنف السير نحو الإعجاز وهو في نشاط وارتياح بسبب توقفه بكلام السخرية والهزل. ثم لا يخفى أن الجميل إذا قرن بالقبيح زاد جماله رونقاً وصفاء وتلألؤاً واعتلاءً. ولذا كانت الجنة التي وصفها ميلتون ألذ وأشهى من جنان الإيليزه التي وصفها هوميروس وفرجيل. لأن ميلتون صَوَّر تحت جنة عدن جهنم أشد دهشة ونكالاً من (تارتار) المتقدمين. ولو لم يصف لنا دانتي حبس ذاك الجبار العنيد في برج مدينة بيزه وسد باب البرج عليه حتى هلك جوعاً بعد أن أكل أولاده، لما وجدنا طلاوة لحسن فرانسواز دور يمني، ولا لجمال بياتريس التي دخلت به جنان النعيم. إذ لو لم يكن في كلامه تلك الشدة والقسوة والعذاب الأليم لما كان فيه تلك الحلاوة الرائقة والعذوبة السائغة.

ففي شعر المتأخرين الإعجاز بالفصاحة يشبه النفس الناطقة المطمئنة بتعاليم النصرانية. والسخرية أي الهزر بالكلام يشبه الجسد الحيواني الذي في الإنسان. فالنموذج الأول بتجرده من الهذيان وسلامته من العيوب حاز كل الحسن والجمال والرشاقة والاعتدال والجذب واللطافة والرقة والحلاوة. وأخرج من خدور الأفكار عرائس مثل جوليت وأوفيليه اللتين صاغهما شكسبير في رواية «روميو وجوليت» ورواية «هاملت». ولعلهما تشبهان ليلى التي افتتن بها قيس العامري على عهد الدولة الأموية، ولُقِّب لأجلها بمجنون ليلى. وفاطمة التي هام بحبها امرؤ القيس وقال لها «أفاطم مهلاً بعض هذا التدلل». والنموذج الثاني ظهرت فيه جميع العيوب والعلل واتصف بالبشاعة والشناعة والهذيان والانهماك في الشهوات الحيوانية والرذائل الدينية وفي جر المنافع ولو بإيقاع المفاسد والجنيات. فهو فسيق دنيءٌ، شره، مهذار، بخيل، طماع، مرائي، مفسد، مفتن، قوّاد،غدّار، كذّاب، محتال. ويتمثل في صورة باصيل، وفيغارو وتارتوف، وهارباغون. والأول اسم راهب يحب مسايرة العاشقين على أهوائهم، ولكنه كثير الطمع في أموالهم. والثاني اسم خادم نشيط ظريف قوّاد لسيده أوصله إلى معشوقته، ومكَّنه من وصالها بمهارة حيله ودسائسه. وهما من الأشخاص التي أوجدها مارشه في روايتي «حلاق إشبيلية» و«زواج فيغارو». ونكت بها على أخلاق المعاصرين من الفرنساويين قبل الانقلاب الكبير أي في عهد لويس السادس عشر والخامس عشر، وبيَّن إسرافهم واستهزأ بأفعالهم. وفي سنة 1854 أي في عهد الامبراطورية الثانية، أنشأ أحد الكتبة جريدة هزلية سماها (فيغارو) إشارة إلى أنها تخدم خدمة فيغارو مع التنكيت والتبكيت وعدم المبالاة بشيء ولا التعصب لأمر.

فأصبحت جريدة الفيغارو اليوم أعظم الجرائد اليومية في باريس. وتارتوف نموذج الرياء، وهارباغون نموذج البخل. وهما من أشخاص روايات موليير. ويمكن أن يعد من هذا القبيل أيضاً أبو زيد السروجي في وعظه للناس بالمواعظ الحسنة ثم جمعه الفلوس واشترائه اللحم والخمر والجلوس للمنادمة مع غلامه كما هو موضح في مقامات الحريري. فالجميل ليس له إلا نموذج واحد. والقبيح له ألف نموذج، لأن جمال الجميل ما هو إلا نسبي بالنظر إلى الإنسان وباعتبار تركيب أعضائه. والقبيح له نسبة وعلاقة مع غير الإنسان؛ فهو جميل بالنسبة إلى عموم المخلوقات وقبيح بالنظر للإنسان وحده.

ففي القرون الوسطى نرى لكلام السخرية موقعاً بجانب الإعجاز بالفصاحة.

وكثر استعمال السخرية في الأدب في الرسم والتصوير والحفر وفي الأخلاق والعادات كالرسوم التي أحسن في تصويرها المصور الشهير ميكل أنجلو الطلياني والمصور مويلو الإسباني، وأبدع ما أتت به قريحته الراسمة التي نقش فيها كيفية الصعود إلى السماء. ثم ظهر شكسبير وصار ملك الشعراء كما قال دانتي عن هوميروس، ومزج كلام السخرية بكلام الإعجاز، وصاغ منها الدرام. فشكسبير هو أبو الدرام والدرام هو الخاصة المميزة للدور الثالث من أدوار الشعر والأدب العصري. وهو جامع للمرهب والمضحك من الكلام أي للكوميديا وللتراجيديا.

24

الإجمال

فإجمالاً لما تقدم لنا ذكره نقول:

إن الشعر له ثلاثة أدوار وهي الغناء، والحماسة، والدرام. ولكل منها مناسبة بدور من أدوار الاجتماع الإنساني الذي هو عمران العالم. فالقرون الابتدائية غنائية. والقرون القديمة حماسية. والقرون الجديدة درامية والغناء يترنم في الأزل. والحماسة تحتفل بالتاريخ. والدرام يصور حياة الإنسان. وخاصة الأول السذاجة. وخاصة الثاني البساطة. وخاصة الثالث الحقيقة. فرواة اليونان ـ ويسمونهم رابزود وهم أشبه برواة العرب الذي جاء منهم حماد الرواية وكانوا يطوفون القرى ويروون أشعار بندار وهوميروس وأيشيل ـ يدلون على دور الانتقال من الشعراء المغنين أي الناظمين لشعر الأغاني إلى الشعراء الحماسيين. والرومانيون أي مؤلفو الرومانات وهي الأقاصيص الموضوعة يدلون على دور الانتقال من الشعراء الحماسيين إلى الشعراء الدراميين. وبظهور الدور الثاني ظهر المؤرخون. وبظهور الدور الثالث ظهر الباحثون في حكمة التاريخ وبيان أسباب الوقائع وعللها.

صدر في سلسلة كتاب الدوحة

1 - طبائع الاستبداد	عبد الرحمن الكواكبي
2 - برقوق نيسان - (القميص المسروق) وقصص أخرى	غسان كنفاني
3 - الأئمة الأربعة	سليمان فياض
4 - الفصول الأربعة	عمر فاخوري
5 - الإسلام وأصول الحكم - بحث في الخلافة والحكومة في الإسلام	علي عبدالرازق
6 - شروط النهضة	مالك بن نبيّ
7 - صلاح جاهين - أمير شعراء العامية	محمد بغدادي
8 - نداء الحياة - مختارات شعرية - الخيال الشعري عند العرب	أبو القاسم الشابي
9 - حرية الفكر وأبطالها في التاريخ	سلامة موسى
10 - الغربال	ميخائيل نعيمة
11 - الإسلام بين العلم والمدنية	الشيخ محمد عبده
12 - أصوات الشاعر المترجم - مختارات من قصائده وترجماته	بدر شاكر السياب
• فتنة الحكاية جون أيديك - سينثيا أوزيك - جيل ماكوركل - باتريشيا هامبل	ترجمة: غادة حلواني
13 - امرأتنا في الشريعة والمجتمع	الطاهر الحداد
14 - الشيخان	طه حسين
15 - ورد أكثر - مختارات شعرية ونثرية	محمود درويش
16 - يوميات نائب في الأرياف	توفيق الحكيم
17 - عبقرية عمر	عباس محمود العقاد
18 - عبقرية الصدّيق	عباس محمود العقاد
19 - رحلتان إلى اليابان	علي أحمد الجرجاوي/صبري حافظ
20 - لطائف السمر في سكان الزُّهرة والقمر أو (الغاية في البداءة والنهاية)	ميخائيل الصقال
21 - ثورة الأدب	د. محمد حسين هيكل
22 - في مديح الحدود	ريجيس دوبريه
23 - الكتابات السياسية	الإمام محمد عبده
24 - نحو فكر مغاير	عبد الكبير الخطيبي